أضواء

على شروح خطبة الزهراء عليها السلام

تأليف

السيّد حسام المرسومي

الكتـــــاب: **أضواء على شروح خطبة الزهراء عليها السلام**
تـــــأليف: **السيد حسام المرسومي**
الطبعـــــة: **الأولى ـ ١٤٤٤ هـ**
نشر وتوزيع: **مكتبة الأبرار ـ النجف الأشرف**
رقم الإيـداع: **في دار الكتب والوثائق بغداد** (٣٥٣٤)
لسنة ٢٠٢١م
الفهرسة أثناء النشر

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

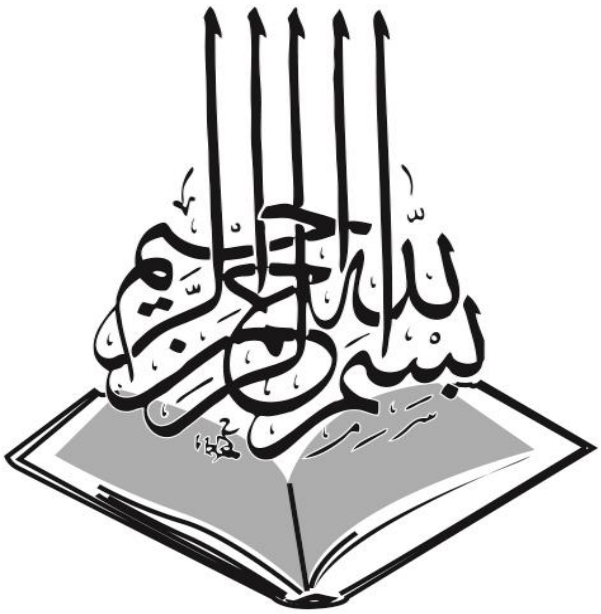
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله الذي تجلّى للقلوب بالعظمة، واحتجب عن الأبصار بالعزّة، واقتدر على الأشياء بالقدرة، فلا الأبصار تثبت لرؤيته، ولا الأوهام تبلغ كنه عظمته.

والصلاة والسلام على خير خليقته، وأفضل بريّته، محمّدٍ وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد...

ففي ظلّ غياب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وما جرى بعده من أمورٍ، كان أوّلها اجتماع القوم في سقيفة بني ساعدة الذي أسفر عن:

١. النقض لما أبرم يوم الغدير.

٢. تنصيب الخليفة الأوّل.

٣. التعاهد من قبل الأوّل للثاني.

٤. إدخال من رغب عنهم في قيادة الأمّة وتحديد مصيرها.

ومن هنا انطلق القوم لتأمين الجناح الآخر الذي لا يقل أهميّة عن الجناح الأوّل، فقاموا بأخذ أرض فدك، باعتبارها رافداً مهمّاً من روافد الدولة آنذاك، فسيطروا عليها مدّعين: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله لا يورّث.

فلمّا وصل الخبر إلى السيّدة الزهراء عليها السلام ما قعدت عنه، وانبرت هاتفةً باسم أبيها صلى الله عليه وآله وسلم، وهادفةً إيصال هذا الخطب إلى أمّته جمعاء، فخطبت في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خطبةً عصماء، قيل في حقّها: إنّها من محاسن الخطب وبدائعها، عليها

مسحة من نور النبوّة، وفيها عبقة من أرج الرسالة[١].

وبعد أن استتبَّ لهم الأمر، واستحكم سلطانهم، ووصلت حكومتهم إلى أقصى بقاع الأرض أعاد عمر بن الخطّاب للإمام عليٍّ عليه السلام تلك الأرض غير مكترثٍ لأبي بكر وحكمه فيها، ولم يكن ذلك إلّا لتعدّد مصادر الأموال وتنوّعها الذي نالته الدولة إبّان الفتوحات الإسلاميّة.

وقد ذكر ذلك أهل اللغة عند تعرّضهم لبيان معنى فدك، فقال صاحب المصباح[٢] وغيره[٣]: فَدَكُ: بِفَتْحَتَيْنِ بَلْدَةٌ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ مَدِينَةِ النَّبِيِّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ يَوْمَانِ وَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ خَيْبَر دُونَ مَرْحَلَةٍ وَ هِيَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ و تَنَازَعَها عَلِيٌّ وَ الْعَبَّاسُ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ فَقَالَ عَلِيٌّ جَعَلَهَا النَّبِيُّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ لِفَاطِمَةَ وَ وَلَدِهَا وَ أَنْكَرَهُ الْعَبَّاسُ فَسَلَّمَهَا عُمَرُ لَهُمَا.

نعم، ذهب صاحب المسترشد إلى كون عمر بن عبد العزيز هو من أرجع فدك إلى الإمام الباقر، و ذكر روايات في ذلك، فقال نقلاً عن هشام بن معاذ: كُنْتُ جَلِيساً لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، حَيْثُ دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَ مُنَادِيَهُ أَنْ يُنَادِيَ: مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلِمَةٌ، أَوْ قَالَ: ظُلَامَةٌ، فَلْيَأْتِ الْبَابَ، فَأَتَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ (ع) فَدَخَلَ عَلَيْهِ مَوْلَاهُ مُزَاحِمٌ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ (ع) بِالْبَابِ، فَقَالَ لَهُ: أَدْخِلْهُ يَا مُزَاحِمُ فَدَخَلَ مُحَمَّدٌ، وَ عُمَرُ تَسِحُ عَيْنَاهُ بِالدُّمُوعِ، فَيَمْسَحُهَا، فَقَالَ مُحَمَّدٌ (ع): مَا أَبْكَاكَ يَا عُمَرُ؟ فَقَالَ هِشَامٌ: أَبْكَاهُ كَذَا وَ كَذَا يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ.

---

(١) كشف الغمة ٢: ٢٠١.

(٢) المصباح المنير ٢: ٤٥٦.

(٣) لسان العرب ١٠: ٤٧٣، تاج العروس ١٣: ٦٢٢.

فَقَالَ مُحَمَّدُ [بْنُ عَلِيٍّ ع]: يَا عُمَرُ، إِنَّ الدُّنْيَا سُوقٌ مِنَ الْأَسْوَاقِ، مِنْهَا خَرَجَ النَّاسُ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَ مِنْهَا خَرَجُوا بِمَا يَضُرُّهُمْ، وَ كَمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ قَدْ ضَرَّهُمْ مِثْلُ الَّذِي أَصْحَابُنَا فِيهِ حَتَّى أَتَاهُمُ الْمَوْتُ، فَاسْتَوْعَبُوا فَخَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا نَادِمِينَ، لَمَّا لَمْ يَأْخُذُوا لِمَا أَحَبُّوا مِنَ الْآخِرَةِ عُدَّةً، وَ لَا لِمَا كَرِهُوا جُنَّةً، قَسَّمَ مَا جَمَعُوا مَنْ لَا يَحْمَدُهُمْ، وَ صَارُوا إِلَى مَا يُعْذِرُهُمْ، فَنَحْنُ وَ اللَّهِ مُحِقُّونَ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ الَّتِي كُنَّا نَغْبِطُهُمْ بِهَا فَنُوَافِقُهُمْ فِيهَا، وَ نَنْظُرُ إِلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ الَّتِي كُنَّا نَتَخَوَّفُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، فَنَكُفُّ عَنْهَا؛ فَاتَّقِ اللَّهَ وَ اجْعَلْ فِي قَلْبِكَ اثْنَيْنِ تَنْظُرُ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ إِذَا قَدِمْتَ عَلَى رَبِّكَ فَقَدِّمْهُ بَيْنَ يَدَيْكَ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِ، وَ تَنْظُرُ الَّذِي تَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ إِذَا قَدِمْتَ عَلَى رَبِّكَ، فَابْتَغِ بِهِ الْبَدَلَ، وَ لَا تَذْهَبَنَّ إِلَى سِلْعَةٍ بَارَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكَ.

فَاتَّقِ اللَّهَ يَا عُمَرُ، وَ افْتَحِ الْأَبْوَابَ، وَ سَهِّلِ الْحُجَّابَ وَ انْصُرِ الْمَظْلُومَ، وَ رُدَّ الْمَظَالِمَ، ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ:

فَجَثَا عُمَرُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِيهِ أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، قَالَ: نَعَمْ يَا عُمَرُ، مَنْ إِذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْ رِضَاهُ فِي الْبَاطِلِ، وَ مَنْ إِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ مِنَ الْحَقِّ، وَ مَنْ إِذَا قَدَرَ لَمْ يَتَنَاوَلْ مَا لَيْسَ لَهُ.

قَالَ: فَدَعَا عُمَرُ بِدَوَاةٍ وَ قِرْطَاسٍ وَ كَتَبَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ:

هَذَا مَا رَدَّ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، ظُلَامَةَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، فَدَكَ.

ثمّ كان يجب على الأمّة أن ينظروها، و لا يخذلوها، و لا يكذّبوها فإنّ فاطمة بضعة من رسول اللّه صلى الله عليه و آله لا تدّعي غير حقّها، و عليّ بن أبي طالب و الحسن و

الحسين لا يشهدون بالزّور.

فذكر هذا المحتجّ، أنّ من فعل هذا الفعال بآل رسول اللّه صلى الله عليه وآله فلا نصيب له في الإسلام.

هذا و قد أعطيا ابنتيهما ما ادّعيا من ميراث رسول اللّه صلى الله عليه وآله ثم منعهما عثمان.

رَوَى ذَلِكَ، شَرِيكٌ: أَنَّ عَائِشَةَ وَ حَفْصَةَ أَتَتَا عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ تَطْلُبَانِ مِنْهُ مَا كَانَ أَبَوَاهُمَا يُعْطِيَانِهِمَا، فَقَالَ لَهُمَا: لَا وَ اللَّهِ، وَ لَا كَرَامَةَ، مَا زَادَ لَكُمَا، عِنْدِي، فَأَلَحَّتَا، وَ كَانَ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ، وَ قَالَ: سَتَعْلَمُ فَاطِمَةُ، أَيُّ ابْنِ عَمٍّ لَهَا أَنَا الْيَوْمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: أَلَسْتُمَا اللَّتَيْنِ شَهِدْتُمَا عِنْدَ أَبَوَيْكُمَا؟ وَ لَفَّقْتُمَا مَعَكُمَا، أَعْرَابِيّاً يَتَطَهَّرُ بِبَوْلِهِ، مَالِكَ بْنَ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ، فَشَهِدْتُمَا مَعَهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله قَالَ: لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ؟

فَمَرَّةً تَشْهَدُونَ أَنَّ مَا تَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَدَقَةٌ، وَ مَرَّةً تُطَالِبُونَ مِيرَاثَهُ[1].

وقال أيضاً: فَأَمَّا فَدَكُ فَقَدْ رَوَى فُقَهَاؤُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله لَمَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِ: وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: يَا فَاطِمَةُ، لَكِ فَدَكُ.

وَ رَوَى أَيْضاً، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ: وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ دَعَا فَاطِمَةَ، فَأَعْطَاهَا فَدَكَ.

وَ حَدَّثَنَا، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ صَالِحٍ الْأَزْدِي، قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَابِسٍ الْمُلَائِيُ، عَنْ فُضَيْلِ بْنِ مَرْزُوقٍ عَنْ عَطِيَّةَ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ قَالَ: يَا فَاطِمَةُ لَكِ فَدَكُ.

فهذه رواياتهم، ثمّ يجرّون إلى العناد، و إلى منع ابنة رسول اللّه حقّها، تعصّبا على رسول اللّه و ذرّيته!!.

---

(١) المسترشد: ٣٠٥ – ٣٠٨.

و لعمري لقد كان عمر بن عبد العزيز أعرف بحقّها حين ردّ إلى محمّد بن عليّ عليه السلام فدك، فقيل له: طعنت على الشّيخين؟!، فقال: هما طعنا على أنفسهما، و ذلك لمّا صار إليه محمّد بن علي عليه السلام[1].

ثُمّ لم تستقرّ كثيراً عندهم، فأخذت الأرض منهم مرّةً أخرى، لكنّ المأمون أرجعها لهم، وهذا ما دلّ عليه حديث محمد بن زكريا، إذ قال: جلس المأمون للمظالم، فأول وقعة وقعت في يده نظر فيها و بكى، و قال للذي على رأسه: ناد، أين وكيل فاطمة، فقام شيخ عليه دراعة و عمامة و خف تعزى، فتقدم فجعل يناظره في فدك، و المأمون يحتج عليه و هو يحتج على المأمون، ثم أمر أن يسجل لهم بها فكتب التسجل و قرىء عليه، فأنفذه، فقام دعبل الى المأمون فأنشده الأبيات التي أولها:

أَصبَحَ وَجهُ الزَمانِ قَد ضَحِكا بِرَدِّ مَأمونٍ هاشِمٍ فَدَكا

فلم تزل في أيديهم حتى كان في أيام المتوكّل، فأقطعها عبد اللّه بن عمر البازيار، و كان فيها احدى عشرة نخلة غرسها رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله بيده، فكان بنو فاطمة يأخذون ثمرها، فاذا أقدم الحجاج أهدوا لهم من ذلك التمر فيصلونهم، فيصير إليهم من ذلك مال جزيل جليل، فصرم عبد اللّه بن عمر البازيار ذلك التمر، وجّه رجلا يقال له بشران بن أبي امية الثقفي الى المدينة فصرمه، ثم عاد الى البصرة ففلج[2].

ثُمَّ قد يسال سائل: لماذا لم يرجع الأئمّة عليهم السلام تلك الأرض حين تسلّموا زمام

(١) المسترشد: ٥٠١ – ٥٠٣.

(٢) السقيفة و فدك: ١٠٤، ١٠٥.

الأمر والسلطة؟

ولا نريد أن نتبرّع بالجواب ما دام أنّهم عليهم السلام أجابوا عن ذلك بما رواه الشيخ الصدوق: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الدَّقَّاقُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْكُوفِيُّ عَنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ النَّخَعِيِّ عَنْ عَمِّهِ الْحُسَيْنِ بْنِ يَزِيدَ النَّوْفَلِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع قَالَ: قُلْتُ لَهُ لِمَ لَمْ يَأْخُذْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ع فَدَكَ لَمَّا وَلِيَ النَّاسَ وَ لِأَيِّ عِلَّةٍ تَرَكَهَا فَقَالَ لِأَنَّ الظَّالِمَ وَ الْمَظْلُومَ كَانَا قَدِمَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ وَ أَثَابَ اللَّهُ الْمَظْلُومَ وَ عَاقَبَ الظَّالِمَ فَكَرِهَ أَنْ يَسْتَرْجِعَ شَيْئاً قَدْ عَاقَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ غَاصِبَهُ وَ أَثَابَ عَلَيْهِ الْمَغْصُوبَ.

وحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ الْقَطَّانُ قَالَ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ الْهَمْدَانِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ فَضَّالٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ ع قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِمَ لَمْ يَسْتَرْجِعْ فَدَكاً لَمَّا وَلِيَ النَّاسَ فَقَالَ لِأَنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَأْخُذُ حُقُوقَنَا مِمَّنْ ظَلَمَنَا إِلَّا هُوَ وَنَحْنُ أَوْلِيَاءُ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا نَحْكُمُ لَهُمْ وَنَأْخُذُ حُقُوقَهُمْ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَلَا نَأْخُذُ لِأَنْفُسِنَا[1].

وهذا الذي أشرت إليه موجزاً قد أشار إليه الأعلام مفصّلاً، فكتبوا فيه، وأماطوا اللّثام عنه، فأرجع إليهم تغنم إن شاء الله.

ووددت – كما اعتدت – أن أشير إلى مهمّات الكتب المعتمدة التي انكشف عنها هذا الكتاب الذي بين يديك:

فراجعت كتاب "البحار" للعلّامة المجلسي قدس سره فوجدته محيطاً بأقوالها، عارفاً بأسرارها، وقد سبق بشرحه، فكان له الحظّ الأوفى.

---

(١) علل الشرائع ١: ١٥٤.

وإن كنت أبديت ملاحظاتي على فروع ما كتب متأمّلاً فيها، وراجياً من القارئ أن ينظر إليها بعين الإنصاف، إلّا أنّي لم أقبل بما أودعه في البحار آخر الخطبة من روايةٍ كان الحريُّ به انكارها، ولا أقلّ من التعليق عليها[١].

وراجعت أيضاً ما كتبه الأغا التبريزي في لمعته البيضاء، فوجدته سالكاً مسلك اللغويين، خارجاً عن أجواء الخطبة الشريفة في أكثر المضامين.

ومن تلك الشروح "الزهراء وخطبة فدك" لكاتبها القدير الشريعتمداري، فقد أجاد في بعض تعليقاته على المجلسي، وأفاد أيضاً.

أمّا العلّامة اليزدي فقد شرح الخطبة شرحاً أدبيّاً، وكأنّه أراد بيان حال الزهراء عليها السلام، وكيف تصدّت لأقوام الشرّ والرذيلة، بعيداً عن معاني المفردات والجمل. وجيّدٌ ما فعله.

فقد شُرحت الخطبة وأُخذت فيها الدلالات اللغوية بما لا ينسجم مع عامّة الناس، فقام بسدّ تلك الثغرات ومعالجة تلك الفجوات. فجزاه الله خيراً وطيب مثواه.

أمّا عن كتابنا "أضواء على شروح خطبة الزهراء (عليها السلام)" فقام صاحب هذه السطور بدراسة أهمّ الأقوال وتمحيصها، والذبّ عن بعضها أو تقويضها، وقد آزرني على ختامه: جناب الشيخ صباح الربيعي، وجناب السيّد حيدر العوادي، وجناب الشيخ مصطفى الساعدي، وبعض ممّن وفقهم الله لنشر تلك الكلمات المضيئة في هذا العالم الذي تسوده العتمة ويعمّه الظلام، فلله درّ جميعهم وعليه أجرهم.

هذا، وقد واجهنا مشكلٌ فنيٌّ، وهو: نقل كلمات القوم نصّاً ـ في الأعمّ الأغلب في هذا الكتاب ـ ولم نتصرّف في تنظيمه ترقيماً. إنّما كان النظر إليه من ناحية المعنى فقط، ولذا قد تجد اختلافاً بين فقرات الكتاب المنقولة والمكتوبة، فلم نتلّكف تصحيحها و تقويمها.

---

(١) سيوافيك خبر الرواية التي أوردها صاحب البحار في خاتمة هذا الكتاب.

وقد تصدرت الخطبة الشريفة هذا الكتاب، وبعدها وقع الكلام فيما قاله راوي الخطبة، ثمّ في بيان فقرات الخطبة الشريفة، وما تخلّله فيها من أبحاث. علماً أنّي ابتدأت بكتابة الشرح في الليلة الرابعة من شهر رمضان واستغرق مدّة من الزمن يمكن وصفها بالطويلة، وذلك لتخللّ تلك الأيام مرض والدتي المكرّمة، ثُمّ وفاتها وانتقالها من دارٍ إلى دار. فرحمها الله وأسكنها جناته.

والحمد لله وحده..

السيّد حسام المرسومي

النجف الأشرف

١ صفر الخير ١٤٤٢هـ

نصّ الخطبة الشريفة

رَوَى عَبْدُ اَللَّهِ بْنُ اَلْحَسَنِ بِإِسْنَادِهِ عَنْ آبَائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ: أَنَّهُ لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَلَى مَنْعِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلاَمُ فَدَكاً وَبَلَغَهَا ذَلِكَ لاَثَتْ خِمَارَهَا عَلَى رَأْسِهَا وَاِشْتَمَلَتْ بِجِلْبَابِهَا وَأَقْبَلَتْ فِي لمّة مِنْ حَفَدَتِهَا وَنِسَاءِ قَوْمِهَا تَطَأُ ذُيُولَهَا مَا تَخْرِمُ مِشْيَتُهَا مِشْيَةَ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ فِي حَشْدٍ مِنَ اَلْمُهَاجِرِينَ وَاَلْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ فَنِيطَتْ دُونَهَا مُلاَءَةٌ فَجَلَسَتْ ثُمَّ أَنَّتْ أَنَّةً أَجْهَشَ اَلْقَوْمُ لَهَا بِالْبُكَاءِ فَارْتَجَّ اَلْمَجْلِسُ ثُمَّ أَمْهَلَتْ هُنَيْئَةً حَتَّى إِذَا سَكَنَ نَشِيجُ اَلْقَوْمِ وَهَدَأَتْ فَوْرَتُهُمْ اِفْتَتَحَتِ اَلْكَلاَمَ بِحَمْدِ اَللَّهِ وَاَلثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَاَلصَّلاَةِ عَلَى رَسُولِهِ فَعَادَ اَلْقَوْمُ فِي بُكَائِهِمْ فَلَمَّا أَمْسَكُوا عَادَتْ فِي كَلاَمِهَا فَقَالَتْ عَلَيْهَا اَلسَّلاَمُ:

«اَلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ وَلَهُ اَلشُّكْرُ عَلَى مَا أَلْهَمَ وَ اَلثَّنَاءُ بِمَا قَدَّمَ مِنْ عُمُومِ نِعَمٍ اِبْتَدَأَهَا وَسُبُوغِ آلاَءٍ أَسْدَاهَا وَتَمَامِ مِنَنٍ أَوْلاَهَا جَمَّ عَنِ اَلْإِحْصَاءِ عَدَدُهَا وَنَأَى عَنِ اَلْجَزَاءِ أَمَدُهَا وَتَفَاوَتَ عَنِ اَلْإِدْرَاكِ أَبَدُهَا وَنَدَبَهُمْ لاِسْتِزَادَتِهَا بِالشُّكْرِ لاِتِّصَالِهَا وَاِسْتَحْمَدَ إِلَى اَلْخَلاَئِقِ بِإِجْزَالِهَا وَثَنَّى بِالنَّدْبِ إِلَى أَمْثَالِهَا وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اَللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ كَلمّة جُعِلَ اَلْإِخْلاَصُ تَأْوِيلَهَا وَضُمِّنَ اَلْقُلُوبُ مَوْصُولَهَا وَأَنَارَ فِي اَلتَّفَكُّرِ مَعْقُولُهَا اَلْمُمْتَنِعُ مِنَ اَلْأَبْصَارِ رُؤْيَتُهُ وَمِنَ اَلْأَلْسُنِ صِفَتُهُ وَمِنَ اَلْأَوْهَامِ كَيْفِيَّتُهُ اِبْتَدَعَ اَلْأَشْيَاءَ لاَ مِنْ شَيْءٍ كَانَ قَبْلَهَا وَأَنْشَأَهَا بِلاَ اِحْتِذَاءِ أَمْثِلَةٍ اِمْتَثَلَهَا كَوَّنَهَا بِقُدْرَتِهِ وَذَرَأَهَا بِمَشِيَّتِهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَى تَكْوِينِهَا وَلاَ فَائِدَةٍ لَهُ فِي تَصْوِيرِهَا إِلاَّ تَثْبِيتاً لِحِكْمَتِهِ وَتَنْبِيهاً عَلَى طَاعَتِهِ وَ إِظْهَاراً لِقُدْرَتِهِ تَعَبُّداً لِبَرِيَّتِهِ وَإِعْزَازاً لِدَعْوَتِهِ ثُمَّ جَعَلَ اَلثَّوَابَ عَلَى طَاعَتِهِ وَوَضَعَ اَلْعِقَابَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ ذِيَادَةً لِعِبَادِهِ مِنْ نَقِمَتِهِ وَحِيَاشَةً لَهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ

وَأَشْهَدُ أَنَّ أَبِي مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ اِخْتَارَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ وَسَمَّاهُ قَبْلَ أَنِ اِجْتَبَاهُ وَاِصْطَفَاهُ قَبْلَ أَنِ اِبْتَعَثَهُ إِذِ اَلْخَلاَئِقُ بِالْغَيْبِ مَكْنُونَةٌ وَبِسَتْرِ اَلْأَهَاوِيلِ مَصُونَةٌ وَبِنِهَايَةِ اَلْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ عَلَماً مِنَ اَللَّهِ تَعَالَى بِمَآيِلِ اَلْأُمُورِ وَإِحَاطَةً بِحَوَادِثِ اَلدُّهُورِ وَمَعْرِفَةً بِمَوَاقِعِ اَلْمَقْدُورِ اِبْتَعَثَهُ اَللَّهُ إِتْمَاماً لِأَمْرِهِ وَعَزِيمَةً عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ وَإِنْفَاذاً لِمَقَادِيرِ حَتْمِهِ فَرَأَى اَلْأُمَمَ فِرَقاً فِي أَدْيَانِهَا عُكَّفاً عَلَى نِيرَانِهَا عَابِدَةً لِأَوْثَانِهَا مُنْكِرَةً لِلَّهِ مَعَ عِرْفَانِهَا فَأَنَارَ اَللَّهُ بِأَبِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ظُلَمَهَا وَكَشَفَ عَنِ اَلْقُلُوبِ بُهَمَهَا وَجَلَى عَنِ اَلْأَبْصَارِ غُمَمَهَا وَقَامَ فِي اَلنَّاسِ بِالْهِدَايَةِ فَأَنْقَذَهُمْ مِنَ اَلْغَوَايَةِ وَبَصَّرَهُمْ مِنَ اَلْعَمَايَةِ وَهَدَاهُمْ إِلَى اَلدِّينِ اَلْقَوِيمِ وَدَعَاهُمْ إِلَى اَلطَّرِيقِ اَلْمُسْتَقِيمِ ثُمَّ قَبَضَهُ اَللَّهُ إِلَيْهِ قَبْضَ رَأْفَةٍ وَ اِخْتِيَارٍ وَرَغْبَةٍ وَ إِيْثَارٍ فَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ تَعَبِ هَذِهِ اَلدَّارِ فِي رَاحَةٍ قَدْ حُفَّ بِالْمَلاَئِكَةِ اَلْأَبْرَارِ وَرِضْوَانِ اَلرَّبِّ اَلْغَفَّارِ وَمُجَاوَرَةِ اَلْمَلِكِ اَلْجَبَّارِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَى أَبِي نَبِيِّهِ وَأَمِينِهِ وَخِيَرَتِهِ مِنَ اَلْخَلْقِ وَصَفِيِّهِ وَاَلسَّلاَمُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اَللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

ثُمَّ اِلْتَفَتَتْ إِلَى أَهْلِ اَلْمَجْلِسِ وَقَالَتْ أَنْتُمْ عِبَادَ اَللَّهِ نُصْبُ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَمَلَةُ دِينِهِ وَوَحْيِهِ وَأُمَنَاءُ اَللَّهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَبُلَغَاؤُهُ إِلَى اَلْأُمَمِ زَعِيمُ حَقٍّ لَهُ فِيكُمْ وَعَهْدٌ قَدَّمَهُ إِلَيْكُمْ وَبَقِيَّةٌ اِسْتَخْلَفَهَا عَلَيْكُمْ كِتَابُ اَللَّهِ اَلنَّاطِقُ وَاَلْقُرْآنُ اَلصَّادِقُ وَاَلنُّورُ اَلسَّاطِعُ وَاَلضِّيَاءُ اَللاَّمِعُ بَيِّنَةٌ بَصَائِرُهُ مُنْكَشِفَةٌ سَرَائِرُهُ مُنْجَلِيَةٌ ظَوَاهِرُهُ مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْيَاعُهُ قَائِداً [قَائِدٌ] إِلَى اَلرِّضْوَانِ أَتْبَاعُهُ مُؤَدٍّ إِلَى اَلنَّجَاةِ اِسْتِمَاعُهُ بِهِ تُنَالُ حُجَجُ اَللَّهِ اَلْمُنَوَّرَةُ وَعَزَائِمُهُ اَلْمُفَسَّرَةُ وَمَحَارِمُهُ اَلْمُحَذَّرَةُ وَبَيِّنَاتُهُ اَلْجَالِيَةُ وَبَرَاهِينُهُ اَلْكَافِيَةُ وَفَضَائِلُهُ اَلْمَنْدُوبَةُ وَرُخَصُهُ اَلْمَوْهُوبَةُ وَشَرَائِعُهُ اَلْمَكْتُوبَةُ فَجَعَلَ اَللَّهُ اَلْإِيمَانَ تَطْهِيراً لَكُمْ مِنَ اَلشِّرْكِ وَاَلصَّلاَةَ تَنْزِيهاً لَكُمْ عَنِ اَلْكِبْرِ وَاَلزَّكَاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ وَنَمَاءً فِي اَلرِّزْقِ وَاَلصِّيَامَ تَثْبِيتاً لِلْإِخْلاَصِ وَاَلْحَجَّ تَشْيِيداً لِلدِّينِ وَاَلْعَدْلَ تَنْسِيقاً لِلْقُلُوبِ وَطَاعَتَنَا نِظَاماً لِلْمِلَّةِ

وَإِمَامَتَنَا أَمَاناً لِلْفُرْقَةِ وَالْجِهَادَ عِزّاً لِلْإِسْلاَمِ وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلَى اِسْتِيجَابِ الْأَجْرِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَامَّةِ وَبِرَّ الْوَالِدَيْنِ وِقَايَةً مِنَ السُّخْطِ وَصِلَةَ الْأَرْحَامِ مَنْسَأَةً فِي الْعُمُرِ وَمَنْمَاةً لِلْعَدَدِ وَالْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ وَالْوَفَاءَ بِالنَّذْرِ تَعْرِيضاً لِلْمَغْفِرَةِ وَتَوْفِيَةَ الْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ تَغْيِيراً لِلْبَخْسِ وَالنَّهْيَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ تَنْزِيهاً عَنِ الرِّجْسِ وَاجْتِنَابَ الْقَذْفِ حِجَاباً عَنِ اللَّعْنَةِ وَتَرْكَ السَّرِقَةِ إِيجَاباً لِلْعِفَّةِ وَحَرَّمَ اللَّهُ الشِّرْكَ إِخْلاَصاً لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ.

ثُمَّ قَالَتْ أَيُّهَا النَّاسُ اِعْلَمُوا أَنِّي فَاطِمَةُ وَأَبِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَقُولُ عَوْداً وَبَدْواً وَلاَ أَقُولُ مَا أَقُولُ غَلَطاً وَلاَ أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ شَطَطاً لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَعْزُوهُ وَتَعْرِفُوهُ تَجِدُوهُ أَبِي دُونَ نِسَائِكُمْ وَأَخَا اِبْنِ عَمِّي دُونَ رِجَالِكُمْ وَلَنِعْمَ الْمَعْزِيُّ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً بِالنِّذَارَةِ مَائِلاً عَنْ مَدْرَجَةِ الْمُشْرِكِينَ ضَارِباً ثَبَجَهُمْ آخِذاً بِأَكْظَامِهِمْ دَاعِياً إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ يجف الْأَصْنَامَ وَ يَنْكُثُ الْهَامَ حَتَّى اِنْهَزَمَ الْجَمْعُ وَوَلَّوُا الدُّبُرَ حَتَّى تَفَرَّى اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ وَأَسْفَرَ الْحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ وَنَطَقَ زَعِيمُ الدِّينِ وَخَرِسَتْ شَقَاشِقُ الشَّيَاطِينِ وَطَاحَ وَشِيظُ النِّفَاقِ وَانْحَلَّتْ عُقَدُ الْكُفْرِ وَالشِّقَاقِ وَفُهْتُمْ بِكَلِمَةِ الْإِخْلاَصِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْبِيضِ الْخِمَاصِ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ مَذْقَةَ الشَّارِبِ وَنَهْزَةَ الطَّامِعِ وَقَبْسَةَ الْعَجْلاَنِ وَمَوْطِئَ الْأَقْدَامِ تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ وَتَقْتَاتُونَ الْقِدَّ أَذِلَّةً خَاسِئِينَ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ فَأَنْقَذَكُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي وَبَعْدَ أَنْ مُنِيَ بِبُهَمِ الرِّجَالِ وَذُؤْبَانِ الْعَرَبِ وَمَرَدَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ

أَطْفَأَهَا اَللّٰهُ أَوْ نَجَمَ قَرْنُ اَلشَّيْطَانِ أَوْ فَغَرَتْ فَاغِرَةٌ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ قَذَفَ أَخَاهُ فِي لَهَوَاتِهَا فَلاَ يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ جَنَاحَهَا بِأَخْمَصِهِ وَيُخْمِدَ لَهَبَهَا بِسَيْفِهِ مَكْدُوداً فِي ذَاتِ اَللّٰهِ مُجْتَهِداً فِي أَمْرِ اَللّٰهِ قَرِيباً مِنْ رَسُولِ اَللّٰهِ سَيِّداً فِي أَوْلِيَاءِ اَللّٰهِ مُشَمِّراً نَاصِحاً مُجِدّاً كَادِحاً لاَ تَأْخُذُهُ فِي اَللّٰهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ وَأَنْتُمْ فِي رَفَاهِيَةٍ مِنَ اَلْعَيْشِ وَادِعُونَ فَاكِهُونَ آمِنُونَ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا اَلدَّوَائِرَ وَتَتَوَكَّفُونَ اَلْأَخْبَارَ وَتَنْكِصُونَ عِنْدَ اَلنِّزَالِ وَتَفِرُّونَ مِنَ اَلْقِتَالِ فَلَمَّا اِخْتَارَ اَللّٰهُ لِنَبِيِّهِ دَارَ أَنْبِيَائِهِ وَمَأْوَى أَصْفِيَائِهِ ظَهَرَ فِيكُمْ حَسَكَةُ اَلنِّفَاقِ وَسَمَلَ جِلْبَابُ اَلدِّينِ وَنَطَقَ كَاظِمُ اَلْغَاوِينَ وَنَبَغَ خَامِلُ اَلْأَقَلِّينَ وَهَدَرَ فَنِيقُ اَلْمُبْطِلِينَ فَخَطَرَ فِي عَرَصَاتِكُمْ وَأَطْلَعَ اَلشَّيْطَانُ رَأْسَهُ مِنْ مَغْرَزِهِ هَاتِفاً بِكُمْ فَأَلْفَاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُسْتَجِيبِينَ وَلِلْعِزَّةِ فِيهِ مُلاَحِظِينَ ثُمَّ اِسْتَنْهَضَكُمْ فَوَجَدَكُمْ خِفَافاً وَأَحْمَشَكُمْ فَأَلْفَاكُمْ غِضَاباً فَوَسَمْتُمْ غَيْرَ إِبِلِكُمْ وَوَرَدْتُمْ غَيْرَ مَشْرَبِكُمْ هَذَا وَاَلْعَهْدُ قَرِيبٌ وَاَلْكَلْمُ رَحِيبٌ وَاَلْجُرْحُ لَمَّا يَنْدَمِلْ وَاَلرَّسُولُ لَمَّا يُقْبَرْ اِبْتِدَاراً زَعَمْتُمْ خَوْفَ اَلْفِتْنَةِ أَلاَ فِي اَلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ فَهَيْهَاتَ مِنْكُمْ وَكَيْفَ بِكُمْ وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ وَكِتَابُ اَللّٰهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ أُمُورُهُ ظَاهِرَةٌ وَأَحْكَامُهُ زَاهِرَةٌ وَأَعْلاَمُهُ بَاهِرَةٌ وَزَوَاجِرُهُ لاَئِحَةٌ وَأَوَامِرُهُ وَاضِحَةٌ وَقَدْ خَلَّفْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ أَرَغْبَةً عَنْهُ تُرِيدُونَ أَمْ بِغَيْرِهِ تَحْكُمُونَ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ اَلْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي اَلْآخِرَةِ مِنَ اَلْخاٰسِرِينَ ثُمَّ لَمْ تَلْبَثُوا إِلاَّ رَيْثَ أَنْ تَسْكُنَ نَفْرَتُهَا وَيُسْلَسَ قِيَادُهَا ثُمَّ أَخَذْتُمْ تُورُونَ وَقْدَتَهَا وَتُهَيِّجُونَ جَمْرَتَهَا وَتَسْتَجِيبُونَ لِهُتَافِ اَلشَّيْطَانِ اَلْغَوِيِّ وَإِطْفَاءِ أَنْوَارِ اَلدِّينِ اَلْجَلِيِّ وَإِهْمَالِ سُنَنِ اَلنَّبِيِّ اَلصَّفِيِّ تَشْرَبُونَ حَسْواً فِي اِرْتِغَاءٍ وَتَمْشُونَ لِأَهْلِهِ وَوُلْدِهِ فِي اَلْخُمْرَةِ وَاَلضَّرَّاءِ وَيَصِيرُ مِنْكُمْ عَلَى مِثْلِ حَزِّ اَلْمُدَى وَوَخْزِ اَلسِّنَانِ فِي اَلْحَشَا وَأَنْتُمُ اَلْآنَ تَزْعُمُونَ أَنْ لاَ إِرْثَ لَنَا أَ فَحُكْمَ اَلْجاٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اَللّٰهِ حُكْماً لِقَوْمٍ

يُوقِنُونَ أَفَلاَ تَعْلَمُونَ؟ بَلَى قَدْ تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ اَلضَّاحِيَةِ أَنِّي اِبْنَتُهُ أَيُّهَا اَلْمُسْلِمُونَ أَأُغْلَبُ عَلَى إِرْثِي يَا اِبْنَ أَبِي قُحَافَةَ أَفِي كِتَابِ اَللَّهِ تَرِثُ أَبَاكَ وَلاَ أَرِثُ أَبِي لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيًّا أَفَعَلَى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتَابَ اَللَّهِ وَنَبَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ إِذْ يَقُولُ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ فِيمَا اِقْتَصَّ مِنْ خَبَرِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا إِذْ قَالَ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَقَالَ وَأُولُوا اَلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اَللَّهِ وَقَالَ يُوصِيكُمُ اَللَّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ اَلْأُنْثَيَيْنِ وَقَالَ إِنْ تَرَكَ خَيْراً اَلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَاَلْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى اَلْمُتَّقِينَ وَزَعَمْتُمْ أَنْ لاَ حُظْوَةَ لِي وَلاَ أَرِثَ مِنْ أَبِي وَلاَ رَحِمَ بَيْنَنَا أَفَخَصَّكُمُ اَللَّهُ بِآيَةٍ أَخْرَجَ أَبِي مِنْهَا أَمْ هَلْ تَقُولُونَ إِنَّ أَهْلَ مِلَّتَيْنِ لاَ يَتَوَارَثَانِ أَوَ لَسْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ اَلْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَاِبْنِ عَمِّي فَدُونَكَهَا مَخْطُومَةً مَرْحُولَةً تَلْقَاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ فَنِعْمَ اَلْحَكَمُ اَللَّهُ وَاَلزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ وَاَلْمَوْعِدُ اَلْقِيَامَةُ وَعِنْدَ اَلسَّاعَةِ يَخْسَرُ اَلْمُبْطِلُونَ وَلاَ يَنْفَعُكُمْ إِذْ تَنْدَمُونَ وَلِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ

ثُمَّ رَمَتْ بِطَرْفِهَا نَحْوَ اَلْأَنْصَارِ فَقَالَتْ يَا مَعْشَرَ اَلنَّقِيبَةِ وَأَعْضَادَ اَلْمِلَّةِ وَحَضَنَةَ اَلْإِسْلاَمِ مَا هَذِهِ اَلْغَمِيزَةُ فِي حَقِّي وَاَلسِّنَةُ عَنْ ظُلاَمَتِي؟ أَمَا كَانَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَبِي يَقُولُ اَلْمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ سَرْعَانَ مَا أَحْدَثْتُمْ وَعَجْلاَنَ ذَا إِهَالَةٍ وَلَكُمْ طَاقَةٌ بِمَا أُحَاوِلُ وَقُوَّةٌ عَلَى مَا أَطْلُبُ وَأُزَاوِلُ أَتَقُولُونَ مَاتَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَخَطْبٌ جَلِيلٌ اِسْتَوْسَعَ وَهْنُهُ وَاِسْتَنْهَرَ فَتْقُهُ وَاِنْفَتَقَ رَتْقُهُ وَأَظْلَمَتِ اَلْأَرْضُ لِغَيْبَتِهِ وَكَسَفَتِ اَلشَّمْسُ وَاَلْقَمَرُ وَاِنْتَثَرَتِ اَلنُّجُومُ لِمُصِيبَتِهِ وَأَكْدَتِ اَلْآمَالُ وَخَشَعَتِ اَلْجِبَالُ وَأُضِيعَ اَلْحَرِيمُ وَأُزِيلَتِ اَلْحُرْمَةُ عِنْدَ مَمَاتِهِ فَتِلْكَ وَاَللَّهِ اَلنَّازِلَةُ اَلْكُبْرَى وَاَلْمُصِيبَةُ

اَلْعُظْمَى لاَ مِثْلُهَا نَازِلَةٌ وَلاَ بَائِقَةٌ عَاجِلَةٌ أَعْلَنَ بِهَا كِتَابُ اَللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي أَفْنِيَتِكُمْ وَفِي مُمْسَاكُمْ وَمُصْبَحِكُمْ يَهْتِفُ فِي أَفْنِيَتِكُمْ هُتَافاً وَصُرَاخاً وَتِلاَوَةً وَإِلْحَاناً وَلَقَبْلَهُ مَا حَلَّ بِأَنْبِيَاءِ اَللَّهِ وَرُسُلِهِ حُكْمٌ فَصْلٌ وَقَضَاءٌ حَتْمٌ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ اَلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ اِنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اَللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اَللَّهُ اَلشَّاكِرِينَ إِيهاً بَنِي قَيْلَةَ أَأُهْضَمُ تُرَاثَ أَبِي وَأَنْتُمْ بِمَرْأًى مِنِّي وَمَسْمَعٍ وَمُنْتَدًى وَمَجْمَعٍ تَلْبَسُكُمُ اَلدَّعْوَةُ وَتَشْمَلُكُمُ اَلْخِبْرَةُ وَأَنْتُمْ ذَوُو اَلْعَدَدِ وَاَلْعُدَّةِ وَاَلْأَدَاةِ وَاَلْقُوَّةِ وَعِنْدَكُمُ اَلسِّلاَحُ وَاَلْجُنَّةُ تُوَافِيكُمُ اَلدَّعْوَةُ فَلاَ تُجِيبُونَ وَتَأْتِيكُمُ اَلصَّرْخَةُ فَلاَ تُغِيثُونَ وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكِفَاحِ مَعْرُوفُونَ بِالْخَيْرِ وَاَلصَّلاَحِ وَاَلنُّخْبَةُ اَلَّتِي اُنْتُخِبَتْ وَاَلْخِيَرَةُ اَلَّتِي اُخْتِيرَتْ لَنَا أَهْلَ اَلْبَيْتِ قَاتَلْتُمُ اَلْعَرَبَ وَتَحَمَّلْتُمُ اَلْكَدَّ وَاَلتَّعَبَ وَنَاطَحْتُمُ اَلْأُمَمَ وَكَافَحْتُمُ اَلْبُهَمَ لاَ نَبْرَحُ أَوْ تَبْرَحُونَ نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ حَتَّى إِذَا دَارَتْ بِنَا رَحَى اَلْإِسْلاَمِ وَدَرَّ حَلَبُ اَلْأَيَّامِ وَخَضَعَتْ ثَغْرَةُ اَلشِّرْكِ وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ اَلْإِفْكِ وَخَمَدَتْ نِيرَانُ اَلْكُفْرِ وَهَدَأَتْ دَعْوَةُ اَلْهَرْجِ وَاِسْتَوْسَقَ نِظَامُ اَلدِّينِ فَأَنَّى حُزْتُمْ بَعْدَ اَلْبَيَانِ وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ اَلْإِعْلاَنِ وَنَكَصْتُمْ بَعْدَ اَلْإِقْدَامِ وَأَشْرَكْتُمْ بَعْدَ اَلْإِيمَانِ بُؤْساً لِقَوْمٍ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ اَلرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أَلاَ وَقَدْ أَرَى أَنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ إِلَى اَلْخَفْضِ وَأَبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْبَسْطِ وَاَلْقَبْضِ وَخَلَوْتُمْ بِالدَّعَةِ وَنَجَوْتُمْ بِالضِّيقِ مِنَ اَلسَّعَةِ فَمَجَجْتُمْ مَا وَعَيْتُمْ وَدَسَعْتُمُ اَلَّذِي تَسَوَّغْتُمْ فَإِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اَللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ أَلاَ وَقَدْ قُلْتُ مَا قُلْتُ هَذَا عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنِّي بِالْخِذْلَةِ اَلَّتِي خَامَرَتْكُمْ وَاَلْغَدْرَةِ اَلَّتِي اِسْتَشْعَرَتْهَا قُلُوبُكُمْ وَلَكِنَّهَا فَيْضَةُ اَلنَّفْسِ وَنَفْثَةُ اَلْغَيْظِ وَخَوَرُ اَلْقَنَاةِ وَبَثَّةُ اَلصَّدْرِ وَتَقْدِمَةُ اَلْحُجَّةِ فَدُونَكُمُوهَا فَاحْتَقِبُوهَا دَبِرَةَ اَلظَّهْرِ نَقِبَةَ اَلْخُفِّ بَاقِيَةَ اَلْعَارِ مَوْسُومَةً بِغَضَبِ

اَلْجَبَّارِ وَشَنَارِ اَلْأَبَدِ مَوْصُولَةً بِنَارِ اَللّٰهِ اَلْمُوقَدَةُ اَلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى اَلْأَفْئِدَةِ فَبِعَيْنِ اَللّٰهِ مَا تَفْعَلُونَ وَسَيَعْلَمُ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ وَأَنَا اِبْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذٰابٍ شَدِيدٍ فَاعْمَلُوا إِنَّا عٰامِلُونَ وَاِنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ»[1].

وقفة مع كلام الراوي

قال: لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَلَى مَنْعِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلاَمُ فَدَكاً وَبَلَغَهَا ذَلِكَ.

عبارة الراوي لا تعطي معنى إحكام النيّة، كما ذهب إلى ذلك شرّاح الخطبة الشريفة[2]، إذ جاء في قول الراوي: «بَلَغَهَا»، ممّا يعني: أنّ أبا بكر وعمر قاما بالمنع الفعلي، ولم يقتصرا على النيّة فقط.

ويؤيّد ذلك بما روي عَن ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عِيسَى وَ حَمَّادِ بْنِ عُثْمَانَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (ع) قَالَ: لَمَّا بُويِعَ لِأَبِي بَكْرٍ وَ اسْتَقَامَ لَهُ الْأَمْرُ عَلَى جَمِيعِ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ بَعَثَ إِلَى فَدَكَ فَأَخْرَجَ وَكِيلَ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ (ص) مِنْهَا- فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ ع إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَتْ يَا أَبَا بَكْرٍ مَنَعْتَنِي عَنْ مِيرَاثِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ أَخْرَجْتَ وَكِيلِي مِنْ فَدَكَ فَقَدْ جَعَلَهَا لِي رَسُولُ اللَّهِ ص بِأَمْرِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهَا هَاتِي عَلَى ذَلِكَ شُهُوداً- فَجَاءَتْ بِأُمِّ أَيْمَنَ فَقَالَتْ لَا أَشْهَدُ- حَتَّى أَحْتَجَّ يَا أَبَا بَكْرٍ عَلَيْكَ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ص فَقَالَتْ أَنْشُدُكَ اللَّهَ، أَ لَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ص قَالَ إِنَّ أُمَّ أَيْمَنَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَالَ بَلَى، قَالَتْ فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ص «فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ» فَجَعَلَ فَدَكَ لِفَاطِمَةَ بِأَمْرِ اللَّهِ- وَ جَاءَ عَلِيٌّ ع فَشَهِدَ بِمِثْلِ ذَلِكَ- فَكَتَبَ لَهَا كِتَاباً بِفَدَكَ

---

(١) الاحتجاج: ٩٧ – ١٠٤.

(٢) لاحظ: بحار الأنوار ٢٩: ١٥٨، اللّمعة: ٣٢٦، الدرر الخفيّة ٣: ٣٦٣.

وَ دَفَعَهُ إِلَيْهَا- فَدَخَلَ عُمَرُ فَقَالَ مَا هَذَا الْكِتَابُ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ فَاطِمَةَ ادَّعَتْ فِي فَدَكَ وَ شَهِدَتْ لَهَا أُمُّ أَيْمَنَ وَ عَلِيٌّ فَكَتَبْتُ لَهَا بِفَدَكَ، فَأَخَذَ عُمَرُ الْكِتَابَ مِنْ فَاطِمَةَ فَمَزَّقَهُ وَ قَالَ هَذَا فَيْءُ الْمُسْلِمِينَ وَ قَالَ أَوْسُ بْنُ الْحَدَثَانِ وَ عَائِشَةُ وَ حَفْصَةُ يَشْهَدُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ص بِأَنَّهُ قَالَ: إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ- فَإِنَّ عَلِيّاً زَوْجُهَا يَجُرُّ إِلَى نَفْسِهِ- وَ أُمَّ أَيْمَنَ فَهِيَ امْرَأَةٌ صَالِحَةٌ- لَوْ كَانَ مَعَهَا غَيْرُهَا لَنَظَرْنَا فِيهِ- فَخَرَجَتْ فَاطِمَةُ ع مِنْ عِنْدِهِمَا بَاكِيَةً حَزِينَةً- فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ هَذَا- جَاءَ عَلِيٌّ ع إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَ هُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَ حَوْلَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَ الْأَنْصَارُ، فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ لِمَ مَنَعْتَ فَاطِمَةَ مِيرَاثَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ قَدْ مَلَكَتْهُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ص فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَذَا فَيْءُ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ أَقَامَتْ شُهُوداً أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ص جَعَلَهُ لَهَا- وَ إِلَّا فَلَا حَقَّ لَهَا فِيهِ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ع يَا أَبَا بَكْرٍ تَحْكُمُ فِينَا بِخِلَافِ حُكْمِ اللَّهِ فِي الْمُسْلِمِينَ قَالَ لَا- قَالَ فَإِنْ كَانَ فِي يَدِ الْمُسْلِمِينَ شَيْءٌ يَمْلِكُونَهُ- ادَّعَيْتُ أَنَا فِيهِ مَنْ تَسْأَلُ الْبَيِّنَةَ قَالَ: إِيَّاكَ كُنْتُ أَسْأَلُ الْبَيِّنَةَ عَلَى مَا تَدَّعِيهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَالَ فَإِذَا كَانَ فِي يَدِي شَيْءٌ وَ ادَّعَى فِيهِ الْمُسْلِمُونَ فَتَسْأَلُنِي الْبَيِّنَةَ عَلَى مَا فِي يَدِي! وَ قَدْ مَلَكْتُهُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ص وَ بَعْدَهُ وَ لَمْ تَسْأَلِ الْمُسْلِمِينَ الْبَيِّنَةَ عَلَى مَا ادَّعَوْا عَلَيَّ شُهُوداً- كَمَا سَأَلْتَنِي عَلَى مَا ادَّعَيْتُ عَلَيْهِمْ! فَسَكَتَ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ قَالَ عُمَرُ يَا عَلِيُّ دَعْنَا مِنْ كَلَامِكَ- فَإِنَّا لَا نَقْوَى عَلَى حُجَجِكَ- فَإِنْ أَتَيْتَ بِشُهُودٍ عُدُولٍ وَ إِلَّا فَهُوَ فَيْءُ الْمُسْلِمِينَ لَا حَقَّ لَكَ وَ لَا لِفَاطِمَةَ فِيهِ.

فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ع يَا أَبَا بَكْرٍ تَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ قَالَ نَعَمْ- قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً فِيمَنْ نَزَلَتْ أَ فِينَا أَمْ فِي غَيْرِنَا قَالَ بَلْ فِيكُمْ- قَالَ فَلَوْ أَنَّ شَاهِدَيْنِ شَهِدَا عَلَى فَاطِمَةَ

بِفَاحِشَةٍ- مَا كُنْتَ صَانِعاً قَالَ كُنْتُ أُقِيمُ عَلَيْهَا الْحَدَّ- كَمَا أُقِيمُ عَلَى سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ قَالَ كُنْتَ إِذاً عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْكَافِرِينَ، قَالَ: وَ لِمَ قَالَ: لِأَنَّكَ رَدَدْتَ شَهَادَةَ اللَّهِ لَهَا بِالطَّهَارَةِ- وَ قَبِلْتَ شَهَادَةَ النَّاسِ عَلَيْهَا- كَمَا رَدَدْتَ حُكْمَ اللَّهِ وَ حُكْمَ رَسُولِهِ أَنْ جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ص لَهَا فَدَكَ وَ قَبَضَتْهُ فِي حَيَاتِهِ- ثُمَّ قَبِلْتَ شَهَادَةَ أَعْرَابِيٍّ بَائِلٍ عَلَى عَقِبِهِ عَلَيْهَا- فَأَخَذْتَ مِنْهَا فَدَكَ وَ زَعَمْتَ أَنَّهُ فَيْءُ الْمُسْلِمِينَ وَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ص الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى- وَ الْيَمِينُ عَلَى مَنِ ادُّعِيَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَدَمْدَمَ النَّاسُ وَ بَكَى بَعْضُهُمْ فَقَالُوا صَدَقَ وَ اللَّهِ عَلِيٌّ وَ رَجَعَ عَلِيٌّ ع إِلَى مَنْزِلِهِ.

قَالَ: وَ دَخَلَتْ فَاطِمَةُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَ طَافَتْ بِقَبْرِ أَبِيهَا ع وَ هِيَ تَبْكِي وَ تَقُولُ:

إِنَّا فَقَدْنَاكَ فَقْدَ الْأَرْضِ وَابِلَهَا ... وَ اخْتَلَّ قَوْمُكَ فَاشْهَدْهُمْ وَ لَا تَغِبْ

قَدْ كَانَ بَعْدَكَ أَنْبَاءٌ وَ هَنْبَثَةٌ ... لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهَا لَمْ تَكْثُرِ الْخُطَبُ

قَدْ كَانَ جِبْرِيلُ بِالْآيَاتِ يُؤْنِسُنَا ... فَغَابَ عَنَّا وَ كُلُّ الْخَيْرِ مُحْتَجَبٌ

وَ كُنْتَ بَدْراً وَ نُوراً يُسْتَضَاءُ بِهِ ... عَلَيْكَ تَنْزِلُ مِنْ ذِي الْعِزَّةِ الْكُتُبُ

فَقَمَّصَتْنَا رِجَالٌ وَ اسْتُخِفَّ بِنَا ... إِذْ غِبْتَ عَنَّا فَنَحْنُ الْيَوْمَ نُغْتَصَبُ

فَكُلُّ أَهْلٍ لَهُ قُرْبٌ وَ مَنْزِلَةٌ ... عِنْدَ الْإِلَهِ عَلَى الْأَدْنَيْنَ يَقْتَرِبُ

أَبْدَتْ رِجَالٌ لَنَا فَحْوَى صُدُورِهِمُ ... لَمَّا مَضَيْتَ وَ حَالَتْ دُونَكَ الْكُثُبُ

فَقَدْ رُزِينَا بِمَا لَمْ يرزأه [يُرْزَهُ] أَحَدٌ ... مِنَ الْبَرِيَّةِ لَا عَجَمٌ وَ لَا عَرَبٌ

وَ قَدْ رُزِينَا بِهِ مَحْضاً خَلِيقَتُهُ ... صَافِي الضَّرَائِبِ وَالْأَعْرَاقِ وَالنَّسَبِ

فَأَنْتَ خَيْرُ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمُ ... وَأَصْدَقُ النَّاسِ حِينَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ

فَسَوْفَ نَبْكِيكَ مَا عِشْنَا وَ مَا بَقِيَتْ ... مِنَّا الْعُيُونُ بِهَمَّالٍ لَهَا سَكْبُ

سَيَعْلَمُ الْمُتَوَلِّي ظُلْمَ خَامَتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنى [عَنَّا] كَيْفَ يَنْقَلِبُ

قَالَ: فَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مَنْزِلِهِ- وَ بَعَثَ إِلَى عُمَرَ فَدَعَاهُ ثُمَّ قَالَ: أَ مَا رَأَيْتَ مَجْلِسَ عَلِيٍّ مِنَّا الْيَوْمَ، وَ اللَّهِ لَإِنْ قَعَدَ مَقْعَداً مِثْلَهُ لَيُفْسِدَنَّ أَمْرَنَا فَمَا الرَّأْيُ قَالَ عُمَرُ الرَّأْيُ أَنْ تَأْمُرَ بِقَتْلِهِ، قَالَ فَمَنْ يَقْتُلُهُ- قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَبَعَثَا إِلَى خَالِدٍ فَأَتَاهُمَا فَقَالا نُرِيدُ أَنْ نَحْمِلَكَ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، قَالَ حَمِّلَانِي مَا شِئْتُمَا وَ لَوْ قَتْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالا فَهُوَ ذَاكَ، فَقَالَ خَالِدٌ مَتَى أَقْتُلُهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا حَضَرَ الْمَسْجِدَ فَقُمْ بِجَنْبِهِ فِي الصَّلَاةِ- فَإِذَا أَنَا سَلَّمْتُ فَقُمْ إِلَيْهِ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ، قَالَ نَعَمْ- فَسَمِعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ ذَلِكَ وَ كَانَتْ تَحْتَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَتْ لِجَارِيَتِهَا اذْهَبِي إِلَى مَنْزِلِ عَلِيٍّ وَ فَاطِمَةَ فَأَقْرِئِيهِمَا السَّلَامَ- وَ قُولِي لِعَلِيٍ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ- فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَجَاءَتِ الْجَارِيَةُ إِلَيْهِمَا فَقَالَتْ لِعَلِيٍّ (ع) إِنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ تَقْرَأُ عَلَيْكُمَا السَّلَامَ- وَ تَقُولُ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ- فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ، فَقَالَ عَلِيٌّ (ع* قُولِي لَهَا إِنَّ اللَّهَ يحيل [يَحُولُ] بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يُرِيدُونَ ثُمَّ قَامَ وَ تَهَيَّأَ لِلصَّلَاةِ وَ حَضَرَ الْمَسْجِدَ وَ وَقَفَ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ وَ صَلَّى لِنَفْسِهِ وَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى جَنْبِهِ وَ مَعَهُ السَّيْفُ- فَلَمَّا جَلَسَ أَبُو بَكْرٍ فِي التَّشَهُّدِ نَدِمَ عَلَى مَا قَالَ- وَ خَافَ الْفِتْنَةَ وَ شِدَّةَ عَلِيٍّ وَ بَأْسَهُ- فَلَمْ يَزَلْ مُتَفَكِّراً لَا يَجْسُرُ أَنْ يُسَلِّمَ- حَتَّى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ قَدْ سَهَا، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى خَالِدٍ فَقَالَ يَا خَالِدُ لَا تَفْعَلْ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ- السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ع: يَا خَالِدُ مَا الَّذِي أَمَرَكَ بِهِ قَالَ أَمَرَنِي بِضَرْبِ عُنُقِكَ، قَالَ وَ كُنْتَ تَفْعَلُ قَالَ إِي وَ اللَّهِ- لَوْ لَا أَنَّهُ قَالَ لِي لَا تَفْعَلْ لَقَتَلْتُكَ بَعْدَ التَّسْلِيمِ، قَالَ فَأَخَذَهُ (عَلِيٌّ ع فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ وَ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَقَالَ عُمَرُ يَقْتُلُهُ وَ رَبِّ الْكَعْبَةِ فَقَالَ النَّاسُ يَا أَبَا الْحَسَنِ اللَّهَ اللَّهَ بِحَقِّ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ فَخَلَّى عَنْهُ، قَالَ فَالْتَفَتَ إِلَى عُمَرَ وَ أَخَذَ بِتَلَابِيبِهِ

وَ قَالَ يَا ابْنَ الصُّهَاكِ لَوْ لَا عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَ كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَعَلِمْتَ أَيُّنَا أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً ثُمَّ دَخَلَ مَنْزِلَه

ثُمَّ هناك إشارةٌ من الراوي إلى كونه اختلق ذلك اختلاقاً في قوله: «أَجْمَعَ». ويؤيّده: كلام السيّدة الزهراء عليها السلام الآتي[1].

قوله: عَلَى مَنْعِ فَاطِمَةَ عليها السلام فَدَكاً.

عنى به: أنَّ فدكاً كانت تحت تصرّفها فمنعت منها، فمنع العطاء على الناس في أرضها.

والذي يدلّك على كون الأرض المشار إليها كانت نحلةً وليست ميراثاً الروايات الكثيرة جدّاً التي لا يجازف من ادّعى معها التواتر، فيكون أخذها عنوان الإرث للتنزّل والمماشاة وإرادة بيان حالهم من توليّة من لا فقه له في الدين ولا ورع له في حكم.

فعَنْ أَبَانِ بْنِ تَغْلِبَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اَللَّه :أَكَانَ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله أَعْطَى فَاطِمَةَ فَدَكاً؟ قَالَ :كَانَ وَقَفَهَا، فَأَنْزَلَ اَللَّهُ وَآتِ ذَا اَلْقُرْبىٰ حَقَّهُ فَأَعْطَاهَا رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَقَّهَا، قُلْتُ: رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله أَعْطَاهَا؟ قَالَ :بَلِ اَللَّهُ أَعْطَاهَا.

وعَنْ جَمِيلِ بْنِ دَرَّاجٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اَللَّه :أَتَتْ فَاطِمَةُ أَبَا بَكْرٍ تُرِيدُ فَدَكَ. فَقَالَ: هَاتِي أَسْوَدَ أَوْ أَحْمَرَ يَشْهَدْ بِذَلِكَ. قَالَ: فَأَتَتْ بِأُمِّ أَيْمَنَ. فَقَالَ لَهَا: بِمَ تَشْهَدِينَ؟ قَالَتْ: أَشْهَدُ أَنَّ جَبْرَئِيلَ أَتَى مُحَمَّداً فَقَالَ: إِنَّ اَللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فَآتِ ذَا اَلْقُرْبىٰ حَقَّهُ، فَلَمْ يَدْرِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَنْ هُمْ؟ فَقَالَ: يَا جَبْرَئِيلُ! سَلْ رَبَّكَ مَنْ هُمْ؟ فَقَالَ: فَاطِمَةُ ذُو اَلْقُرْبَى، فَأَعْطَاهَا فَدَكاً. فَزَعَمُوا أَنَّ عُمَرَ مَحَا اَلصَّحِيفَةَ وَ قَدْ كَانَ كَتَبَهَا أَبُو بَكْرٍ.

---

(١) كقولها عليها السلام: لقد جئت شيئاً فريّاً، وكذا قولها عليها السلام: وزعمتم أن لا حظوة لي، وغيرهما.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ اَلْخُدْرِيِّ قَالَ :لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اَللَّهِ وَآتِ ذَا اَلْقُرْبىٰ حَقَّهُ دَعَا فَاطِمَةَ فَأَعْطَاهَا فَدَكاً وَاَلْعَوَالِيَ وَقَالَ: هَذَا قَسْمٌ قَسَمَهُ اَللَّهُ لَكِ وَلِعَقِبِكِ.

وعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :لَمَّا أَنْزَلَ اَللَّهُ وَآتِ ذَا اَلْقُرْبىٰ حَقَّهُ دَعَا رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَاطِمَةَ وَأَعْطَاهَا فَدَكاً وَذَلِكَ لِصِلَةِ اَلْقَرَابَةِ. وَاَلْمِسْكِينَ: اَلطَّوَّافَ اَلَّذِي يَسْأَلُكَ، يَقُولُ: أَطْعِمْهُ. وَاِبْنَ اَلسَّبِيلِ وَهُوَ اَلضَّيْفُ، حَثٌّ عَلَى ضِيَافَتِهِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ إِذَا فَعَلْتَ هَذَا فَافْعَلْهُ لِوَجْهِ اَللَّهِ وَأُولٰئِكَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ يَعْنِي أَنْتَ وَمَنْ فَعَلَ هَذَا مِنَ اَلنَّاجِينَ فِي اَلْآخِرَةِ مِنَ اَلنَّارِ اَلْفَائِزِينَ بِالْجَنَّةِ.

وعَنْ عَبْدِ اَلرَّحْمَنِ بْنِ صَالِحٍ: كَتَبَ اَلْمَأْمُونُ إِلَى عُبَيْدِ اَللَّهِ بْنِ مُوسَى اَلْعَبْسِيِّ يَسْأَلُهُ عَنْ قِصَّةِ فَدَكٍ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُبَيْدُ اَللَّهِ بْنُ مُوسَى بِهَذَا اَلْحَدِيثِ رَوَاهُ عَنْ اَلْفَضْلِ بْنِ مَرْزُوقٍ عَنْ عَطِيَّةَ فَرَدَّ اَلْمَأْمُونُ فَدَكَ عَلَى وُلْدِ فَاطِمَةَ صَلَوَاتُ اَللَّهِ عَلَيْهَا.

وورد في تفسير علي بن إبراهيم :وَآتِ ذَا اَلْقُرْبىٰ حَقَّهُ وَاَلْمِسْكِينَ وَاِبْنَ اَلسَّبِيلِ يَعْنِي قَرَابَةَ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَنَزَلَتْ فِي فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلاَمُ فَجَعَلَ لَهَا فَدَكَ وَاَلْمِسْكِينَ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ وَاِبْنَ اَلسَّبِيلِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَوُلْدِ فَاطِمَةَ.

وكذلك وَرَدَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اَللَّهِ الصادق قَالَ: «لَمَّا أَنْزَلَ اَللَّهُ تَعَالَى وَآتِ ذَا اَلْقُرْبىٰ حَقَّهُ وَاَلْمِسْكِينَ قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يَا جَبْرَئِيلُ، قَدْ عَرَفْتُ اَلْمِسْكِينَ، فَمَنْ ذُو اَلْقُرْبَى؟ قَالَ: هُمْ أَقَارِبُكَ، فَدَعَا حَسَناً وَحُسَيْناً وَفَاطِمَةَ، فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعْطِيَكُمْ مِمَّا أَفَاءَ عَلَيَّ، قَالَ: أَعْطَيْتُكُمْ فَدَكَ.

نعم، هذه الروايات معارضةً بما دلّ على الإرث، ومنها هذه الخطبة الغرّاء والدوحة الفيحاء. وقد أشبع الأعلام هذه المسألة بحثاً وتحقيقاً وتنقيباً، فكانت نتائج بحوثهم وتحقيقاتهم متباينةً، وأقوالهم مترامية.

ونحن لا نريد أن نخوض بالآراء فتأخذنا للوقوف على المستندات كلّها والأدلّة، فنبحث في دليليّة هذا الدليل، ونسقط ذاك من الحساب والتدليل، فنخرج بذلك عن الغرض المعدّ.

قال: «لاَثَتْ خِمَارَهَا عَلَى رَأْسِهَا وَاِشْتَمَلَتْ بِجِلْبَابِهَا وَأَقْبَلَتْ فِي لمّة مِنْ حَفَدَتِهَا وَنِسَاءِ قَوْمِهَا تَطَأُ ذُيُولَهَا مَا تَخْرِمُ مِشْيَتُهَا مِشْيَةَ رَسُولِ اَللَّه صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

ليس مهمّاً أنْ نعرف من نقل الخبر للسيّدة الجليلة عليها السلام ومن أبلغها به، وإن أشار التبريزي إلى الاحتمالين معاً، فقال: إنّه بلغها ذلك أو أثره بلسان الناس أو برجوع وكيلها في فدك إليها واخباره لها بذلك[1].

لكن يبدو أنَّ الأمر ليس كذلك، فكما يمكن إخبار النسوة لها عليها السلام المجتمعات عندها، اللاتي بدأن بتناقل الخبر. يمكن أن يكون الاجتماع مسبّباً عن نقل وكيلها، فانتشر الخبر، وخرجن إلى دار الزهراء عليها السلام، فيكون قوله تامّاً. خصوصاً إذا لاحظنا الروايات.

قال: ولاثت خمارها على رأسها واشتملت جلبابها.

كناية عن الاستعداد للخروج. وعليه: فكلا الاحتمالين داخلان، أعني: المعنى الحرفي لهذه الجملة، أو الكناية عن الاستعداد للخروج.

معنى اللمّة

واللمّة كما في شرح العلّامة المجلسي: في جماعة من نسائها، وقيل: هي ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل: المثل في السن والترب[2].

---

(١) اللمعة البيضاء: ٣٢٨.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٥٨.

ثُمَّ قال العلّامة نفسه: أقول: ويحتمل أن يكون بتشديد الميم.

وقال الفيروز آبادي: اللمّة بالضم الصاحب والأصحاب في السفر والمؤنس للواحد والجمع [١].

هذا، وقد ناقش العلّامة التبريزي قول الفيروز آبادي، بما حاصله: ولا يخفى ما فيه من الخلط والشبهة، والظاهر أنّ اللمّة إذا كانت بتشديد الميم فهي من الإلمام بمعنى النزول، أُطلق على الجماعة النازلة كما يطلق اللمّة على الخَطْرة والزورة والأتية بمعنى النزول والقرب.

ومنه الخبر: إنّ للشيطان لمّة وللملك لمة، وإنّ لابن آدم لمتان لمّة من الملك ولمّة من الشيطان، فأمّا لمّة الشيطان فإيعاد بالشرّ وتكذيب بالخير، وأمّا لمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ، فمن وجد هذا فليحمد الله، ومن وجد الآخر فليتعوّذ بالله. فيكن جميع المعاني الموجودة للّمّم راجعة إلى هذا المعنى.

وفي نسخة كشف الغمّة: في لُميمة بصيغة التصغير، وهو يؤيّد قراءة تشديد الميم بمعنى الجماعة، ويكون التصغير إمّا للتقليل، أي: في جماعة قليلة، أو للتكثير نظير التعظيم والتحقير [٢].

أقول، أوّلاً: يبدو عدم صحّة احتماله؛ لأنّه الصاحب والأصحاب في السفر خاصّةً. نعم، يقوى احتماله بناءً على قول الفيروز آبادي: والمؤنس للواحد والجمع، إذا لم يكن بنفس المعنى الأوّل.

ثانياً: ما قاله التبريزي لا يمكن المصير إليه، إذ بيّن معنىً آخر، ورجّحه على

---

(١) اللمعة البيضاء: ٣٣٠.

(٢) اللمعة البيضاء: ٣٣١.

المعنى الأوّل، مع إمكان أن يكون كلا المعنيين ثابتين لغةً، غاية الأمر: يكون الكلام في تطبيقه هنا، وهو ما يعتمد على القرائن.

أمّا قوله: حَفَدَتِهَا، فالمراد منه حسب ما قيل: الأعوان والخدم. وقيل: الأختان. وقيل: الأصهار[١].

وحيث لم يكن للزهراء ولد الولد، ولم يكن لها أصهار، ولم يكن لها أختان.

اختار الأوّل وقوّاه العلّامة التبريزي[٢].

إلّا أنّه غير مستقيمٍ أن نفسّر الحفدة بمعنى الجمع، فلم يكن بخدمة السيّدة الزهراء عليها السلام سوى فضّة، ولا أقلّ من عدم علمنا بالخدم والأعوان.

ويمكن أن يجاب عنه بسهولةٍ: إمّا أن يكون المقصود من الحفدة الأعوان وهو حاصلٌ، وإمّا أنَّ جميع النسوة اللاتي جئن معها كنّ بخدمتها.

وقوله: تَطَأُ ذُيُولَهاَ.

أي: كانت أثوابها طويلة، ولا يحتمل معها أن تطأ وتضع عليه قدمها عند المشي -كما ذهب إليه أكثر الشرّاح- لأنَّها والحال هذه سوف تخرج عن مشابهة مشية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إضافة إلى عسره وصعوبة التصنّع.

وقوله: مَا تَخْرِمُ مِشْيَتُهَا مِشْيَةَ رَسُولِ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله.

تشبيهٌ حسنٌ، وفي الخبر: إنَّ فاطمة عليها السلام كانت أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله خلقاً وخُلقاً وقولاً وفعلاً وسكوناً وحركةً[٣]، وقديماً قالوا: ومن يشابه أبه فما ظلم.

---

(١) كشف المحجّة: ٣٢.

(٢) اللمعة البيضاء: ٣٣٢.

(٣) إحقاق الحقّ ١٠: ٢٥٠ – ٢٥٦.

قال: حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَ هُوَ فِي حَشَدٍ مِنَ اَلْمُهَاجِرِينَ وَ اَلْأَنْصَارِ وَ غَيْرِهِمْ فَنِيطَتْ دُونَهَا... .

المقصود بكلمة (وغيرهم)

يظهر أنَّ الراوي أراد أن يشير لقومٍ من دون أن يذكر صفتهم وانتسابهم، فانظر إليه وهو يقول: «وَ غَيْرِهِمْ» ممّا يترك استفهاماً وعجباً.

ثُمَّ إنَّ الشرّاح لم يتعرّضوا لشرح هذا اللفظ، واكتفوا ببيان من هم الأنصار والمهاجرون!

فأقول: إنَّ (غيرهم) إمّا أن يكون المشار به إليه سائر الناس ممّن حضر المجلس حينذاك من غير الأنصار والمهاجرين، وإمّا أن يكون المشار به إليه اليهود الذين تزيّوا بزي الإسلام كذباً، وهم الذين أُخذت منهم أرض فدك دون أيّة مواجهة طلباً للمأمن ودفعاً للبلاء الذي حلَّ على أهل خيبر.

سرّ البكاء

أمّا قصّة البكاء في حضرة الزهراء عليها السلام فهو حَدث لا نعرف أسبابه، فإمّا أن يكونوا قد أجهشوا بالبكاء؛ لأنَّهم تذكّروا أباها الرسول صلى الله عليه وآله، أو احساساً بالذنب الذي أخرج الزهراء عليها السلام من خدرها، أو اسكاتاً لها للحيلولة دون أن تكمل الزهراء عليها السلام ما ابتدأته. والذي يبعّد الاحتمال الأوّل، أنَّ البكاء ما حصل إلّا بعد أنينها، وهذا يعني: أنَّ الأمر يدور بين الاحتمالين، والله العالم.

وسنشرع متوكّلين على الباري سبحانه وتعالى بشرح الخطبة الشريفة.

شرح الخطبة الشريفة

كلامها عليها السلام في مدح الله سبحانه والثناء عليه وبيان قدرته

معنى قولها عليها السلام: «اَلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ وَلَهُ اَلشُّكْرُ عَلَى مَا أَلْهَمَ وَاَلثَّنَاءُ بِمَا قَدَّمَ».

أثنت الصدّيقة على الله تعالى بحمدها إيّاه، ولكن لم تجعل الحمد مطلقاً بما يشمل النعم وغيرها ممّا عوائده للعالمين، بل خصّته بالذي أجرى على الخلق نعماً وعطايا جزيلةً.

وقد تسأل: لماذا لم تحمد الله مطلقاً، كأن تقول: الحمد لله ربِّ العالمين، أو الحمد لله؟

والجواب: لمّا كانت في مقام بيان حقّها المغصوب، وإرثها المسلوب، اختارت عن درايةٍ ما يلائم خطبتها الشريفة.

وشكرت ربّها على إلهامه، والإلهام: معنىً خاصٌّ يهبه الله لأولياءه خاصّة، وإن كان بالإمكان حمله على العامّ منه الذي يعني: الميل والرغبة، أو يعني: الإدراك، أو يعني: ما به يعرف الفعل الحسن ويميّز به عن القبيح. والجميع محتملٌ، إلّا أنَّ الأخير أقرب، لكونها بهذا الصدد.

معنى قولها عليها السلام: «بِمَا قَدَّمَ».

فسّره العلّامة: بنعمٍ أعطاها العباد قبل أن يستحقّوها.

ثُمَّ قال: ويحتمل أن يكون المراد بالتقديم الإيجاد من غير ملاحظة معنى

الابتداء، فيكون تأسيساً[١]. وسار السيّد عبد الله شبّر على هذا المنوال[٢].

وفرقه عن الإلهام والإنعام واضحٌ، إذ إنّها عليها السلام حمدت الله على إنعامه، وشكرته على ما ألهم، وأثنت عليه بما قدّم.

والتقديم: معنىً يحتاج إلى ما يتعلّق به، بل يظهر معناه في معنى المتعلّق، وبالتالي هي لم تذكره، وهذا بنفسه دالٌّ على العموم الذي يصلح لكلّ شيءٍ.

وهل يمكن أن يكون «بِمَا قَدَّمَ» بلحاظ «مِنْ عُمُومِ نِعَمٍ اِبْتَدَأَهَا» كما يفهم من سائر الشروح؟

والجواب: لا يمكن ذلك؛ لأنَّ ما تلاها راجعٌ لقولها عليها السلام: «اَلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ» فتكون (ما) موصولةً في «اَلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ» دون غيرها.

لكن قد يقال: إنّ هذا محتاجٌ إلى دليلٍ.

قلنا: دليلنا نفس إرجاع الجمل إلى «اَلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ» فقط، وهذا بنفسه كاشف عن إرادتها إزالة الإبهام الحاصل في الاسم الموصول، فيكون المعنى: الحمد لله على إنعامه، وله الشكر على ما ألهمه، والثناء بما قدّمه.

وهل هناك فرقٌ بين قولها عليها السلام: «اَلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ» وقولها عليها السلام: «مِنْ عُمُومِ نِعَمٍ اِبْتَدَأَهَا»؟

الفرق في ذكر الخاصّ بعد العامّ، فالنعم التي أعطانا الله ايّاها لا تقتصر على الحدوث، بل تشمل الاستمرار والبقاء.

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٠.

(٢) كشف المحجّة: ٣٦.

ثُمَّ أرادت عليها السلام أن تخصّ ذلك، فذكرت: «مِنْ عُمُومِ نِعَمٍ إِبْتَدَأَهَا»، وأشارت إلى خصوص النعم المبتدأة منه سبحانه وتعالى، وهي وإن كانت كثيرةً، لكنّها أقلّ من «مَا أَنْعَمَ» برتبتين، أعني: رتبة الاستمرار، ورتبة البقاء، وكلاهما بعد أصل حدوث النعمة.

معنى قولها عليها السلام: «وَ سُبُوغِ آلاَءٍ أَسْدَاهَا».

هو بمعنى: إكمال النعم والنعماء علينا، وبذلك أشارت إلى ابتداء النعم وإكمالها، وأشارت إلى أنّه تعالى والى وتابع بإعطاء نعمةٍ بعد أخرى بلا فصلٍ.

وهذا ما لم يتكلّم به شرّاح الخطبة، فهم قالوا: و«مَا» في «عَلَى مَا أَنْعَمَ» إمّا مصدريّة أي على إنعامه، أو موصولة بحذف العائد أي على ما أنعم به، وعلى قياسه قولها عليها السلام: «عَلَى مَا أَلْهَمَ» أي: على إلهامه أو على ما ألهمه، وبما قدّم، أي: بتقديمه أو بما قدَّمه، وعلى الموصوليّة يكون قولها عليها السلام: «مِنْ عُمُومِ نِعَمٍ» بياناً للموصولة، ويجوز بدل الموصولة جعلها نكرة موصوفة، والعموم على كون «مِنْ» بيانيّة على أحد الوجهين بمعنى العامّ[1].

معنى قولها عليها السلام: «جَمَّ عَنِ الْإِحْصَاءِ عَدَدُهَا».

الكلام في جَمَّ

الأنسب أنَّ جَمَّ بمعنى: علا، كما أشار إليه ابن منظور[2]. فيكون المقصود: علا عددها عن الإحصاء. ومن غير المناسب أن نذهب –كما ذهب إليه معظم الشرّاح– إلى أنَّ جَمَّ بمعنى: كثر؛ إذ كثر لا تعطي هذا المعنى، إلّا بعد الاعتراف بمّا يسمّى:

(١) اللمعة البيضاء: ٣٤٩.

(٢) لسان العرب ٢: ٣٦٨.

(التضمين) على معنى التعدّي والتجاوز، فيكون قولنا هو الأقرب؛ لأنّه موصلٌ إلى المطلوب من دون مقدّماتٍ.

وأضعف منه ما عن الصائغ في الدرّة البيضاء، إذ قال: وجمّ هنا بمعنى: جلَّ، وربّما يوجد في بعض النسخ وهو مضمون قول سيّد الأوصياء في خطبةٍ له في وصفه تعالى: «ولا يُحصِي نَعْمَاءَهُ العادّون»[1].

وسبب ضعفه أمور:

الأوّل: كيف تكون جلَّ بمعنى جمَّ، وقد اختلف في معنييها، فجلَّ من التعظيم، وجمَّ بمعنى: كثر وعلا؟

الثاني: عند متابعة الخطب الواردة، تجد أنَّ جلَّ واردةٌ مرتين فقط، في قبال تلك الخطب المرويّة.

الثالث: ينبغي اسقاطها من الحساب، لأنَّها تأبى المعنى المشار إليه اعتباراً.

معنى قولها عليها السلام: «وَ نَأَى عَنِ اَلْجَزَاءِ أَمَدُهَا».

ذكر الشيخ شريعتمداري في تعليقه على كتاب الزهراء وخطبة فدك للعلّامة المجلسي: «أنَّ من أراد أن يتتبّع نعم الله تعالى ويستقصيها ليجازي على واحد واحد منها لا يبلغ أمدها وغايتها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾، فأسندت قصور المجازي وخيبته عن بلوغ أمدها إلى نفس الجزاء مجازاً، لأنّهما متلازمان، إن بلغ المجازي الأمد بلغه الجزاء»[2].

---

(١) الدرة البيضاء: ٣٣٧.

(٢) الزهراء وخطبة فدك: ٣٣، ٣٤.

وهذا المعنى الذي استخرجه الشارح من النصّ لطيف جدّاً، إلّا أنَّ قوله: كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[1] أجنبيٌ عمّا نحن فيه؛ إذ مقامنا ليس في العدّ، إنّما في الجزاء على المعدود الذي بَعُد عن متناول أهله وأصحابه. نعم، يمكن أن تكون الآية مشيرةً إلى هذا المعنى، وذلك باعتبار أنّ العدَّ غير متيسّرٍ لأحد، فكذلك الجزاء. لكن نقول: لو كان ذلك مراداً لسكتت عن الجملة الثانية مكتفيةً بالأولى.

وأفاد السيّد عبد الله شبّر معنىً جميلاً، فقال: وقد يطلق الأمد على الابتداء، فهو أبلغ إلى المعنى، أي: بعد الجزاء ابتداؤها فكيف انتهاؤها[2].

لكنّك لابدّ أن تفهم أنّه بحاجةٍ إلى عنايةٍ زائدةٍ؛ إذ الأمد معناه: الغاية والانتهاء، والابتداء يجعلهما من الأضداد، كما لا يخفى.

معنى قولها عليها السلام: «وَ تَفَاوَتَ عَنِ الْإِدْرَاكِ أَبَدُهَا».

التفاوت بمعنى الاختلاف، والأبد له عدّة معانٍ، أقربها الإظهار والإبانة، ومنه قول طرفة من العبد:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً ... وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

ويطلق أيضاً على القديم الأزلي، وكذا على أساس الدهر والدايم.

ولا معنى لزجّ تلك المعاني هنا لوجود القرينة على خلافها –كما فعل ذلك

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) كشف المحجّة: ٣٧.

العلّامة المجلسي وتابعه قومٌ[١][٢] والمقصود: اختلف الناس في إدراك وحقيقة تلك النعم، فكلٌّ أظهر ما فهمه وما شعر به، وبحسب المستوى تفاوتت المدركات.

معنى قولها عليها السلام: «وَ نَدَبَهُمْ لِاسْتِزَادَتِهَا بِالشُّكْرِ لِاتِّصَالِهَا».

أي: أنَّ الله حثّهم ورغّبهم ودعاهم إلى استزادة نعمه بالشكر، فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٣].

وجعل الله نعمه الكثيرة متّصلة غير منقطعةٍ، فيما إذا دام شكر النعمة على الوجه الصحيح بالفعل والقول.

وبناءً على هذا البيان تكون اللام بمعنى: إلى؛ إذ ينسجم هذا المعنى مع الندب.

أمّا «لِاتّصَالِهَا» فيبدو أنَّ اللام تعليليّة، وعليه يكون المعنى: إنَّ الله ندبهم إلى استزادة نعمه بشكرها، لتكون هذه النعم متّصلةً لا انقطاع فيها.

وهذا بخلاف ما ذهب إليه السيّد عبد الله شبّر من إمكان أن تجعل الأولى للتعليل والثانية للصلة[٤].

ورأينا المتقدّم موافقٌ لرأي العلّامة[٥] في اللام الثانية دون الأولى.

هذا، وادّعى الشريعتمداري إمكان أن تكون (لاتّصالها) بدلاً عن (لاستزادتها).

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٠.

(٢) اللمعة البيضاء: ٣٥٧.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٤) كشف المحجّة: ٣٨.

(٥) لاحظ: بحار الأنوار ٢٩: ١٦٠.

قال: ويحتمل تعلّق لاتّصالها بالاستزادة، فإنَّ الاتّصال معلول الاستزادة، وهو مصحّح البدليّة أيضاً[١].

وهذا وهمٌ؛ إذ لو كان بدلاً لما أمكن أن نأتي باللام الثانية، كما هو واضحٌ جدّاً.

معنى قولها عليها السلام: «وَ اِسْتَحْمَدَ إِلَى اَلْخَلاَئِقِ بِإِجْزَالِهَا».

معناه: طلب الله من خلقه أن يحمدوه كي يجزل لهم نعمه.

ومعنى يجزل: يعظّم ويستكثر كما أفادوه.

لكن ربما يشكل علينا بالفارق بين ما نحن فيه وبين ما تقدّم.

فنقول: أمّا «وَ نَدَبَهُمْ لاِسْتِزَادَتِهَا بِالشُّكْرِ لاِتِّصَالِهَا» فمعناه: أن يشكر الإنسان ربّه بالقول والفعل، كما مرّ.

أمّا هنا فطلب منّا الحمد، وهو لا يتحقّق الّا باللسان؛ لأنَّ الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري، بقصد تعظيم الممدوح وتبجيله. فالمطلوب من هذه الجملة: حمد الله باللسان خاصّةً، ومن تلك الجملة: شكره باللسان أو الأفعال أو كليهما، بل حتّى ما انطوى عليه الجنان يكون داخلاً فيه. ومنه يظهر ضعف ما عليه المحجّة، فراجعه[٢].

---

(١) الزهراء وخطبة فدك: ٣٤.

(٢) كشف المحجّة: ٣٨ ـ ٣٩.

معنى قولها عليها السلام: «وَثَنَّى بِالنَّدْبِ إِلَى أَمْثَالِهَا».

اعلم أنَّ الفارق الذي أبديناه راجع إلى الحمد والشكر، أمّا متعلّقهما فهو واحدٌ، وهو النعمة من قبله تعالى.

ولذلك قالت عليها السلام: «وَ ثَنَّى» بمعنى: أنّها جعلت ندبه إلى أمثالها ثانيةً، إضافةً إلى الضمير الكائن في «أَمْثَالِهَا» فلم تثنيه، أي: لم تقل في أمثالهما، وهذا أولى ممّا ذهب إليه المحقّق من أنَّ المعنى: ندبهم إلى استزادة النعم الدنيويّة، ثُمَّ ثنّى بالندب إلى أمثالها، وهي النعم الأخرويّة.

معنى قولها عليها السلام: «وَاسْتَحْمَدَ إِلَى الْخَلاَئِقِ بِإِجْزَالِهَا».

كأنّها لبيان كيفيّة الندب إلى الاستزادة فلا يكون فصلاً بأجنبي[1]، لأنّه إذا جعلت من جملة: «وَ اِسْتَحْمَدَ إِلَى اَلْخَلاَئِقِ بِإِجْزَالِهَا» بياناً لكيفيّة الندب، فمعناه: وجوب الحمد مطلقاً باللسان أو الأفعال أو الجنان، وهذا مخالف لمعنى الحمد.

أمّا قوله وسائر الشراح: استزادة النعم الدنيويّة، ثُمَّ ثنى بالندب إلى أمثالها، وهي النعم الأخرويّة.

فهذا منهم عجيب؛ إذ لا تحتاج الزهراء عليها السلام لإدخاله، فإنّه داخلٌ في النعم التي تكلّمت عنها. ولسنا نريد بالنعم الأخرويّة، إلّا ما كانت عوائده في الآخرة، في قبال ما كانت عوائده في الدنيا.

والصحيح: أنّ الله سبحانه وتعالى ندب العباد إلى أن يتخلّقوا بأخلاقه ويعملوا بصفاته، وهو معنى عظيم، وميزان الخالق للخلائق.

---

(١) الزهراء وخطبة فدك: ٣٢.

معنى قولها عليها السلام: «وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اَللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ كَلمّة جُعِلَ اَلْإِخْلاَصُ تَأْوِيلَهَا».

تلخيص الشريعتمداري

لم يتعرّض المجلسي لشرح الشهادة، ولعلّه اعتماداً على وضوحها، أو على تفسيره لها في مواطن أخرى.

وتكلّم العلّامة التبريزي طويلاً فيه، وعمد الشريعتمداري إلى تلخيصه والاعتراض عليه، فقال: أصل الشهود والشهادة: الحضور والمعاينة، وحكى في اللمعة البيضاء عن النهاية: (الشهادة في الأصل الاخبار عمّا شاهده وعاينه) فقولها عليها السلام: أشهد، معناه أخبر عن معاينة وعلم قاطع، كما ورد في الخبر مشيراً إلى النظر إلى الشمس: بمثل هذا فاشهد وإلّا فدع. وقال في اللمعة البيضاء: (قولها عليها السلام وحده. قال: معرّف في معنى النكرة، أي منفرداً عن غيره ومتوحّداً. ولا شريك له، حال بعد حال، وكلاهما حال عن لفظ الجلالة، لكونه في موضع المفعول من جهة استلزام، إلّا معنى استثنى. والحال الأوّل دالٌّ على ثبوت الصفات الكماليّة له تعالى... والحال الثاني دالٌّ على نفي جهات النقيصة وسلبها عنها)[1].

وبعد ذلك أورد عليه: ولا دليل على ما ذكره من الفرق البتة ولا قرينة عليه من اللفظ بل هما تأكيد بعد تأكيد[2].

فنقول: لا شبهة في سلب صفة الشريك عنه في كلامها عليها السلام، ولكن البحث في أنّها عليها السلام هل ذكرت الصفات الكماليّة أيضاً؟

---

(١) الزهراء وخطبة فدك: ٣٦.

(٢) المصدر السابق.

وهنا نقول:

أوّلاً: لا يمكن أن تكون قاصدة لثبوت الصفات الكماليّة، ونفي جهات النقيصة عنه أجمع؛ لأنّها قالت: «لاَ شَرِيكَ لَهُ» فيكون تفسيره بنفي الشريك عنه فقط، ولا يُتعدى منه لسائر ما ثبت.

ثانياً: ظاهر كلامها عليها السلام في نفي الشريك عنه في قولها عليها السلام: «وَحْدَهُ»، وذلك: لأنَّ الأعلام ذكروا صفاته الثبوتيّة وعدوها ثمانية، ولم يعدّوا منها نفي الشريك عنه، فحتّى لو وقع مثبتاً لا يراد به إثبات الصفة، لأنّ حقيقته النفي، فيكون داخلاً في الصفات السلبيّة التي عدّوها سبعةً، ذاكرين نفي الشريك عنه تعالى.

ثالثاً: ليس قول التبريزي: "حالٌ بعد حالٍ" تامّاً؛ لأنّا إذا سلّمنا له أنَّ وحده حال، فلا يمكن التسليم له بأنّ لا شريك له حالٌ أيضاً، بل هي جملة معطوفة عطف بيان على الحال، ويدّلك عليه: الأصل فيما لو دار الأمر بين اثبات صفتين أو صفة واحدة، إضافةً إلى ما نقلناه عن المتكلّمين.

فتحصّل: أنَّ معنى لا شريك له نفس معنى وحده، غاية الأمر: فيه بيانٌ زائدٌ.

رابعاً: ليس قول الشريعتمداري: "تأكيد بعد تأكيد" تامّاً أيضاً؛ لأنّا قلنا: إنَّ الأوّل حال، والجملة بعده عطف بيان.

نعم، قد يكون مراده غير التوكيد الاصطلاحي، ولكن يرد عليه: صحّة كلام التبريزي عندئذٍ. ومنه اتّضح عدم صحّة كلاميهما.

ما أفاده اليزدي في المقام

نعم، ذكر اليزدي أموراً لا تخلو من فائدة، وإن كانت بعيدةً عن ألفاظ الخطبة الشريفة، وهاك بعضاً منه: من سنن نبيّ الإسلام الكريم صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام أن

يبدؤوا كلامهم عند إنشاء الخطبة بحمد الله والثناء عليه، والشهادة بالتوحيد، وقد بدأت سيّدة نساء العالمين عليها السلام خطبتها الشريفة بحمد الله سبحانه والشهادة بوحدانيّة الخالق، وعدّت ثلاث خصائص للتوحيد: أولاها: أنّ للتوحيد ظاهراً وباطناً، وظاهره هو قولنا: الله واحد لا شريك له. أمّا حقيقته وتأويله فالإخلاص، والذي يجب إدراكه، وإبرازه في العمل[1].

وذكرت السيّدة الزهراء عليها السلام في هذا المقطع بعد الشهادة بالتوحيد خصائصه الأساس الثلاثة وهي:

الأولى: ليست الشهادة بالتوحيد لفظاً فقط، بل له حقيقة عميقة جدّاً، ومن الجدير بالإنسان أن يسعى لتحصيلها، وهي الإخلاص.

الثانية: أودع الله سبحانه طريق الوصول إلى حقيقة التوحيد في قلوب الناس، وبعبارة أخرى: فطر قلوبهم على ذلك.

الثالثة: هذه الخصوصيّة هي توصيف للمعرفة التوحيديّة العقليّة، التي تحصل في ذهن الإنسان. وقد ذكرت عليها السلام أنّ الله سبحانه قد جعل هذه المعرفة التوحيديّة نورانيّةً وواضحةً لذهن الإنسان[2].

معنى قولها عليها السلام: «وَ ضُمِّنَ اَلْقُلُوبُ مَوْصُولَهَا».

تريد عليها السلام: أنّ الله قد ضمّن القلوب موصول تلك الكلمّة، وهي كلمّة: (لا إله إلّا الله) وهو يعطينا الإشارة إلى التوحيد الفطري، فكلّ إنسانٍ ضمّن الله أن يكون قلبه

(١) أعظم شكوى وأبلغ بيان ١: ١٤١.

(٢) المصدر السابق ١: ١٤٢ ـ ١٤٣.

عارفاً بوحدانيّته قلبيّاً، وإن أنكر توحيده عقلاً وعملاً.

نقاش بعض الأعلام

وعليه: لا يكون قول جماعة الشراح متوجهّاً، كقول السيّد شبّر: وألزمها موصول هذه الكلمة، أي: ملزومها من توحيده ذاتاً وصفةً[1].

فإنّه راجع إلى أحكام العقل، لا القلب الذي يؤمن ابتداءً بأنَّ الله واحدٌ، وتأتي باقي المعارف عليه بالعقل.

وكذا قول العلّامة المجلسي: هذه الفقرة تحتمل وجوهاً:

الأوّل: أنَّ الله تعالى ألزم وأوجب على القلوب ما تستلزمه هذه الكلمّة من عدم تركّبه تعالى، وعدم زيادة صفاته الكماليّة الموجودة، وأشباه ذلك ممّا يؤول إلى التوحيد.

الثاني: أن يكون المعنى: جعل ما يصل إليه العقل من تلك الكلمّة مدرجاً في القلوب، ممّا أراهم من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، أو بما فطرهم عليه من التوحيد.

الثالث: أن يكون المعنى: لم يكلّف العقول الوصول إلى منتهى دقائق كلمّة التوحيد وتأويلها، بل إنّما كلّف عامّة القلوب بالإذعان بظاهر معناها وصريح مغزاها، وهو المراد بالموصول.

الرابع: أن يكون الضمير في موصولها راجعاً إلى القلوب، أي: لم يلزم القلوب إلّا ما يمكنها الوصول إليها من تأويل تلك الكلمّة الطيبّة والدقائق المستنبطة منها، أو

---

(١) كشف المحجّة: ٤٠.

مطلقاً، ولولا التفكيك لكان أحسن الوجوه، بعد الوجه الأوّل، بل مطلقاً[١].

ويرد على الأوّل: أنّه مبني على تركّبه، وقد قلنا: بالعدم.

ويرد على الثاني: ليس الكلام في العقل بالمرّة، وإنّما أشارت إلى ما ضمّن القلوب، وقلنا: هو عبارة عن التوحيد الفطري الذي ينشأ مع الإنسان دون تدعيمه بمقرّرات العقل.

ويرد على الثالث: لم تأخذ العقل في اللفظ، وليست المسألة داخلة في التكليف، بل هي داخلة في لطف من ألطافه الكثيرة، بأن جعل قلبه موصولاً بلا إله إلّا الله.

ويرد على الرابع: بعده للغاية، فمحور الجمل: الكلمّة، وعليها تدور، فالضمير في موصولها راجع إلى: لا إله إلّا الله.

هذا، وبعيدٌ أيضاً ما أفاده الشريعتمداري الذي قال: إنَّ كون الخلق مفطورين على معرفة الله وتوحيده، ومعرفة صفاته الحسنى، وعلى الإقرار بالنبوّة والإمامة، معناه: أنّهم يجدون صدق هذه المعارف وحقّيّتها، بعد بيان رسل الله وحجّجه إليهم عليهم السلام[٢].

فإنّه أعطى للجملة الأولى ما تكفلّته الجمل التي بعدها، إضافةً إلى عدم موافقتنا على كون الخلق مفطورين على كلّ هذا الذي ذكره.

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢) الزهراء وخطبة فدك: ٤٠.

معنى قولها عليها السلام: «وَ أَنَارَ فِي اَلتَّفَكُّرِ مَعْقُولُهَا».

ومعناه: أنَّ الله تعالى جعل في العقول إمكانيّة التفكّر الموصل إلى حقيقة الأشياء التي تحوم حول (لا إله إلّا الله) التي منها: إثبات الصفات الايجابيّة، ونفي الصفات السلبيّة.

ومنها أيضاً: التفكّر في النبوّة والإمامة والمعاد، وكلّ شأنٍ مرتبط بالتوحيد الحقيقي.

معنى قولها عليها السلام: «اَلْمُمْتَنِعُ مِنَ اَلْأَبْصَارِ رُؤْيَتُهُ وَمِنَ اَلْأَلْسُنِ صِفَتُهُ وَمِنَ اَلْأَوْهَامِ كَيْفِيَّتُهُ».

النزاع بين العلمين في تحديد معنى الرؤية

بعد أن أفادت السيّدة فاطمة عليها السلام: أنَّ الله أنار في الفكر معقولها، وهذا الفكر قد يصل بالإنسان أن يقيس الله على المحسوسات، كما قد يصفه معتقداً أنّ وصفه مطابق للموصوف سبحانه وتعالى ، فتأخذه الأوهام بعيداً، وتغور به أحلامه، فوقفت عليها السلام لتقول: الأمر الذي قلته لا يمكن أن يفسّر في رؤية الله وفي صفته، فإنَّ ذلك ممتنع، ولا يمكن أن تجعل له ما يتكيّف به، فإنَّ الله يجلّ عن ذلك، ويترفّع عن أن تراه العيون وتحيط به الظنون، بل لا يمكن معرفة كنهه، باعتباره غير محدود، فكيف يتحصّل العلم به من المحدود؟

وقد وقع نزاعٌ بين العلّامة المجلسي والشريعتمداري في تحديد معنى الرؤية، فقال العلّامة: المراد بالرؤية العلم الكامل والظهور التامّ[1].

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٢.

بينما قال الشيخ: الأظهر أن يكون الأبصار جمعاً، بقرينة الألسن في الجملة التالية، ثمّ المراد من الرؤية هي الرؤية بالعين دون ما ذكره قدس سره من العلم الكامل والظهور التامّ، إذ لا نسبة بينه وبين الأبصار أو الإبصار. والغرض من امتناع الرؤية عن الوقوع في الأبصار نفيها، فقد شبّهت الرؤية المفروضة بصيد يمتنع من الوقوع في الحبالة، ويجري هذا في الجملتين التاليتين أيضاً، فإنّ امتناع صفته من الألسن وامتناع كيفيّته من الأوهام كناية عن أنّ لا صفة ولا كيفيّة له تعالى أصلاً، وليس معنى الامتناع ههنا الاستحالة، فإنّه بناءً عليه لا حاجة إلى قولها عليها السلام: من الإبصار ولا من الألسن ولا من الأوهام، بل معنى الامتناع ههنا هو التأبّي والتعصّي، وهو المعنى اللغوي[1].

لكن يرد عليه:

أوّلاً: جعلت امتناع صفته من الألسن وامتناع كيفيّته عن الأوهام كناية عن أنّ لا صفة له، ولا كيفيّة له تعالى أصلاً، ولم تجعل الامتناع من الابصار كذلك، مع أنّ الجميع في سياقٍ واحد، ويشهد له العطف بالواو.

ثانياً: إن كنت تقول بعدم الصفة وعدم الكيفيّة، فقل بعدم العلم به كاملاً.

ثالثاً: لو كان بمعنى التعصّي والتأبّي لعدّي بعن لا بمن.

وربّما يجد المتأمّل أكثر ممّا وجدناه. والمشكلة الأكبر ليست في ذلك، بل في احتياج السيّدة الزهراء عليها السلام إلى كلامٍ يدلّ على نفي العلم بالله واحاطتهم به، فتبقى الخطبة ناقصة، فلابدّ أنّها أشارت إليه بما قاله العلّامة.

---

(١) الزهراء وخطبة فدك: ٤٣.

معنى قولها عليها السلام: «اِبْتَدَعَ اَلْأَشْيَاءَ لاَ مِنْ شَيْءٍ كَانَ قَبْلَهَا وَ أَنْشَأَهَا بِلاَ اِحْتِذَاءِ أَمْثِلَةٍ اِمْتَثَلَهَا».

الفرق بين الإبداع والإنشاء

الإبتداع هو: إيجاد شيء بلا توسّط مادّةٍ.

والانشاء: إيجادٌ بتوسّط منشأ.

ومثال الأوّل: خلق العناصر الأولى كالتراب مثلاً، فإنّه غير مسبوقٍ بخلق أبداً.

ومثال الثاني: الإنسان الذي أنشأه الله وخلقه من التراب نفسه.

وهي عليها السلام أشارت إلى المعنى الأوّل، بقولها: «لاَ مِنْ شَيْءٍ كَانَ قَبْلَهَا».

وأشارت إلى المعنى الثاني، بقولها: «بِلاَ اِحْتِذَاءِ أَمْثِلَةٍ اِمْتَثَلَهَا».

فعندما خلق الله الملائكة وأنشأها من نوره لم يحتج في خلق الإنسان إلى أن يقتدي بخلقه الأوّل، أعني: الملائكة[1]، فحتّى لو كان هناك مثال، لكنّه لم يمتثل ذاك المثال، فخلق كما يريد دون تأثير عليه.

وهذا يدلّ بنفسه على وجود الأمثلة، وإلّا لو لم تكن فلا موجب لقولها أصلاً، ومثّلنا له: بخلق الملائكة والإنسان، وهو كافٍ للبيان. وعليه: يكون ما قاله الشريعتمداري: فلا يخفى ما في الجملتين من اللطف والتكرار المليح الدالّ على التأكيد من غير ملالةٍ.

واتّهم صاحب اللمعة البيضاء بمخالفة تصريح أهل اللغة، وكونه أفسد الكلام البليغ[2].

---

(١) إنّما ذكرنا ذلك من باب التمثيل.

(٢) الزهراء وخطبة فدك: ٤٥.

أمّا مخالفة أصل اللغة فحقٌّ. أمّا أنّه أفسد الكلام البليغ فلا نوافق عليه أصلاً، بل يمكن أن يكون التأكيد كذلك، إذا لم يكن المورد من موارد التأكيد، كما لا يخفى.

ويؤيّد قولنا ما ذكره اليزدي: تقول السيّدة الزهراء عليها السلام في خلق الله: «اِبْتَدَعَ اَلْأَشْيَاءَ لاَ مِنْ شَيْءٍ كَانَ قَبْلَهَا». فالله القادر ليس بحاجة في خلق الأشياء في العالم إلى وجود شيء قبلها ليخلقها منه؛ لأنّ كلّ ما عدا الله فهو مخلوق له، وكلّ مادّة تفرض فهي مخلوقة له أيضاً، وإذا احتاجت هذه الأشياء في وجودها إلى مادّة أخرى قبلها، فإنّنا ننقل السؤال إلى المادّة الأخرى، ونقول: هل هي بحاجة إلى مادّة قبلها أيضاً أم لا؟ وإذا قيل: إنّها بحاجة إلى مادّة قبلها يلزم التسلسل، وقد ثبت –في محلّه– بطلانه.

وبناءً على هذا، إذا تصورنا في أذهاننا أنّ الله في جهة، والعالم في جهة أخرى، فلا حاجة أبداً في وجود العالم إلى شيء غير إرادة الله، لكن يمكن أن يقال: يرى القرآن الكريم أنّ الكثير من الأشياء قد خلقت من أشياء أخرى؛ فقد قال الله تعالى في خلق النبيّ آدم عليه السلام: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾[1]، وقال في خلق سائر أفراد الإنسان: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[2]. وكذلك قال الله تعالى في الموجودات الحيّة كلّها: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[3]. واستناداً إلى هذه الآيات فقد خلق الله كلّ واحد من الموجودات من مادّة سابقة. إذن، ما معنى كلام السيّدة الزهراء عليها السلام حيث تقول:

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٤.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

«ابْتَدَعَ الْأَشْيَاءَ لاَ مِنْ شَيْءٍ كَانَ قَبْلَهَا»؟

نقول في الجواب: لا تنافي بين هذه الآيات وبين كلام السيّدة الزهراء عليها السلام؛ لأنّها عليها السلام تقول: لم يخلق الله مجموع الأشياء في العالم من مادّة سابقة، وهذا لا ينافي خلق بعضها من بعض آخر، فالله لا يحتاج في خلق هذه الأمور إلى مادّة يعمل عليها؛ ليخلقها منها، وهو غني مطلق، وكلّ ما هو موجود فهو مخلوق له، ومحتاج إليه.

والشبهة القائلة: خلق الله الأشياء في العالم من مادّة سابقة ناشئة في الأغلب من الفهم الخاطئ الموجود في الأذهان عن مفهوم الصنع، بل الخلق أيضاً، فنحن نظنّ عادةً أنّ الصنع أو الخلق إنّما يكون له معنى حيث يوجد شيء، ويغيّر فيه، فيتبدّل إلى شيء آخر، فلصنع الخاتم –مثلاً– يجب أن يكون هناك ذهب؛ ليذيبه الصائغ، ويسكبه في القالب، ويقوم بأعمال أخرى عليه؛ ليُصنع الخاتم. وهنا نقول: صَنَعَ الخَاتَم. ولا معنى للصنع أو الخلق أبداً في غير هذه الصورة. فمثل هذه الأذهان تظنّ أنّ قولنا: صنع الله العالم إنّما يكون له معنى حيث تكون هناك مادّة يعمل الله عليها، ويخلق منها العالم. وإذا لم تكن هناك أيّة مادّة سابقاً فلا يمكن لله أن يخلق شيئاً.

وقد نسب إلى بعض فلاسفة اليونان أنّهم قالوا: نحن نثبت الله بوصفه المحرّك الأوّل، وأنّه أوّل من أوجد الحركة في مادّة العالم؛ لأنّ العالم بحاجة إلى محرك. ومعنى هذا الكلام أنّ هناك مادّة كانت موجودة مع الله، ولا تحتاج إليه أبداً. والله هو الذي أوجد الحركة فيها، وأجرى عليها تغييرات.

وهذه الأفكار الباطلة والساذجة ناتجة عن أنسنا بأعمالنا، وأنّنا لا يمكننا أن ندرك بشكل صحيح وجود شيء لم يكن موجوداً أصلاً، ولم تسبقه مادّة أبداً. وهذا

ليس عجيباً طبعاً؛ لأنّنا غير قادرين على إدراك حقيقة الله نفسه. وإذا تقرّر أن ننكر كلّ ما لا يمكننا إدراك حقيقته يجب أن ننكر الكثير من الأشياء الموجودة في عالم المادّة، فبتطوّر العلوم اليوم تثبت أشياء لا يمكن إدراكها بالحسّ؛ ففي العلوم التجريبيّة مثلاً يقال: يتألّف العالم من أجزاء صغيرة باسم الذرّة، وهي تتشكّل من أجزاء باسم الإلكترون والبروتون، وهما عنصران لا تمكّن من رؤيتهما، وإنّما يمكن للأجهزة الدقيقة أن تظهر مسير الإلكترون، ومع ذلك يثبتون وجودهما بالأدلّة العلميّة.

وعلى كلّ حال، نحن نظنّ أنّ غير هذا ليس ممكناً، بسبب الأنس بالتغييرات المادّية التي عندنا، ولكن البرهان يقول: يمكن الصنع والخلق من العدم. وخلق الله هو من هذا القبيل، والله هو الوحيد الذي يخلق كلّ ما يشاء بإرادته فقط، ولا يحتاج إلى أيّ شيء، أو أحد أبداً؛ وقد قال القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وبناءً على هذا، فكلام السيّدة الزهراء عليها السلام يعني أنّ الله تعالى خلق مجموع هذا العالم فقط بإرادته، ولم يحتج إلى أيّ شيء آخر في خلقه، ولا يعني هذا الكلام طبعاً أنّ الله خلق الأشياء كلّها في هذا العالم —على نحو العموم الاستغراقي— من دون مادّة سابقة، بل كلّ شيء من أشياء هذا العالم يشكّل مادةً لوجود شيء آخر، وقد تقدّم أنّ القرآن يصرّح بهذا المعنى، والسيّدة الزهراء عليها السلام ليست في مقام نفيه، وإنّما كلامها عليها السلام في مقام نفي توهّم أنّ في العالم ثلاثة أنواع من الموجودات:

أحدها: المادّة التي لا تحتاج إلى موجد، وهي واجبة الوجود. والمتوهمون

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

حتّى لو لم يصرحوا بهذا الأمر، إلّا أنّ هذا لازم لكلامهم.

الثاني: الله الذي يوجد تغيّرات في تلك المادّة.

الثالث: الأشياء التي وجدت بسبب التغيّرات التي أحدثها الله في المادّة.

فكلامها عليها السلام في مقام نفس هذا التوهّم، وإثبات عدم حاجة الله إلى المادّة، وأنّه خلق العالم كلّه بإرادته[1].

أقول: قد لا نتّفق معه على تعبيره: بأنّه كلّ شيء من أشياء هذا العالم يشكّل مادّةً لوجود شيء آخر، حيث إنّه مختصّ بفقرتها الثانية دون الأولى، فتدبّره جيّداً. أمّا الفقرة الأولى فمختصّةٌ بخلق المواد الأوّلى كما عرفت.

معنى قولها عليها السلام: «كَوَّنَهَا بِقُدْرَتِهِ وَ ذَرَأَهَا بِمَشِيَّتِهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَى تَكْوِينِهَا وَ لاَ فَائِدَةٍ لَهُ فِي تَصْوِيرِهَا إِلاَّ تَثْبِيتاً لِحِكْمَتِهِ وَ تَنْبِيهاً عَلَى طَاعَتِهِ وَ إِظْهَاراً لِقُدْرَتِهِ تَعَبُّداً لِبَرِيَّتِهِ وَ إِعْزَازاً لِدَعْوَتِهِ».

معنى قولها عليها السلام: «كَوَّنَهَا بِقُدْرَتِهِ».

أي: خلق الأشياء والمواد الأوّلى بمحض قدرته، بلا أن يكون محتاجاً إلى أيّ شيء في خلقها، فتكون هذه الجملة راجعة إلى الجملة الأولى على طريق اللفّ والنشر المرتّب، أعني: ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها.

معنى قولها عليها السلام: «ذَرَأَهَا بِمَشِيَّتِهِ».

أي: خلقها الله ممّا يشاء وبما يريد، فكلا الفعلين منه تعالى.

---

(١) أعظم شكوى وأبلغ بيان: ١٧٧-١٨٠.

مناقشة ما أفاده التبريزي

واختار التبريزي قولاً بعيداً، لكنّه بناه على الاحتمال، فقال: ويمكن أن يكون هناك قول ومخاطب، وذلك إمّا بأن يقال إنّ لكلّ شيء إمكاناً مخصوصاً به لتفاوت الإمكانات بالأشرفيّة وغير الأشرفيّة، فيمكن أن يخاطب الله تعالى إمكان كلّ شيء، بقوله: ﴿كُنْ﴾ أي صر كوناً، أو أنّ في لوح الإمكان صوراً علميّة غير متناهية، ولكلّ شيء يدخل في الوجود في أيّ زمن كان صورة مخصوصة به هناك، فيمكن أن يخاطب الله لتلك الصورة عند خلقه، بقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ويشير إلى هذا ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله تعالى خلق الخلق في ظلمّة ثمّ رشّ عليهم من نور الوجود، فتكوّنوا فظهروا[1].

ويرد عليه: أنَّ الإمكان واحد، ولا يمكن تجزئته، فلا يمكن له التفاوت بالأشرفيّة وغير الأشرفيّة. أمّا ما استدلّ به من الرواية فلا يتمّ له، إذ تكلّمت عليها السلام عن الإبداع، وهو معنى يغاير خلق الخلق جزماً، بل هو خلق المادّة التي خلق منها الخلق. هذا ما استظهرناه من جميع قولها: «اِبْتَدَعَ اَلْأَشْيَاءَ لاَ مِنْ شَيْءٍ كَانَ قَبْلَهَا وَ أَنْشَأَهَا بِلاَ اِحْتِذَاءِ أَمْثِلَةٍ اِمْتَثَلَهَا كَوَّنَهَا بِقُدْرَتِهِ وَ ذَرَأَهَا بِمَشِيَّتِهِ».

معنى قولها عليها السلام: «مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَى تَكْوِينِهَا وَ لاَ فَائِدَةٍ لَهُ فِي تَصْوِيرِهَا».

مرجع الفائدة في خلق الكون هو الإنسان بالدرجة الأساس، فهو الذي ينال منه ما ينال ليصل إلى الكمال المعدّ له، فالله غير محتاج إلى التكوين، ولم يكن التكوين ولا غيره مضيفاً لذاته المقدّسة شيئاً، ولا فائدة له في تصوير الأشياء، لكنّه خلق

(١) اللّمعة البيضاء: ٣٩٩، ٤٠٠.

وصوّر وكان له غايةٌ أراد منها كمال الخلق ليعرفوا ربّهم.

فالكلام ليس عن العلّة الغائيّة، بل عن عدم حاجته وعدم تصوّر فائدته، إذ إنّ كون هذه الأشياء صادرةً عن ذاته فتكون له فاعليّةً وغائيّةً، ممّا لا شكّ فيه ولا شبهة تعتريه.

معنى قولها عليها السلام: «إِلاَّ تَثْبِيتاً لِحِكْمَتِهِ وَتَنْبِيهاً عَلَى طَاعَتِهِ وَإِظْهَاراً لِقُدْرَتِهِ تَعَبُّداً لِبَرِيَّتِهِ وَإِعْزَازاً لِدَعْوَتِهِ ثُمَّ جَعَلَ الثَّوَابَ عَلَى طَاعَتِهِ وَوَضَعَ الْعِقَابَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ ذِيَادَةً لِعِبَادِهِ مِنْ نَقِمَتِهِ وَحِيَاشَةً لَهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ».

حقيقة الثواب

قال التبريزي: والثواب في الخير والشرّ، إلّا أنّه غلب استعماله في الخير، وهو المراد هنا[1].

وقال ابن منظور: والثواب: جزاء الطاعة، وكذلك المثوبة. قال الله تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾[2]. وأعطاه ثوابه ومَثُوبته ومَثْوبته أي جزاء ما عمله.

وأثابه الله ثوابه وأثوبه وثوبه مثوبته: أعطاه إيّاها. وفي التنزيل العزيز: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[3]. أي جوزوا. وقال اللحياني: أثابه الله مثوبةً حسنةً. ومثوبةٌ، بفتح الواو، شاذ، منه. ومنه قراءة من قرأ: لَمَثْوَبَةٌ من عند الله خير. وقد أثوبه الله مثوبةً حسنةً، فأظهر الواو على الأصل. وقال الكلابيون: لا نعرف المثوبة، ولكن

---

(١) اللّمعة البيضاء: ٤١٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة المطففين، الآية: ٣٦.

المثابة.

وثوبه الله من كذا: عوضه، وهو من ذلك. واستثابه: سأله أن يثيبه.

وفي حديث ابن التيهان: رضي الله عنه: أثيبوا أخاكم أي جازوه على صنيعه. يقال: أثابه يثيبه إثابةً، والاسم الثواب، ويكون في الخير والشرّ، إلّا أنّه بالخير أخصّ وأكثر استعمالاً[١].

ومن هذا التهافت الذي نقله ابن منظور تعرف معنى اشكال صاحب مختار الصحاح، إذ قال: و(الثواب) و(المثوبة): جزاء الطاعة. قلت: هما مطلق الجزاء، كذا نقله الأزهري وغيره. ويعضده قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾؛ أي: جوزوا؛ لأنّ ثوبه بمعنى: اثابه[٢].

لكن يظهر أنّ المقام ليس ممّا يعتمد على الانصراف لوجود قرينة فيه، وهي قولها عليها السلام: «عَلَى طَاعَتِهِ».

معنى قولها عليها السلام: «وَ وَضَعَ اَلْعِقَابَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ».

بمقتضى عدله وحكمته.

ومعنى قولها عليها السلام: «ذِيَادَةً لِعِبَادِهِ مِنْ نَقِمَتِهِ وَ حِيَاشَةً لَهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ».

الذيادة هنا مفعولٌ لأجله، والمعنى: لأجل أن يبعدهم ويدفعهم عن نقمته وعقوبته المقرّرة، فيما إذا فعلوا ما يقتضيها.

وحياشة: لفظٌ دلّ على نفور الناس بطباعهم عمّا يوجب الجنّة[٣].

---

(١) لسان العرب ٢: ١٤٥.

(٢) مختار الصحاح: ٧٦.

(٣) انظر: كشف المحجّة: ٤٨، الزهراء وخطبة فدك : ٤٦.

وهذا المعنى وإن أخذاه من أهل اللغة، لكنّه غير متعيّن. وذلك لورود الحياشة بمعاني أُخر، ولأنّ الطبع الأوّلي للبشر على غير النفور، بل على الطاعة لما فيه المصالح المدركة غير الخفيّة، فيكون المعنى: إعانةً منه إلى جنّته[١].

وهو واضح من خلال تعدّي الحياشة بـ(من)، فلو كانت بمعنى النفر لعدّتها عليها السلام بـ(عن)، فيكون المعنى: إعانةً منه إلى جنّته بالتحبيب إليها والتجذيب لها وبما يوجب الاشتياق للجنّة.

كلامها عليها السلام في النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله والحكمة من بعثته

معنى قولها عليها السلام: «وَأَشْهَدُ أَنَّ أَبِي مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ اِخْتَارَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ وَسَمَّاهُ قَبْلَ أَنِ اِجْتَبَاهُ وَاِصْطَفَاهُ قَبْلَ أَنِ اِبْتَعَثَهُ إِذِ اَلْخَلاَئِقُ بِالْغَيْبِ مَكْنُونَةٌ وَبِسَتْرِ اَلْأَهَاوِيلِ مَصُونَةٌ وَبِنِهَايَةِ اَلْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ».

لماذا هذه الشهادة؟

من الواضح جدّاً أنّها أرادت أن تقول: إنّه أبي الموصوف بهذه الأوصاف دونكم، وأنا ابنته التي لطالما سمعتموه يقول: «أَلَا إِنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِي»[٢] و «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يُؤْذِينِي مَا يُؤْذِيهَا»[٣]. وأنا العالمّة بما جرى عليه وما وصل إليه، وأحدّثكم الآن بعلمي ومعرفتي اللتين توجب عليكم أن تجعلوا أقوالي وأفعالي ميزاناً لحياتكم ونبراساً على رؤوسكم.

---

(١) لاحظ: لسان العرب ٣: ٤٩٢.

(٢) الأمالي للصدوق: ١٠٤.

(٣) بحار الأنوار، ٢٣: ٢٣٤.

فلابدّ أن أكون مصيبةً، ولا أجانب الحقّ ما حييت، لأنّي اللوح المحفوظ، والقلم الذي يحدّد بخطّه مصيركم.

ولم أرد من الدنيا شيئاً، إلّا أن كتب لي عن طريق نبيّه هذه الأرض وغيرها، لأحكم بينكم بالعدل، ولأريكم صدق آيات ربّي.

فلا تحرموني فتكونوا من المحرومين، ولا تجهلوا قدري فتكونوا من الأخسرين.

معنى قولها عليها السلام: «عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

قال التبريزي: (عبد الله) من أشرف ألقاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأعلاها، وهو صلى الله عليه وآله وسلم مظهر العبوديّة الكاملة التي هي جوهرة كنهها الربوبيّة، وهي أعلى مرتبة من الرسالة والنبوّة، ولذا قدّم ذكر العبد في الشهادة هنا، وفي تشهّد الصلاة وسائر الموارد الكثيرة...

ثُمَّ قال: والرسول فعول بمعنى المفعول من المزيد أي المرسل إلى الغير، وسمى بعض الأنبياء رسولاً لكونه مرسلاً من جانب الله تعالى إلى الغير برسالة الشريعة، سواء كان ذلك الغير هو أهل بيته، أو أهل بلده، أو قومه، أو قوماً مخصوصاً، أو جميع الناس، ويقال للأخير أولو العزم أيضاً إذا لم تكن شريعته مبتدئة، وهم في الأنبياء خمسة كما نظم:

أولو العزم خمس شرفوا بمحمّد ... على كلهم صلى الإله وسلّم

فنوح بن ملك والخليل بن تارح ... وموسى بن عمران وعيسى بن مريم

ومعنى العزم كونه ناسخاً لشريعة من قبله، ومؤسّساً لشرعٍ آخر لجميع من

عاصره من بعده[١].

معنى قولها عليها السلام: «وَ سَمَّاهُ قَبْلَ أَنِ اِجْتَبَاهُ».

قال العلّامة: الجبل الخلق، يقال: جبلهم الله، أي: خلقهم، وجبلهم على الشيء، أي: طبعه عليه، ولعلّ المعنى أنّه تعالى سمّاه لأنبيائه قبل أن يخلقه، ولعلّ زيادة البناء للمبالغة تنبيهاً على أنّه خلق عظيم، وفي بعض النسخ بالحاء المهملة، يقال: احتبل الصيد، أي: أخذه بالحبالة، فيكون المراد به: الخلق أو البعث مجازاً، وفي بعضها: قبل أن اجتباه، أي: اصطفاه بالبعثة، وكلّ منها لا يخلو من تكلّف[٢].

ولابدَّ من حمل كلام العلّامة على كونه تعالى سمّاه قبل أن يخلقه، لا قبل أن يطبعه على الطبائع الحسنة.

وقد أشار إليه العلّامة نفسه بقوله: ولعلّ المعنى...

ويتعيّن على العلّامة تحديد خلق النبيّ، وما المراد منه؟ وفي أيّ النشأتين؟

وقول العلّامة الثاني يرد عليه الإطلاق في تعبيرها. نعم، ربّما أستفيد من أحاديث أخرى لهم عليهم السلام.

وقوله الثالث لا وجه له، إذا قيل بورود الرواية فيه. نعم، يكون له وجهٌ إذا قيس بغيره.

وقوله الرابع لا نعلم فيه وجه التكلّف، إلّا بعد أن ننظر إلى ما قالته بعد قولها عليها السلام: «وَسَمَّاهُ قَبْلَ أَنِ اِجْتَبَاهُ» فإنَّ معنى اجتباء نفس معنى الاصطفاء، لكن على تقدير أنّهما بنفس المعنى، فيكون الأوّل اختياراً للاسم، والثاني اختياراً للمسمّى.

---

(١) اللمعة البيضاء: ٤٢٥.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٣.

معنى قولها عليها السلام: «إِذِ اَلْخَلاَئِقُ بِالْغَيْبِ مَكْنُونَةٌ وَبِسَتْرِ اَلْأَهَاوِيلِ مَصُونَةٌ وَبِنِهَايَةِ اَلْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ».

أقوال الأعلام في تأويل ما ذكرته عليها السلام

اختلف الأعلام في هذه الجمل، فمن رأى: أنّها كناية عن كون الأشياء معدومةً. ومن رأى: أنّها كذلك، أو هي من ستر الأصلاب والأرحام. ومن رأى: أنّها مرتبطة بعالم الأظلّة والأشباح.

وسنعرض الأقوال، ثُمَّ نختار ما رأيناه أكثر صواباً:

قال العلّامة المجلسي: لعلّ المراد بالستر ستر العدم أو حجب الأصلاب والأرحام، ونسبته إلى الأهاويل لما يلحق الأشياء في تلك الأحوال من موانع الوجود وعوائقه، ويحتمل أن يكون المراد أنّها كانت مصونة على الأهاويل بستر العدم، إذ هي إنّما تلحقها بعد الوجود، وقيل: التعبير من قبيل التعبير عن درجات العدم بالظلمات[1].

وقال التبريزي في كلامٍ طويلٍ ننقل آخره: وهذه الفقرة أيضاً كناية عن كون الأشياء معدومة، بتقريب: فرض أنّ ظلمات العدم كانت أُموراً موحشة مفزعة لمن رام أن يدخلها، ويطلّع على الأشياء التي كانت فيها، فصارت محفوظة عن وصول الأيدي إليها بما دونها من الظلمات الحاجبة الموحشة الفزعة[2].

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٣.

(٢) اللمعة البيضاء: ٤٣٤.

وقال السيّد الصائغ: المراد بالأهاويل ظلمات العدم[١].

وقال الشريعتمداري: الأظهر أن يكون المراد من الجمل الثلاث: «إِذِ اَلْخَلاَئِقُ بِالْغَيْبِ مَكْنُونَةٌ وَبِسَتْرِ اَلْأَهَاوِيلِ مَصُونَةٌ وَبِنِهَايَةِ اَلْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ» الإشارة إلى عالم الأظلّة والأشباح، فهو المسمّى بالغيب –ووجه التسمية واضح– وبستر الأهاويل لكون الخلائق هناك مصونة عن أهاويل هذه النشأة الدنيويّة، وكونها مقرونة بنهاية العدم لأنّه أوّل خلقهم[٢].

والأقرب ما قاله الأخير، ببيان: إنّ الستر يقتضي مستوراً موجوداً لا محالة.

فإن قلت: كيف تقول ذلك، مع أنّها عليها السلام قالت: «بِنِهَايَةِ اَلْعَدَمِ».

أقول: أرادت بذلك الوجود الضعيف المعبّر عنه بنهاية العدم، وهذا بنفسه يمكن استغلاله بصالح ما اخترناه، إذ العدم لا نهاية فيه، ولا ميّز يعتريه.

فلو فرضناه متميّزاً بإضافة الوهم للملكات إليه، فعندئذٍ يتميّز عدم عن عدم. أمّا العدم المطلق فلا تميّز فيه إطلاقاً.

ولا يمكنك أنّ تتوهّم: أنّ العدم هنا مضاف، بل هو مضاف اليه.

وما صحّحناه هو الميّز للأعدام المضافة، لا المضافة إليها، كقولنا: عدم السمع، وعدم البصر. أضف إليه: أنّ المضاف هو الملكات، وليست النهاية منها.

معنى قولها عليها السلام: «عَلَماً مِنَ اَللَّهِ تَعَالَى بِمَآيِلِ اَلْأُمُورِ وَإِحَاطَةً بِحَوَادِثِ اَلدُّهُورِ وَمَعْرِفَةً بِمَوَاقِعِ الْمَقْدُورِ».

---

(١) الدرّة البيضاء في شرح خطبة الزهراء: ٣٦٠.

(٢) الزهراء وخطبة فدك: ٤٧.

قصدت السيّدة الزهراء عليها السلام: أنّ الخلائق لمّا كانوا بالغيب مكنونين، وبنهاية العدم مقرونين، فقد علم الله بما سيؤول إليه خلقه وفقاً لحكمته، حيث تنتهي إليه الأمور، وهو المحيط إحاطةً تامّةً بكلّ حوادث الأمور.

ولم تتعرّض عليها السلام: لذكر النبيّ الأكرم في المقام، بل اكتفت بالإشارة بهذه الجمل إلى كون الخالق محيطاً عارفاً، لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض، عالماً بما كان وبما سيكون.

نعم، هي ذكرت أباها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما بعد، بقولها: «اِبْتَعَثَهُ اَللَّهُ إِتْمَاماً لِأَمْرِهِ وَعَزِيمَةً عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ وَإِنْفَاذاً لِمَقَادِيرِ حَتْمِه».

ومنه يظهر مجانبة الصواب في قول التبريزي: والمراد أنّ الله تعالى سمّى نبيّه أي قرّر خلقته، وعيّنه باسمه ورسمه لهداية خلقه لعلمه بعدم استقامته أمور خلقه بدونه، وإنّهم يضلّون الطريق بدون الاستضاءة بنوره[1].

وكذا قول الشريعتمداري: قولها عليها السلام: علماً من الله.... تعليل لاختيار الله تعالى محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم وانتجابه وتسميته واصطفائه له. وحاصله: أنّه لمّا كان الله تعالى عالماً بعواقب الأمور علم أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم هو اللائق للاختيار والاصطفاء دون غيره. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3][4].

---

(١) اللمعة البيضاء: ٤٣٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة القصص، الآية: ٦٨.

(٤) الزهراء وخطبة فدك: ٤٩.

والدليل على بطلان قوليهما: أنّها تكلّمت عليها السلام عن علم الله المطلق بمآيل الأمور، وإحاطته الشاملة، ومعرفته بمواقع كلّ مقدور، وعندئذٍ يكون قولنا مدخلاً النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تحت العموم، وليس مخرجاً غير النبيّ بمثل هذا التخصيص المدّعى.

ثُمَّ بناءً على قوليهما قد يقال بلزوم التكرار في قولها عليها السلام: «مَعْرِفَةً بِمَوَاقِعِ الْمَقْدُور» و «إِنْفَاذاً لِمَقَادِيرِ حَتْمِه»، فتأمّل.

نعم، يمكن المصير إلى القولين المذكورين إذا لاحظنا سياق كلامها، وأنّها تتكلّم عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، فيكون قولنا المتقدّم معترضاً بين الكلام، وهذا ما لا نظنّه.

ويكون مدحها للنبيّ قرينةً على التخصيص بعد ذكر العامّ.

معنى قولها عليها السلام: «اِبْتَعَثَهُ اَللَّهُ إِتْمَاماً لِأَمْرِهِ وَ عَزِيمَةً عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ وَإِنْفَاذاً لِمَقَادِيرِ حَتْمِه».

قال المجلسي: أي: للحكمة التي خلق الأشياء لأجلها[1].

وقال العلّامة التبريزي: أي إتماماً للحكمة التي خلق الأشياء لأجلها، وهي تحصيل المعرفة والعبادة والفوز بدرجات الجنّة والفيوض الأُخرويّة[2].

وهذا المعنى وإن كان صحيحاً، إلّا أنّه لم يدلّ عليه دليل ولا قرينة. بل حسب العلّامة التبريزي الذي أضاف على كلام المجلسي شيئاً وأراد أن يكمله، والحال أنّه أنقص منه وحذف، إذ كلّام العلّامة المجلسي أعمّ منه بلا شبهة.

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٣.

(٢) اللمعة البيضاء: ٤٤٤.

وواضح أنّها أشارت إلى مسألةٍ في غاية الأهميّة، وهي: (الإتمام)، فكأنّ الله ابتدأ الأشياء، وابتعث نبيّه محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم، ليتمّ به ما ابتدأه سبحانه. وهذا المعنى مستفاد من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاق»[1]. وهو أيضاً مستفادٌ من قولهم: تمّم على الجريح، بمعنى: أجهز عليه[2]. فيمكن اقتناصه من كتب اللغة والأحاديث الشريفة.

معنى قولها عليها السلام: «وَ عَزِيمَةً عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ وَ إِنْفَاذاً لِمَقَادِيرِ حَتْمِه».

العزيمة عطف على الإتمام، فيكون المعنى: وابتعثه الله عزيمةً على إمضاء حكمه، وإنفاذاً أيضاً كعزيمة، بمعنى: ابتعثه الله إنفاذاً لمقاديره المحتومة الثابتة في عالم الواقع واللوح المحفوظ.

معنى قولها عليها السلام: «فَرَأَى الْأُمَمَ فِرَقاً فِي أَدْيَانِهَا عُكَّفاً عَلَى نِيرَانِهَا عَابِدَةً لِأَوْثَانِهَا مُنْكِرَةً لِلَّه مَعَ عِرْفَانِهَا».

إنَّ كلمّة الإسلام التي جاء بها كلّ أنبياء الله على اختلاف أممهم ومسمّياتهم تكشف عن كون النهج فارداً والدين واحداً.

وهذا لا يعني أن نذهب إلى عدم التفاوت في الأحكام ابتداءً، فإنَّ كلّ أمّةٍ تحتاج إلى أحكام تنسجم وإدراكاتها العقليّة، وحوائجها النفسيّة، وقوانينها العرفيّة والاجتماعيّة. لكن لم يكن هذا الاجتماع على الكلمّة السواء، وحصل ما حصل من التزييف والتحريف لتباين الأغراض، وتعارض الأمزجة وتنوّعها، فحصلت الفرقة في

---

(١) مجمع البيان ٥: ٣٣٣.

(٢) لسان العرب ٢: ٥٤.

الأمّة الواحدة تقديراً، وصارت أمماً في أديانها وفي معتقداتها وسلوكها. فمن ظلَّ عاكفاً على عبادة النار ولم يسلّم للواحد القهار. ومن عبد الأصنام والأوثان مبتعداً عن الرحمن. ومن عبد الشمس واعتقد بالقمر... .

والزهراء عليها السلام لم تشر إلى كلّ هذه الفرق التي أثّرت على وحدة الأمّة، باعتبار أنّ تعدادها يخرجها عن الغرض، ويبعدها عن المقصد، فأكتفت بالفرقتين عن ذكر سائر الفرق.

لهذا، لا نقبل التمحّل الذي صدر عن الشريعتمداري، حيث قال: وقولها عليها السلام: «عَابِدَةً لِأَوْثَانِهَا»، إشارة إلى ساير فرق من أهل الشرك. ويحتمل أن يكون المراد من نيرانها، ما يؤول إليه أمر أهل الشرك من نار جهنّم يصلونها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1]، فتكون الجملتان كلتاهما ناظرتين إلى جميع فرق المشركين[2].

لأنّها لو كانت تقصد: ما يؤول إليه أمر أهل الشرك من نار جهنم يصلونها، ما احتاجت إلى ذكر الفرقتين.

وما ذكره أوّلاً لا نقبله أيضاً، لما تقدّم من اكتفاءها بذكرهما عمّن سواهما. خصوصاً أنّ أعلام الشرك تتجسّد بهاتين.

ثُمَّ لماذا لم تجعل سيّدة النساء عليها السلام الضمير جمعاً وعاملته معاملة المفرد، فلم تقل في أديانهم ولا كذا نيرانهم؟

والجواب: إنّها تعاملت مع كلّ هذه الأمم معاملة أصلها ووضعها التي وضعه

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية: ٩٨.

(٢) الزهراء وخطبة فدك: ٥٢.

الله فيها ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾[١].

وهل أرادت من العرفان الفطري أم الاستدلالي؟

يظهر من العلّامة المجلسي التردّد، حيث قال: لكون معرفته تعالى فطريّة، أو لقيام الدلائل الواضحة على وجوده سبحانه[٢].

وأكّد السيدّ عبد الله على هذين الاحتمالين، بقوله: أمّا لكون معرفته تعالى فطريّة، فطر عليها العقول، كما دلّت عليه الآيات والروايات، كقوله تعالى ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٣]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ»، أو لقيام الأدلّة القاطعة والبراهين الساطعة على وجوده[٤].

ويبدو أنَّها عليها السلام أرادت منه الفطري، إذ لا ينسجم العرفان الاستدلالي مع الذي كانوا يفعلونه وكانوا يعتقدونه.

معنى قولها عليها السلام: «فَأَنارَ اللهُ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ظُلَمَها، وكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَها، وَجَلّى عَنِ الأَبْصارِ غُمَمَها، وَقَامَ في النّاسِ بِالهِدايَةِ، وأنقَذَهُمْ مِنَ الغَوايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ العَمايَةِ، وهَداهُمْ إلى الدّينِ القَويمِ، وَدَعاهُمْ إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ».

قال العلّامة المجلسي: والضمير في ظلمها راجع إلى الأمم، والضميران التاليان

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٩.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٣.

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٤) كشف المحجّة: ٥٣.

له يمكن إرجاعهما إليها وإلى القلوب والأبصار[١].

وقد تسأل: لماذا لم يجز في "ظلمها" الاحتمالان؟

والجواب: حسب قواعد اللغة العربيّة لا يجوز أنْ يرجع الضمير على ما لم يذكر، وحيث تقدّمت الأمم بالذكر، فيعود إليها الضمير حتّماً، ولا يمكنه العود على متأخّر، كما بيّنا.

وأمّا الضميران التاليان فيمكن إرجاعهما إلى الأمم، كما يمكن ارجاع كلّ منهما الى صاحبه، أي: القلوب والأبصار.

إن قلت: لماذا لم تقلّ عليها السلام: بمحمّدٍ في الجملتين اللتين بعد أنار الله بمحمّد ظلمها؟

قلت: الجواب من وجهين:

الأوّل: لمّا كانت واو العطف موجودة استغنت عن ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مرّةً بعد مرّةٍ.

الثاني: طلباً للإيجاز، بعد إذ عرفت.

أمّا معاني المفردات:

فظلمها: جمع ظلمّة، واستعيرت للجهالة هنا لكمال المناسبة بين أنار وظلم.

والبهم: مشكلات الأمور ومبهماتها، ومادّة بهم: تنبئ عن معنى الإغلاق والإخفاء وعدم البيان[٢].

وجلّى: بمعنى أوضح، ومنه قوله في الحديث الشريف: (المسواك مجلاة

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٣، ١٦٤.

(٢) اللمعة البيضاء: ٤٥٨.

البصر)[١].

والغمم: الأمر الملتبس، ومنه: ﴿لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾[٢].

والغرابة والعماية وإن ارجعهما اللغويون إلى معنى متّحد، لكن صوناً للحديث عن التكرار يجب أن نختار ما يناسب سياق الخطبة الشريفة، فتكون الغواية بمعنى الجهالة والعماية، بمعنى: الضلالة. والأمر سهلٌ.

معنى قولها عليها السلام: «ثُمَّ قَبَضَهُ اَللَّهُ إِلَيْهِ قَبْضَ رَأْفَةٍ وَ اِخْتِيَارٍ، وَرَغْبَةٍ وَ إِيْثَارٍ، فَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ تَعَبِ هَذِهِ اَلدَّارِ فِي رَاحَةٍ، قَدْ حُفَّ بِالْمَلاَئِكَةِ اَلْأَبْرَارِ، وَرِضْوَانِ اَلرَّبِّ اَلْغَفَّارِ، وَمُجَاوَرَةِ اَلْمَلِكِ اَلْجَبَّارِ، صَلَّى اَللَّهُ عَلَى أَبِي نَبِيِّهِ، وَأَمِينِهِ، وَخِيَرَتِهِ مِنَ اَلْخَلْقِ وَصَفِيِّهِ، وَاَلسَّلاَمُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اَللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ».

قال العلّامة المجلسي: اختيار: أي من الله له ما هو خير له، أو باختيار منه صلى الله عليه وآله وسلم ورضا، وكذا الإيثار، والأوّل أظهر فيها[٣].

فيما زاد عليه السيّد شبر: كما ورد في الأخبار: أنَّه لا يقبض المؤمن الّا برضاء منه واختيار...[٤].

وحاول الشريعتمداري التفصيل، فقال: لا يبعد أن يكون الأظهر في الجملة الأولى، المعنى الأوّل بقرينة رأفة، وفي الجملة الثانية، المعنى الثاني بقرينة رغبة، بل

---

(١) الخصال: ٤٨١.

(٢) سورة يونس، الآية: ٧١.

(٣) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٤.

(٤) كشف المحجّة: ٥٥.

لعل هذا هو المتعيّن، فانّ الرأفة ههنا من الله، والرغبة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [١].

وفي الجميع نظرٌ:

أمّا قول العلّامة: فلأنّا لا نحتمل سوى الأوّل، إذ الاختيار معطوف على الرأفة التي بينها وبين القبض معنى الإضافة، فلا يكون الايمان إلاّ بمعنى واحد، لما بينهما من التعاطف الظاهر في المساواة، فلا يكون قولك مستنداً على شيءٍ إطلاقاً، إذ لو كان كما احتمله لعبّرت عليها السلام بـ (منه) إشعاراً بالفرق بين القبض والاختيار.

أمّا ما يرد على السيّد شبر – إضافة إلى ما أوردناه على العلّامة – فنقول: على تقدير صحّة سند الرواية، يقال: إنَّها معارضة بأخبار آخر مفادها ينافي هذه، ولعلّه لهذا السبب استظهر الأوّل.

أمّا ما قاله الشيخ شريعتمداري فيرد عليه: أنّه تحكيم محضٌ، إضافة إلى أنَّ واو العطف التي تفصل بين الجملتين تمنعه.

فإن قلت: إنَّ الواو للاستيناف.

قلت: إذا كان كذلك فتستأنف كلّ ما مضى مبتدأةً من جديدٍ، ولا أحسبه يتفوّه بذلك.

هذا، ويحسن بنا أن نشير إلى مطلبين مهمّين:

الأوّل: اختلاف نسخ الخطبة في المقطع المتقدّم.

فقد روى أحمد بن أبي طاهر بن طيفور: "ثمّ قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم قبض رأفةٍ واختيارٍ، رغبةً بأبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الدار، موضوع عنه العبء والأوزار، محتف بالملائكة الأبرار، ومجاورة الملك الجبّار، ورضوان الربّ الغفار، صلى الله على

(١) الزهراء وخطبة فدك: ٥٤.

محمّد نبيّ الرحمة، وأمينه على وحيه، وصفيّه من الخلائق، ورضيه ﷺ ورحمة الله وبركاته"[١].

وقد روى الأربلي: "ثم قبضه الله إليه قبض رأفةٍ واختيارٍ، رغبة بمحمّدٍ ﷺ عن تعب هذه الدار، موضوعاً عنه أعباء الأوزار، محفوفاً بالملائكة الأبرار، ورضوان الربّ الغفار، وجوار الملك الجبار، فصلى الله عليه أمينه على الوحي، وخيرته من الخلق، ورضّيه عليه السلام ورحمة الله وبركاته"[٢].

وما عن أبي محمد المنصور: ثم قبضه الله ﷻ قبض رأفة ورحمة، واختيار ورغبة، به عن تعب هذه الدار، موضوعاً عنه الأوزار، محفوفاً بالملائكة الأبرار، ورضوان ربّ غفّار، في جوار ملك جبّار، صلى الله عليه وعلى آله الأخيار[٣].

وعن جمال الدين: ثم قبضه الله ﷻ إليه قبض رأفة واختيار، وتكرمة وهبٍّ، ونقله عن تعب هذه الدار، موضوعاً عن عنقه الأوزار، مخلداً في دار القرار، محتفاً به الملائكة الأبرار، في مجاورة الملك الجبار، رضوانه عليه وعلى أهل بيته الأخيار، وصلى الله على نبيه وعلى امينه على وحيه، وصفيه من الخلائق وسلّم كثيراً[٤].

وقد روى محمد بن جرير: ثم قبضه الله إليه قبض رأفة ورحمة، واخيار ورغبة، بمحمدٍ عن تعب هذه الدار، موضوعاً عنه أعباء الأوزار، محفوفاً بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبّار، أمينه على الوحي، وصفيه ورضيه

---

(١) خطب سيّدة النساء فاطمة الزهراء مصادرها وأسانيدها: ١٢٨.

(٢) خطب سيّدة النساء فاطمة الزهراء مصادرها وأسانيدها: ١٣٨.

(٣) المصدر السابق: ١٧٨.

(٤) المصدر السابق: ١٨٨.

وخيرته من خلقه ونجيه، فعليه الصلاة والسلام ورحمة الله وبركاته[١].

الثاني: كان ينبغي على شرّاح الخطبة الشريفة الإلتزام بمتن رواية الاحتجاج، لا أن ينقلوا –كما فعل العلّامة التبريزي والسيّد شبر– بعضاً من هنا، وبعضاً من هناك، خصوصاً إذا قالوا: إ ذا عرفت هذا، فنقول: روى الشيخ أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي في كتاب الاحتجاج[٢]، والحال أنّه قد نقل غير عباراته أو روايته.

وممّا يهوّن الخطب أنّ الشرّاح ذكروا: ونشير في الجملة إلى مواضع الاختلاف من الروايات الأُخر.

اقول: نعم، لو ذكروا متن الخطبة من رواية الطبرسي لهان الأمر، إلّا أنّهم ذكروها مبعّضةً، كما ستشهده كثيراً.

مخاطبتها عليها السلام لعامة الناس

ثُمَّ اِلْتَفَتَتْ إِلَى أَهْلِ اَلْمَجْلِسِ وَقَالَتْ: «أَنْتُمْ -عِبَادَ اَللَّهِ- نُصْبُ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَمَلَةُ دِينِهِ وَوَحْيِهِ وَأُمَنَاءُ اَللَّهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَبُلَغَاؤُهُ إِلَى اَلْأُمَمِ، زَعِيمُ حَقٍّ لَهُ فِيكُمْ، وَعَهْدٌ قَدَّمَهُ إِلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ اِسْتَخْلَفَهَا عَلَيْكُمْ: كِتَابُ اَللَّهِ اَلنَّاطِقُ، وَاَلْقُرْآنُ اَلصَّادِقُ، وَاَلنُّورُ اَلسَّاطِعُ، وَاَلضِّيَاءُ اَللاَّمِعُ، بَيِّنَةٌ بَصَائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرَائِرُهُ، مُنْجَلِيَةٌ ظَوَاهِرُهُ مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْيَاعُهُ، قَائِداً [قَائِدٌ] إِلَى اَلرِّضْوَانِ أَتْبَاعُهُ، مُؤَدٍّ إِلَى اَلنَّجَاةِ اِسْتِمَاعُهُ»

تقدّم أنّ المجلس كان عبارةً عن المهاجرين والأنصار وغيرهم، ممّا دعانا أن

---

(١) المصدر السابق: ١٦٨.

(٢) اللمعة البيضاء: ٣٢٧.

نحتمل فيه ما تقدّم[١]، لكن هنا يبدو أنَّ الخطاب كان خاصّاً بالمسلمين، وعليه عدّة قرائن: أقّلها خطابها للمسلمين الذي سيأتيك لاحقاً.

وقولها[٢]: عباد الله، قال فيه العلّامة التبريزي: منادى مضاف حذف منه حرف النداء أي يا عباد الله، و(أنتم) مبتدأ و(نصب) خبره، وإقحام النداء بين الخبر والمبتدأ إشارة إلى الحرص على التنبيه، وانّ المطلب الملقى اليهم أمر خطير لابدّ أن ينبّه المخاطب عليه لئلا يذهب عليه ولا يفوت عنه من جهة الاشتباه والغفلة.

وحذف حرف النداء تنبيه آخر على انّ المطلب مهمّ، فليلاحظ حتى لا يفوت بطول النداء، وهذه النكتة اعتبرت في لفظ عباد الله بخصوصه غالباً في الخطب الواردة عن الأئمة عليهم السلام، كقولهم: «أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى الله»، «أُوصِيكُمْ عِبادَ الله بِالرَّفْضِ لِهذهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، وَالْمُبْلِيَةِ لِأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا» إلى غير ذلك من خطب نهج البلاغة وغيرها[٣].

أقول: لم يعيّن الأمر الخطير الذي أرادت عليها السلام إفادته، وهو مذكورٌ في خطبتها المنيفة، ألا وهو البقيّة التي إستخلفها فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والبقيّة هي القرآن الصامت الذي يفسره القرآن الناطق، وهو عليٌّ عليه السلام الموصوف بالنور الساطع، والضياء اللامع، المبيّنة بصائره، المنكشفة سرائره، المنجليّة ظواهره، المغتبطة به أشياعه، القائد إلى الرضوان اتّباعه، المؤدّي إلى النجاة استماعه.

وزعم العلّامة التبريزي: أنّ المراد من كتاب الله الناطق هنا: هو القرآن الصادق،

---

(١) راجع الصفحة: ٢٣، ٢٤.

(٢) اللمعة البيضاء: ٤٩٧.

(٣) المصدر السابق: ٤٩٧.

وإن كان قد يطلق كتاب الله الناطق على عليعليه السلام، أو على مطلق العترة، بجعل القرآن كتابا صامتا، وهو هنا وإن كان صحيحا في نفسه ولكن الظاهر بقرينة الكلمات الآتية هو الصامت، ولا ينافيه الوصف بالناطق، فإن الصامت أيضا ناطق بالأحكام، وفيه تبيان كلّ شيء من الحلال والحرام، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين من علوم الأولين والآخرين، وإن حجب عن فوائده الشريفة الواضحة، ودلائله الساطعة اللامعة من ختم على سمعه وقلبه، وجعل غشاوة على بصره[1].

ويرد عليه:

أوّلاً: إنَّ الكلمات الآتية قرينةً على الإمام عليٍّعليه السلام، فكتاب الله من دون العترة لا نفع به أصلاً، ولذا ورد عنهعليه السلام: «لا تُخاصِمْهم بالقُرآن، فإنّ القُرْآن حمّالُ ذو وجوه»[2]، فلم يكن كتاب الله منكشفةً سرائره ومنجليّةً ظواهره.

ثانياً: قولك: فيه تبيان كلّ شيء من الحلال والحرام وهمٌ، إذ في القرآن جملةٌ من الأحكام التي إذا ضمّت إليها السنة الشريفة باتت واضحةً جليّةً، ومن دون هذا الانضمام لا ينفع القرآن، ولا يحسن الاتكاء عليه تشريعاً.

ثالثاً: كيف قلت: إنَّه صامت وناطق أيضاً، إذ جمعتهما تحت: (ولا ينافيه الوصف بالناطق فإنَّ الصامت ناطق بالأحكام أيضاً). وهذا من دون بيان قد يقال: إنَّه جمع بين ضدّين؟.

---

(١) اللمعة البيضاء: ٥٠٧.

(٢) نهج البلاغة: ٤٦٠.

معنى قولها عليها السلام: «بِهِ تُنَالُ حُجَجُ اللَّهِ الْمُنَوَّرَةُ، وَعَزَائِمُهُ الْمُفَسَّرَةُ، وَمَحَارِمُهُ الْمُحَذَّرَةُ، وَبَيِّنَاتُهُ الْجَالِيَةُ، وَبَرَاهِينُهُ الْكَافِيَةُ، وَفَضَائِلُهُ الْمَنْدُوبَةُ، وَرُخَصُهُ الْمَوْهُوبَةُ، وَشَرَائِعُهُ الْمَكْتُوبَةُ».

قد عرفت ما في شرَّح العلامة، وكيف حمل كتاب الله الناطق على القرآن الكريم؟ فصار مجبراً، وانحسرت كلماته بعود الضمير إلى القرآن، وهو فعلاً ما وقع منه، فقال: والضمير فيه للقرآن[1].

إلّا أنّنا قد نفينا مقالته، وذهبنا إلى إرادتها عليها السلام القرآن الكريم والإمام عليّاً عليه السلام،، بل قلنا: إنّها سردت الأوصاف جميعها، وكان المتّصف بها أمير المؤمنين عليه السلام.

فما هو المقصود من مرجع الضمير؟

لو كان المقصود به القرآن وحده لمّا كانت فائدة من الإمام عليه السلام، بعد أنْ ذكرت كلّ هذه النعوت والأوصاف.

ولو كان المقصود به عليّاً عليه السلام فيكون كلا الأمرين داخلاً في مرادها الفعلي، فعليٌّ (عليه السلام) قرآن ناطق ولديه قرآن صامت مفسَّر به، مع أنّه صامت للناس، وعليٌّ يستنطقه حيث يعرف متشابهه ومحكمه، ومجمله ومبيّنه، وخاصّه من عامّه، كما يعرف من نزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم، وما أحاطت بهما كلّ ظروف التنزيل، بل ويعرف تأويله كاملاً.

وهذا المعنى مستفاد من بعض الروايات، كرواية: سمعته يقول: عليٌّ مع الحقّ والحقّ معه، وهو الإمام والخليفة بعدي، يقاتل على التأويل، كما قاتلت على

(١) اللّمعة البيضاء: ٥٢٧.

التنزيل[١].

بل لا يمكن أن تكون قاصدةً غير الإمام عليٍّ؛ لأنّها قالت: وعزائمه المفسّرة ومحارمه المحذّرة، فلو كانت تريد بالمفسّرة والمحذّرة القرآن لواجهت المشكل حينئذٍ، إذ يقال: من الذي يفسّره؟ ومن الذي يحذّر من محارمه؟

فإن قلت: إنّما بيّنته كذلك ليقوم من يقوم لتفسيره.

قلنا: إنّما هذا رجوع من كونه فيصلاً صادعاً بالحقّ إلى الاختلاف بين الآراء النابعة في الأعمّ الأغلب من عقيدتنا الخاصّة التي ذهبت بالقرآن إلى مكانٍ بعيدٍ.

وإن قلت: المراد به العترة الهادية.

قلت: وصلنا إلى مطلوبنا، ولله الحمد.

وعلى كلّ حال قصدت بالضمير علياً (عليه السلام)، حيث يقوم بتفسير حجّج الله المنورّة المودعة في القرآن الكريم.

كلامها عليها السلام في الحكمة من تشريع الأحكام الإلهيّة والرسالات السماويّة

معنى قولها عليها السلام: «فَجَعَلَ اَللَّهُ اَلْإِيمَانَ: تَطْهِيراً لَكُمْ مِنَ اَلشِّرْكِ».

ذكرها عليها السلام لفروع الدين

يمكن أن يراد منه الإيمان الذي يقتضي توحيده خالصاً دون أن يشوبه شيء من الشرك، وهو وإن كان محذوف المتعلّق، مدلولاً به على العموم، إلّا أنّها عليها السلام ذكرت بعده كثيراً من الفروع، وبعضاً من الأصول.

---

(١) بحار الأنوار ٣٦: ٣٤٢.

كذكرها للصلاة والصيام والزكاة والأمر بالمعروف والحجّ وغير ذلك، وذكرها للأصول غير التوحيد، إذ يمكن استفادته من قولهاعليها السلام: «وَطَاعَتَنَا نِظَاماً لِلْمِلَّةِ» حيث قصدتعليها السلام بطاعتنا إطاعة رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الحججعليهم السلام، وهو مؤيّدٌ بقولها بعد ذلك مباشرةً: «وَإِمَامَتَنَا أَمَاناً لِلْفُرْقَةِ».

فتكون مريدة للنبوّة والإمامة معاً بقوليها. نعم، أشارتعليها السلام إلى الإمامة مرّتين، ولا بأس بذلك.

ومنه تعرف: أنَّ ما ذهب إليه الشيخ شريعتمداري غير صحيح، إذ قال: ويمكن أن يكون المراد منه الإيمان برسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم ، فانّه هو الذي طهّرهم من الشرك وهداهم إلى التوحيد والمعرفة الصحيحة لله تعالى، والّا كان العرب قبله مؤمنين بالله مشركين به، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1] [2].

وقولنا: "غير صحيحٍ" ليس لما قلناه ثانياً، بل لأنَّ الإيمان أدلّ على العموم منه إلى التخصيص، فتخصيصه بالرسول بلا مخصّص، كما هو واضحٌ.

معنى قولهاعليها السلام: «وَالصَّلَاةَ تَنْزِيهاً لَكُمْ عَنِ الْكِبْرِ».

الظاهر أنّهاعليها السلام أرادت ما يحقّق معنى الصلاة لدى العبد، ولم ترد كونها صلاةً صحيحةً تامّة للأجزاء والشرائط، خلافاً للعلّامة التبريزي[3].

والدليل عليه قولهاعليها السلام: «تَنْزِيهاً لَكُمْ عَنِ الْكِبْرِ»، إذ في أفعال الصلاة ما يوجب

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

(٢) الزهراء وخطبة فدك: ٦٣.

(٣) اللّمعة البيضاء: ٥٤٤.

على العبد صغرٌ في نفسه التي أهمّها الركوع والسجود والوقوع بين يدي الله متطهّراً من كلّ دنسٍ، وكلّ ذلك يستدعي عدم الغرور والتكبر والتفكير في مقامك أيّها العبد، وأنت ماثلٌ بين يدي الجبار.

هذا، وقد عالجت الشريعة هذا الداء بمختلف الأدواء، فمّما ورد في علاجه:

قَالَ صلى الله عليه وآله: «وَكَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ»؟ قَالَ: أَجِدُهُ عَارِفاً بِالْحَقِّ مُطْمَئِنّاً إِلَيْهِ، قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ بِالْكِبْرِ، وَلَكِنَّ الْكِبْرَ أَنْ تَتْرُكَ الْحَقَّ وَ تَتَجَاوَزَهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَتَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ وَلاَ تَرَى أَنَّ أَحَداً عِرْضُهُ كَعِرْضِكَ، وَلاَ دَمُهُ كَدَمِكَ».

«يَا أَبَا ذَرٍّ أَكْثَرُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ الْمُتَكَبِّرُونَ»، وَقَالَ رَجُلٌ: وَهَلْ يَنْجُو مِنَ الْكِبْرِ أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، مَنْ لَبِسَ الصُّوفَ، وَرَكِبَ الْحِمَارَ، وَحَلَبَ الْمَعْزَ، وَجَالَسَ الْمَسَاكِينَ، يَا أَبَا ذَرٍّ مَنْ حَمَلَ بِضَاعَتَهُ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الْكِبْرِ -يَعْنِي مَا يَشْتَرِي مِنَ السُّوقِ- أَبَا ذَرٍّ مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَا أَبَا ذَرٍّ مَنْ رَفَعَ ذَيْلَهُ، وَخَصَفَ نَعْلَهُ، وَعَفَّرَ وَجْهَهُ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الْكِبْرِ»[1].

بل جاء في الخبر: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنَ الْكِبْرِ»[2].

ومثل هذه الروايات قد يتصوّر قاريها أنّها لم تعط علاجاً للكبر.

فنقول: الملاحظ في تينك الروايتين التأكيد على نوع المرض ووجوب تلافيه، وهو علاج للكبر من دون دواء، ولعلّه من دون رجعة إليه مرّةً أخرى.

وقد ذكرت مولاتنا فاطمة عليها السلام علاجاً من علاجات الكبر، وهو الصلاة لما فيها

---

(١) اللّمعة البيضاء: ٥٤٦.

(٢) المصدر السابق: ٥٤٦.

من الخضوع والخنوع لله تعالى.

وهنا يجدر بنا نقل حديث العلّامة التبريزي، إذ قال: وقد يجعل أكبر صفة مشبهة بمعنى الكبير، ومنه قولنا في الصلاة وغيرها: (الله أكبر).

وقال النحاة: معناه الله أكبر من كل شيء، وظاهرهم كونه هنا أفعل التفضيل، وفي الخبر النهي عنه، وانه يستلزم كون الأشياء حينئذ كبيرة أيضاً، مشاركة لله تعالى في الكبر والعظمة الا ان الله تعالى أكثر كبراً، وليس كذلك بل المعنى هنا: ان الله أكبر من أن يوصف، كما ورد في الخبر عن الصادق عليه السلام [1].

معنى قولها عليها السلام: «وَالزَّكَاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ وَنَمَاءً فِي الرِّزْقِ».

ذكر ههنا العلّامة شبّر أسرار الزكاة، فقال: منها: التطهير من صفة البخل، كما أشارت إليه عليها السلام، فإنّه من المهلكات، كما قال النبي صلى الله عليه وآله: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه»، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ [2]، وإنما تزول صفة البخل بعود البذل، حتّى يكون محبوباً، وتقهر النفس على مفارقة الشحّ.

ومنها: شكر النعمة، الموجب للنمو والزيادة، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [3]، فإنّ نعم الله على العبد في النفس والمال، فالعبادات البدنيّة شكر نعمة البدن، والماليّة شكر نعمة المال، وقد أشارت عليها السلام إليها بالنماء.

---

(١) اللّمعة البيضاء: ٥٤٤، ٥٤٥.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

ومنها: إثبات التوحيد، ووحدة المعبود، شرط تمام الوفاء بذلك أن لا يبقى للموحّد محبوب سوى الواحد الأحد الفرد، فإنّ المحبّة لا تقبل الشركة، والتوحيد باللسان قليل الجدوى، وإنّما يمتحن [العبد في] درجة الحبّ بمفارقة المحبوبات، والأموال محبوبة عند الخلق، فامتحنوا ببذل المال الذي هو معشوقهم[1].

وفيه: إنّه لا معيّن أن يكون التطهير من صفة البخل لما في الحذف، وقد أشرنا إلى ذلك مراراً فلا نعيد. وعليه: قد تكون الزكاة تزكية للنفّس من البخل، وقد تكون من غير البخل.

فقد ورد عن الصادق عليه السلام: «إِنَّمَا وُضِعَتِ الزَّكَاةُ اخْتِبَاراً لِلْأَغْنِيَاءِ وَمَعُونَةً لِلْفُقَرَاءِ وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ أَدَّوْا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ مَا بَقِيَ مُسْلِمٌ فَقِيراً مُحْتَاجاً وَلَاسْتَغْنَى بِمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ وَإِنَّ النَّاسَ مَا افْتَقَرُوا وَلَا احْتَاجُوا وَلَا جَاعُوا وَلَا عَرُوا إِلَّا بِذُنُوبِ الْأَغْنِيَاءِ وَحَقِيقٌ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَمْنَعَ رَحْمَتَهُ مَنْ مَنَعَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ وَأُقْسِمُ بِالَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ وَبَسَطَ الرِّزْقَ أَنَّهُ مَا ضَاعَ مَالٌ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ إِلَّا بِتَرْكِ الزَّكَاةِ، وَمَا صِيدَ صَيْدٌ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ إِلَّا بِتَرْكِهِ التَّسْبِيحَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَأَنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَسْخَاهُمْ كَفّاً، وَأَسْخَى النَّاسِ مَنْ أَدَّى زَكَاةَ مَالِهِ وَلَمْ يَبْخَلْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا افْتَرَضَ اللَّهُ لَهُمْ فِي مَالِهِ»[2].

وما عن الرضا عليه السلام: «أَنَّ عِلَّةَ الزَّكَاةِ مِنْ أَجْلِ قُوتِ الْفُقَرَاءِ، وَتَحْصِينِ أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَلَّفَ أَهْلَ الصِّحَّةِ الْقِيَامَ بِشَأْنِ أَهْلِ الزَّمَانَةِ وَ الْبَلْوَى، كَمَا

(١) كشف المحجّة: ٦١، ٦٢.

(٢) وسائل الشيعة ٩: ١٢، باب ١ من أبواب وجوب الزكاة، الحديث: ٦.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوٰالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ[١] فِي أَمْوَالِكُمْ إِخْرَاجُ الزَّكَاةِ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ تَوْطِينُ الْأَنْفُسِ عَلَى الصَّبْرِ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَدَاءِ شُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالطَّمَعِ فِي الزِّيَادَةِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الزِّيَارَةِ وَالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ لِأَهْلِ الضَّعْفِ وَالْعَطْفِ عَلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْحَثِّ لَهُمْ عَلَى الْمُوَاسَاةِ، وَتَقْوِيَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَعُونَةِ عَلَى أَمْرِ الدِّينِ، وَهُوَ عِظَةٌ لِأَهْلِ الْغِنَى وَعِبْرَةٌ لَهُمْ لِيَسْتَدِلُّوا عَلَى فَقْرِ الْآخِرَةِ بِهِمْ، وَمَا لَهُمْ مِنَ الْحَثِّ فِي ذَلِكَ عَلَى الشُّكْرِ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَا خَوَّلَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ وَالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالْخَوْفِ مِنْ أَنْ يَصِيرُوا مِثْلَهُمْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ فِي أَدَاءِ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَاصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ»[٢].

وما عن الباقر عليه السلام قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ»[٣].

وكلّ ذلك يؤكّد أنّها ذكرت الأمرين لا على سبيل الحصر.

معنى قولها عليها السلام: «وَالصِّيَامَ تَثْبِيتاً لِلْإِخْلَاصِ».

إنَّ أظهر مظاهر الخلوص هو الصيام، حتّى جاء في الحديث: «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجَازِي عليهِ» وذلك؛ لأنّه موجب لضعف القوى البدنيّة، وكسر شهوات النفّس، وهو الباعث على تصفية النفس وتطهيرها وتخليتها من هواجس الذنوب.

وهو الجهاد الأكبر، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم ما مضمونه: إنَّ الجهاد الأكبر هو جهاد

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٢) وسائل الشيعة ٩: ١٢، باب ١ من أبواب وجوب الزكاة، الحديث: ٧.

(٣) المصدر السابق ٩: ١٤، ١٥، باب ١ من أبواب وجوب الزكاة، الحديث: ١٤.

النفس[١][٢].

وللصيام فلسفةٌ هي تربية الإنسان على الإخلاص في نفسه لله تعالى، لأنّه في حقيقته أمرٌ نفسيٌّ يقتضي الامتناع عن أمورٍ، منها: ما هو مباح في حالات غير الصوم.

فإذا عاش الإنسان حالة الامتناع الاختياري بينه وبين الله، حيث يمكن أن يمارس تلك الممنوعات بعيداً عن أعين الناس، لكنّه مع إمكان ذلك تراه يعيش حالةً من الشعور الداخلي برقابة الله تعالى له وامتناعه عن المحرّمات التي اتصفت بالحرمة لكونه صائماً، فعند ذلك يتأكّد الإخلاص في نفسه، ويثبت في قلبه ويصبح عنصراً أساسياً في كل فعل وترك[٣].

معنى قولها عليها السلام: «وَالْحَجَّ تَشْيِيداً لِلدِّينِ».

أولت الشريعة الإسلاميّة الاهتمام البالغ بالحجّ وأعطته قيمةً عليا لما فيه من أبعادٍ فرديّةٍ واجتماعيّةٍ ظاهرةٍ.

فيكون الحاجّ على اتّصال بالوافدين إلى البقعة المباركة من مختلف بلاد الله فيتعرّف عليهم، وعلى ما يعانونه، وما هو مقدار ثقافتهم، ومستويات تفكيرهم، فيحصل بذلك على ثقافة الشعوب، ويلّم بتأريخهم، ويعيش معاناتهم. هذا هو الجانب الفردي الذي لم ترده الزهراء.

أمّا الجانب الآخر فإنَّ الحجّ يشكلّ تجمّعاً هائلاً من المسلمين على اختلاف

---

(١) شرح خطبة الصدّيقة فاطمة الزهراء: ١٧٥.

(٢) الكافي ٥: ١٢، باب وجوب الجهاد، الحديث: ٣.

(٣) اشراقات فكريّة من أنوار الخطبة الفدكيّة ٢: ٧٦ بتصرّف.

طبقاتهم وألوانهم وعجمتهم ورئيسهم ومرؤوسهم، وفي ذلك تشييدٌ للدين وإبراز لأعظم معالمه.

وقد أكّد الإمام الصادق عليه السلام على دور الحجّ في الإسلام، فقال: «إِنَّ اَللَّهَ خَلَقَ اَلْخَلْقَ إِلَى أَنْ قَالَ: وَأَمَرَهُمْ بِمَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ اَلطَّاعَةِ فِي اَلدِّينِ وَمَصْلَحَتِهِمْ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُمْ فَجَعَلَ فِيهِ اَلِاجْتِمَاعَ مِنَ اَلشَّرْقِ وَاَلْغَرْبِ لِيَتَعَارَفُوا وَلِيَنْزِعَ كُلُّ قَوْمٍ مِنَ اَلتِّجَارَاتِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَلِيَنْتَفِعَ بِذَلِكَ اَلْمُكَارِي وَاَلْجَمَّالُ وَلِتُعْرَفَ آثَارُ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ تُعْرَفَ أَخْبَارُهُ وَيُذْكَرَ وَلاَ يُنْسَى وَلَوْ كَانَ كُلُّ قَوْمٍ إِنَّمَا يَتَّكِلُونَ عَلَى بِلاَدِهِمْ وَمَا فِيهَا هَلَكُوا وَخَرِبَتِ اَلْبِلاَدُ وَسَقَطَتِ اَلْجَلَبُ وَاَلْأَرْبَاحُ وَعَمِيَتِ اَلْأَخْبَارُ وَلَمْ تَقِفُوا عَلَى ذَلِكَ فَذَلِكَ عِلَّةُ اَلْحَجِّ»[1].

بل أكدّ الأئمة عليهم السلام على وجوبه، فقد ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «لَوْ عَطَّلُوهُ سَنَةً وَاحِدَةً لَمْ يُنَاظَرُوا»[2].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «لاَ يَزَالُ اَلدِّينُ قَائِماً مَا قَامَتِ اَلْكَعْبَةُ»[3].

ولم تتكلّم السيّدة فاطمة عليها السلام عن وجوب الحجّ المشروط بالاستطاعة، لأنّ جلّ همّها إثبات ما للحجّ من صفة التشيّد للدين والرفعة للإسلام.

ومعنى التشييد: الإحكام.

ففي الإحكام معنى القوّة والرفعة، وهما لا يحصلان إلّا بموقف الحجّ وأشباهه.

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ١٤، باب ١، من أبواب وجوب الحج على كل مستطيع، الحديث: ١٨.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٤١٩، باب ترك الحج، الحديث: ٢٨٦٠.

(٣) الكافي ٤: ٢٧١، باب أنّه لو ترك الناس الحج لجاءهم العذاب، الحديث: ٤.

معنى قولها عليها السلام: «وَالْعَدْلَ تَنْسِيقاً لِلْقُلُوبِ».

هنا مطلبان:

الأوّل: في معنى العدل.

الثاني: لماذا أُقحم العدل بين الفروع؟

أمّا الأوّل فمعناه مطلق الاعتدال في أمور الدين والدنيا، والمراد هنا: الاعتدال في أمور الدين، كما ذهب إليه العلّامة التبريزي[1].

أقول: لا معنى للتفصيل المزبور، إذ إنّ أمور الدنيا كلّها تستتبع أحكاماً دينيّة، فيجب العدل فيها أو يستحب، ثمّ ليس بصحيح أن يكون العدل دالّاً على القسمين، ثُمّ يأخذ بتخصيصه بأمور الدين، بلا أيّة قرينة على هذا التخصيص.

بل لا معنى لما ذكره صاحب الإشراقات من كون العدل أصلاً من الأصول تمهيداً للعدل الاجتماعي؛ إذ السيّدة عليها السلام غير ناظرة إلى العدل الإلهي الذي يكون أصلاً من أصول الدين، بقرينة قولها عليها السلام: «جعل لكم» وعطفت سائر الأمور عليه.

فهي عليها السلام تتكلّم عن العدل الفردي والمجتمعي بالدنيا الذي هو مقترنٌ بأحكامٍ دينيّةٍ فقهيّة، ومآل تطبيق هذا العدل تنسيق القلوب وانتظامها على طاعة الله ورسوله.

أمّا الثاني فقد قال فيه العلّامة: وذكر العدل هنا بعد الحجّ مع عدم مناسبته لاقحامه بين الفروع، إنّما هو من جهة أنّ المراد بالعدل هنا في المعنى هو الميل إلى أئمة الهدى الموجب لانتظام القلوب واعتدالها في الاعتقاد، وهو انما يحصل بالقول بأئمة الهدى، والوصول والتشرّف إلى خدمة سادات الورى عليهم السلام، وذلك إنما كان يحصل في ضمن الحجّ، كما ظهر مما أشير إليه في كون الحج تشييداً للدين من

(١) اللّمعة البيضاء: ٥٥٣.

دلالة بعض الأخبار على أن أصل تشريع الحجّ، انما كان للتشرّف بخدمة أئمة الدين عليهم السلام، إذ عند ذلك تنتسق القلوب، وتعتدل في الطريقة المستقيمة ولا تتخلف عن جادّة الحقيقة، فيحصل من القلوب حينئذ الطاعة للأئمّة عليهم السلام لما يرى منهم ما يوجب القول بولاية الأئمة، وان بيدهم الخلافة الكبرى الدينية والدنيوية.

وهذه الاطاعة نظام للملّة، إذ بها تنتظم أمور أهل الملّة، وإلّا فتتشتت القلوب بالأهواء المختلفة إلى أئمة الضلال الذين يدعون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون، فيتيهون في أودية الحيرة والجهالة بخلاف إمامة أئمة الهدى، فإنّه أمان للناس من الفُرقة –بضمّ الفاء– إسماً من فارقته مفارقة وفراقاً أي الإفتراق في بوادي الغابة[1].

ونحن لا نوافقه على الإقحام، فأنت إذا نظرت إلى مقالتها تجدها ذاكرةً ما عوائده فرديّة كالصلاة والصيام، وما عوائده مجتمعيّة كالحجّ والعدل والنبوّة والإمامة.

ثُمَّ ذكرت حقَّ بعضٍ على بعضٍ كحقوق الوالدين وصلّة الأرحام والقصاص، ثُمَّ ختمت بإخلاص الربوبيّة لله تعالى كما ابتدأت به.

نعم، نحن لا ندّعي الجزم لوجود بعض الفقرات في الخطبة الشريفة التي لا تقبل أن تنزل المنازل التي ذكرناها، إلّا بتأويلٍ معلومٍ حاله، كقولها عليها السلام: «وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلَى اِسْتِيجَابِ اَلْأَجْرِ»، وهو وإن كان عامّاً يشمل كلّ صبرٍ، إلّا أنّنا نحتمل جدّاً أن يكون في مقابلة الجهاد، إذ في بعض المواطن لم ينتصر المسلمون لحكمة من الحكم، فأوجب الله عليهم الصبر ليقلّبوا الأمور، وليعلموا نقاط الضعف الفرديّة والاجتماعيّة.

---

(١) اللمعة البيضاء: ٥٥٣، ٥٥٤.

ثُمّ الظاهر أنّها عليها السلام لم ترد من العدل هذا المعنى، وإلّا لما احتاجت أن تذكر النبوّة بعد هذا، وكذا الإمامة.

واتّباع الأئمّة عليهم السلام وإن كان مدلولاً عليه بواسطة مقابل العدل وهو الظلم، فإذا أراد إنسانٌ ألّا يضع كلّ أمر في مواضعه تراه يبعّد الأئمّة عن شؤونهم الدينيّة والإداريّة. وهذا هو الظلم بعينه، فضلاً عن تسنم أركان العرش والسلطة.

إلّا أنّا نبحث في المداليل المطابقيّة، ولسنا نبحث عن مداليل جائية بوسائط، فحتّى لو آمنا بما يقول، يلزم عليه ذكر المدلول المطابقي، كما هو واضحٌ.

معنى قولها عليها السلام: «وَطَاعَتَنَا نِظَاماً لِلْمِلَّةِ، وَإِمَامَتَنَا أَمَاناً لِلْفُرْقَةِ».

قلنا فيما سبق: يمكن أن تكون مشيرةً إلى طاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، وعند ذلك تدخل في الطاعة النبوّة والإمامة معاً بلا فرقٍ، حيث إنّ طاعة هؤلاء توجب النظام والانتظام في الملّة والدين، والسير على سكك الهداية والنور المبين.

ولمّا أشارت عليها السلام إلى العدل وكونه تنسيقاً للقلوب ومجمعاً للشتات الذي تنزوي فيه الأحقاد، ذكرت بعد ذلك الطاعة.

والطاعة لا تكون في نظر الإسلام الأصيل الّا لمن يستحقّها، والمستحقّ يجب عليه أن يكون عارفاً بصيراً بما كان وما يكون، إذ تمرّ عليه الأجيال، وهو بحكم الموجود فيها جميعاً.

وذلك هو العمود النوري الذي ابتدأ بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ،وسينتهي بإمامنا المهدي الموعود عليه السلام، وعندئذٍ ستسلّم الأمّة وتذعن لقيادتها الحقيقيّة التي لها الأحقّيّة، لمكان النصوص الشرعيّة.

وقولها عليها السلام: وإمامتنا أماناً من الفرقة.

عنت عليه السلام بلا بديّة وجود من يرعى هذه الأمّة ويحمل أعباءها، ولابدّ لأمةٍ عريقةٍ أن تحدّد قادتها مسبقاً، وإلّا سيقع التنازع والشتات –وهذا ما حدث فعلاً– إذ التقسيم والفرقة لا محالة واقعان، والاختلاف والتمزّق حاصلان؛ لأنَّ المقتضي موجود في العالمين، من حبٍّ للسلطة والزعامة واتّباع الهوى والشيطان وما إلى ذلك، فصار لزاماً على الله ورسوله أن يضعا مانعاً من الاقتضاء، وهم السادة النجباء عليهم السلام.

معنى قولها عليها السلام: «وَالْجِهَادَ عِزّاً لِلْإِسْلَامِ».

يبدو أنَّ العلّامة التبريزي فسّر الجهاد بمعناه الأعمّ، فقال: (الجهاد) مصدر من قولك: جاهد فلان يجاهد مجاهدة وجهاداً من الجهد – بالفتح والضم – بمعنى الوسع والطاقة، وقيل: الضم في الحجاز، والفتح في غيرهم، فالمجاهدة بذل الطاقة، وقرئ بالوجهين قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾[1].

وقال الفرّاء: الجهد –بالضم– الطاقة وبالفتح المشقة، من قولك اجهد جهدك في هذا الأمر، أي: أوقع نفسك في المشقّة، أو الجهد هنا بمعنى الغاية، أي أبلغ غايتك، وجهد دابته وأجهدها إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها.

وفي الدعاء: (أعُوذُ بِكَ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاء، وَدَرَكِ الشّقَاء، وَسُوءِ الْقَضَاء، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاء) أي: من مشقة البلاء، وفي الحديث: (المِسْكِينُ أَجْهَدُ مِنَ الفَقِير)، أي أسوء حالا منه، ويقال: جاهد في سبيل الله مجاهدة وجهادا أي بذل الوسع والمجهود بالمعنى المصدري لا المفعول فيما أمر به.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٩.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[١] أي في عبادة الله، قيل: وهو (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)، ولذلك قال (حَقَّ جِهَادِهِ)، أي: جهادا حقا كما ينبغي بجذب النفس وخلوصها عن شوائب الرياء والسمعة مع الخشوع والخضوع.

والجهاد مع النّفس الأمارة واللوامة في نصرة النّفس العاقلة المطمئنة، وهو الجهاد الأكبر، ولذا ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم انه رجع عن بعض غزواته، فقال: رجعنا من الجهاد الأصغر وبقي علينا الجهاد الأكبر، وفي الخبر: (اَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتي بَيْنَ جَنْبَيْكَ).

أيضاً: (أَفْضَلُ الْجِهَادِ جِهَادُ النَّفْسِ) وهو قهرها وبعثها على ملازمة الطاعات، ومجانبة المنهيّات ومراقبتها على مرور الأوقات، ومحاسبتها على ما ربحته وخسرته في دار المعاملة من السعادات، وكسر قوتها البهيمية والسبعيّة بالرياضات، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٣][٤].

لكن تقدّم منا قريباً: أنّها عليها السلام أرادت ما عوائده عامّةً، بقرينة ذكرها لما عوائده خاصّةً، فيكون هذا مشكّلاً للقرينة الخاصّة على كون المراد من الجهاد العامّ – المتبادر إلى الذهن أوّلاً – وهو الجهاد في سبيل الله ضدّ أعداءه.

---

(١) سورة الحجّ، الآية: ٧٨.

(٢) سورة الشمس، الآية: ٩، ١٠.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٤) اللّمعة البيضاء: ٥٥٤، ٥٥٥.

أو قل: للجهاد معنيان:

أحدهما: الجهاد الأصغر، وهو: الجهاد في سبيل الله تعالى، وهو المعنى المعروف والمتداول الذي ينصرف إليه اللفظ بمجرّده.

وثانيهما: الجهاد الأكبر، قد يذهب إليه الذهن بعد التفكّر قليلاً في معنى الجهاد.

وإذا كانت السيّدة عليها السلام قد ذكرت الجهاد بعد الحجّ والنبوّة والإمامة، فهي تريد أن تنتقل من المذكورات إلى الجهاد العامّ، حيث إنَّ جهاد النفس ومحاربتها يكون في كلّ المذكورات، فلم تدعو حاجةٌ لتأخيره، بل يمكن أن يكون قولها عليها السلام: عزّاً للإسلام قرينةً تامّة عليه.

نعم، ممارسة الجهاد الخاصّ الأكبر أيضاً تكون عوائده عامّة، لكن بعد أن يتحلّى المجاهد بها أوّلاً، سواء على مستوى العبادات أم المعاملات. ولا نظنّ أنّها أرادت ذلك.

وأمّا قولها عليها السلام: «وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلَى اِسْتِيجَابِ اَلْأَجْرِ».

فلقد مرّ الكلام فيه قريباً.

معنى قولها عليها السلام: «وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَامَّةِ».

قال السيّد عبد الله شبر: وهم خلاف الخاصّة، والجمع عوام، مثل دابّة ودواب، والهاء للتأكيد، فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة لعوامّ الناس وأكثرهم بمراتبه المعروفة، وأمّا الخواص: فهم ينتهون، ويأمرون أنفسهم ويزجرونها[1].

---

(١) كشف المحجّة: ٦٦، ٦٧.

وقال العلّامة التبريزي: والمراد من العامة في الفقرة الشريفة جميع الناس، أي الأمر بالمعروف الذي قرره الله تعالى وأوجبه مصلحة للناس جميعا، ولولا الأمر بالمعروف لاختل أمور الدين من جهة فساد الفاسقين والمفسدين من شياطين الإنس والجن، وأمور الدنيا أيضا بوقوع الاختلال بين الناس، ولم ينتظم أمر المعاش الذي هو المقدمة لأمر المعاد، وكذلك النهي عن المنكر، وفي بعض النسخ بدل الأمر بالمعروف النهي عن المنكر، وكل منهما مستلزم للآخر[1].

أقول: قد يقال: إنَّ الحق مع العلّامة، إذ لا موجب لحمل العامّة على ما يقابل الخاصّة، فإنَّ لجميع الناس طاعاتٍ وذنوباً، ولكن تخصّ بعضاً دون بعضٍ، وتناسب بعضهم دون الآخر.

نعم، يبقى فرقٌ بين قولنا عموم الناس وعامّتهم، وهذا ما يرجّح قول السيّد عبد الله.

بل يمكن أن تكون مريدةً إخراج نفسها وأهل بيتها من عامّة الناس، لأنّهم آمرون وليسوا مأمورين. لكن هذا يقرّب قول السيّد من أنّها أرادت ما يخالف الخواصّ، وإن كان يبعّد رأيه في تفسير من هم الخاصّة؟

وهل يمكن أن يكونوا داخلين في قوله: الخاصّة؟

لا يمكن جزماً، لأنّهم لا يتركون الواجبات ولا يفعلون المعاصي، فلا يأمرون أنفسهم ولا ينهونها.

---

(١) اللمعة البيضاء: ٥٦٣.

ومعنى قولها عليها السلام: «وَبرَّ اَلْوَالِدَيْنِ وِقَايَةً مِنَ اَلسُّخْطِ».

اختلف الاعلام في تحديد المراد من السخط، فمنهم من ذهب إلى احتمال كلّ من سخط الوالدين، أو سخطه تعالى، لكنّه رجّح أن يكون السخط سخطهما[١].

بينما اختار في اللمعة أن يكون السخط المعنى الثاني، واعترض كلام المجلسي: والظاهر هو الثاني، وإن سبق إلى بعض الأوهام أنّ الأوّل هو الأظهر[٢].

كما رأى الشيخ شريعتمداري نفس ما اختاره العلّامة في اللمعة، معلّلاً: فإنّ رضا الله في رضا الوالدين. ولا يخفى أنّ كل معصية موجبة لسخط الله، وكلّ طاعة موجبة لرضاه تعالى، فلعلّ خصوصيّة برّ الوالدين هي انّه موجب للوقاية عن السخط في ساير المعاصي أيضاً. فالبارّ مغفور له وإن صدر عنه الذنوب، والعاقّ مغضوب عليه من الله تعالى وان صدر عنه الطاعات[٣].

وأنت ترى عدم تبرير الأظهريّة من العلّامتين، فلا نعرف الوجه فيما ذهبا إليه. نعم، علّل الشريعتمداري بقوله المتقدّم بعد اختياره للثاني.

وفيه: إنّه لم يعط لنا سبباً واضحاً، وحجةً كافيةً للاختيار.

ولنرجع قليلاً إلى ما قالته أوّلاً: فجعل الله الإيمان لكم تطهيراً من الشرك والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، ثُمَّ تلت جملة من الأمور عطفاً على الجملة الأولى، فيكون معنى الجملة: وجعل الله برّ الوالدين وقايةً لكم من السخط، وبما أنّ سخطه تعالى مترتّب على سخطهما، فيكون السخط راجعاً إليهما، وبالتلازم راجعٌ إلى الله

---

(١) الزهراء وخطبة فدك:٦٩.

(٢) اللّمعة البيضاء: ٥٦٨.

(٣) الزهراء وخطبة فدك: ٦٩.

تعالى، وقد جعل رضاه متوقّفاً على رضاهما اهتماماً بطاعتهما، وتجنّباً سخطهما. هذا ما يمكن أن يكون تقريباً لقول المجلسي.

أمّا قول الأخيرين فيمكن تقريبه: أنَّ المراد سخطه، وإلّا لو كانت مريدة عليها السلام لسخطهما ما اكتفت بقولها: من السخط، ولأشارت له بـ (هما).

وإذا رأيت ما لزمه القول الأوّل من الترتيب والتلازم، يتّضح اختيارنا للمذهب الثاني، كما أشار له العلمان، وإن كنا قد بيّنا ما لم يبيّنوا.

معنى قولها عليها السلام: «وَصِلَةَ اَلْأَرْحَامِ مَنْسَأَةً فِي اَلْعُمُرِ وَمَنْمَاةً لِلْعَدَدِ، وَاَلْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ».

إشكال ودفع

اعلم أنَّ لوصل الرحم فوائد جمّةً لم ترد الزهراء عليها السلام ذكرها بنحو الخصوص تحفّظاً على عدم الإطالة، وخشية أن يذهب هدفها المقصود من خطبتها. نعم، هي أشارت إلى كلّ ما يمكن دخوله تحت العدد:

ومنه: زيادة الأجل.

وأيضاً: زيادة الرزق.

وأيضاً: زيادة للأهل والأقرباء.

وغيره كثيرٌ.

وممّا ورد عنهم عليهم السلام: «صِلَةُ اَلْأَرْحَامِ تُزَكِّي اَلْأَعْمَالَ وَ تُنْمِي اَلْأَمْوَالَ وَتَدْفَعُ اَلْبَلْوَى وَتُيَسِّرُ اَلْحِسَابَ وَتُنْسِئُ فِي اَلْأَجَلِ»[1].

(١) الكافي ٢: ١٥٠.

الّا أنّ بعضاً أشكل على ذلك، وقال: ...إنَّ المقدّرات في الأزل والمكتوبات في اللوح المحفوظ، لا يتغيّر بالزيادة والنقصان لاستحالة خلاف معلوم الله سبحانه، وقد سبق العلم بوجود كلّ ممكن أراد وجوده، وبعدم كلّ ممكن أراد بقاءه على حالة العدم الأصلي أو إعدامه بعد إيجاده، فكيف يمكن الحكم بزيادة العمر ونقصانه بسبب من الأسباب؟

وأجيب عنه:

أمّا أوّلاً: فبوروده على سبيل الترغيب.

وثانياً: بأنّ المراد الثناء الجميل بعد الموت، كما قال الشاعر:

ذِكْرُ الفتى عُمْرُهُ الثّاني وَحاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ العَيش أشغَالُ

وقال آخر:

مَاتُوا وَعِشْنَا فهُم عَاشُوا بِمَوْتِهِمُ وَنَحْنُ في صُوَرِ الأَحْيَاءِ أَمْوَاتُ

وثالثاً: إنّ المراد زيادة البركة في الأجل، أمّا في نفس الأجل فلا، وقال شيخنا الشهيد قدس سره في القواعد: وهذا الإشكال ليس بشيء، أمّا أوّلاً: فلوروده في كلّ ترغيب مذكور في القرآن والسنة حتّى الوعد والجنة والنعيم على الإيمان وبجواز الصراط والحور والولدان، وكذلك التوعدّات بالنيران وكيفية العذاب، لأنا نقول: إنّ الله تعالى علم ارتباط الأسباب بالمسبّبات في الأزل، وكتب في اللوح المحفوظ، فمن علمه مؤمناً فهو مؤمن أقرّ بالإيمان أو لا، بعث إليه نبيّ أو لا، ومن علمه كافراً فهو كافر على التقديرات وهذا إلزام يبطل الحكمة في بعثة الأنبياء، والأوامر الشرعية، والمناهي ومتعلّقاتها، وفي ذلك هدم الأديان.

والجواب عن الجميع واحد، وهو: إنّ الله تعالى كما علم كمّية العمر علم

ارتباطه بسببه المخصوص، وكما علم من زيد دخول الجنّة جعله مرتبطاً بأسبابه المخصوصة من إيجاده، وخلق العقل له، وبعث الأنبياء ونصب الألطاف وحسن الاختيار، والعمل بموجب الشرع، فالواجب على كلّ مكلّف الإتيان بما أمر به، ولا يتكلّ على العلم؛ فإنّه مهما صدر منه فهو المعلوم بعينه، فإذا قال الصادق: إنّ زيداً إذا وصل إلى رحمه زاد الله في عمره ثلاثين سنة ففعل، كان ذلك إخباراً بأنّ الله تعالى علم أنّ زيداً يفعل ما يصير به عمره زائداً ثلاثين سنة، كما أنّه إذا أخبر أنّ زيداً إذا قال: (لا اله إلّا الله) دخل الجنّة ففعل، تبيّن أنّ الله علم أنّه يقول ويدخل الجنة بقوله، ثُمَّ قال قدس سره: فإن قلت: كلّ هذا مسلّم، ولكن قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

قلت: الأجل صادق على كل ما يسمّى أجلاً موهبيّاً كان أو مسبّبيّاً، فيحمل ذلك على الموهبي، ويكون وقته وفاءً لحق اللفظ، ويجاب أيضاً: بأنّ الأجل عبارة عمّا يحصل عنده الموت لا محالة، سواء كان بعد العمر الموهبي أو المسبّبي، ونحن نقول كذلك؛ لأنّه عند حصول أجل الموت لا يقع التأخير وليس المراد به العمر، إذ الأجل مجرّد الوقت، وينبّه على قبول العمر الزيادة أو النقصان –بعد ما دلّت عليه الأخبار الكثيرة– قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ﴾[3] انتهى. وهو تحقيق حسن عليه مسحة من نور[1].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ١١.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١١.

معنى قولها عليها السلام: «وَالْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ».

من عرف أنّ القصاص حقّ ارتدع عن القيام بأيّ جريمة، باعتبار القصاص منه، الذي يجعله يذوق ما أذاقه للناس على تقدير فعله للجريمة، وفي هذا المقام لا بأس أن نسمعك ما قاله أهل المعاني والبيان الذين تكلموا عن قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[٢]، فقالوا: وكلام الله هذا من باب إيجاز القصر الذي ليس فيه حذف، فإن معناه كثير ولفظه يسير، لأنّ المراد به أنّ الإنسان إذا علم أنّه متى قتل قتل كان ذلك داعيا أن لا يقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، وكان ارتفاع ذلك حياة لهم. وفضل هذا الكلام ورجحانه على ما كان عندهم أوجز كلام في هذا المعنى، وهو قولهم: (القتل أنفى للقتل) بقلّة حروف ما يقابله منه، وهو قوله تعالى: ﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[٣] لأن قوله: (لكم)[٤] لا مدخل له في المقابلة. ووجه القلة: أن حروف قوله تعالى: ﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ أحد عشر إن اعتبر التنوين وإلّا فعشرة، وحروف (القتل أنفى للقتل) أربعة عشر، والمعتبر الحروف الملفوظة لا المكتوبة لأن الإيجاز انما يتعلق بالعبارة دون الكتابة، وفيه النص على المطلوب الذي هو الحياة.

وفي تنكير حياة تعظيم عظيم لمنعه عما كانوا عليه من قتل جماعة بواحد، أو التنوين للنوعيّة وهي الحياة الحاصلة للمقتول والقاتل بالارتداع من القتل لخوف

---

(١) الدرة البيضاء: ٣٩٢-٣٩٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(٤) إشارة إلى مبتدأ الآية.

القصاص، وفي القصاص حياة مطرد أيضاً، إذ الاقتصاص مطلقا سبب الحياة بخلاف القتل، إذ القتل قد يكون أدعى للقتل، وهو القتل الذي لا يكون على وجه الاقتصاص.

وليس في الآية تكرير بخلاف قولهم المذكور، وفي الآية الجمع بين المتضادّين، أي: القصاص والحياة، واشتمال القتل على الحياة أمر عجيب، إلى غير ذلك من وجوه الفضيلة التي ذكروها للآية بالنسبة إلى قولهم المذكور[1].

معنى قولها عليها السلام: «وَالْوَفَاءَ بِالنَّذْرِ تَعْرِيضاً لِلْمَغْفِرَةِ».

رشفة فقهيّة

النذر له صيغة ومتعلّق، والصيغة يشترط فيها أن تكون شكراً لله كقول القائل: إن رزقت ولداً فلله عليّ كذا، أو استدفاعاً، ونعني به: استدفاع البليّة، كقوله: إن برئ المريض فلله عليّ كذا، وقد يسمّونه نذر المجازاة، أو رجزاً ،كقوله: إن فعلتُ كذا من المحرّمات، أو إن لم افعل كذا من الطاعات فلله عليّ كذا.كما أنَّ متعلّقه الضابط فيه: ما كان طاعةً له مقدوراً للناذر[2].

ومن كلامنا حول المتعلّق تعرف ما قالته سيّدة النساء عليها السلام، فإذا نذر الناذر نذراً، وكان المنذور طاعةً يتعرّض بنفس نذره لمغفرة الله سبحانه وتعالى.

وهذا يمكن جعله في تعداد الفقرات التي قلنا فيها: أنّها تؤثّر على ما طرحناه في خصوص الإجابة عن سؤال الإقحام، فراجعه.

---

(١) اللّمعة البيضاء: ٥٧٠، ٥٧١.

(٢) انظر: المختصر النافع ٢: ١٨١، ١٨٢.

معنى قولها عليها السلام: «وَتَوْفِيَةَ الْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ تَغْيِيراً لِلْبَخْسِ».

قد أسرف الشيخ شريعتمداري عندما قال: ههنا سؤال وهو انّ توفية المكاييل هي بعينها تغيير بخس، فكيف يصحّ التعليل وهما شيء واحد؟ وبعبارة أخرى: الكلام في قوة ان يقال: جعل الله توفية المكاييل لتوفية المكاييل؛ فاتّحدت الغاية وذوها. وهذا مما يجلّ عنه كلام الصدّيقة الطاهرة عليها السلام. فماذا الجواب؟ قلت: المراد من توفية المكاييل المبالغة في أداء الحق والوفاء التامّ القطعيّ في أموال الناس من دون أن يكتفى بالوفاء التقريبي المسامحيّ، فيرجع الأمر إلى الالتزام بالفضل والزيادة حتّى يحصل القطع بالوفاء، وهذا هو الذي يحسم مادّة التطفيف والبخس[1].

وواضحٌ أنَّ قوله المتقدّم لا يدلّ عليه شيءٌ في جملة الصدّيقة، وإنّما أرادت أنَّ الله جعل لكم توفية المكائيل والموازين تغييراً للنقص الحاصل فيها الناتج من عدم الوفاء بالكيل والميزان.

كما لا وجه لحصره الوفاء بالكيل بالزيارة فيه، فيرجع إلى الالتزام بالفضل والزيادة، إنّما الوفاء بالكيل العطاء التامّ، والزيادة إنّما تكون من باب الاحتياط الناشئ من أسبابه الخاصّة.

أمّا قوله: بالوفاء التقريبي المسامحي... .

فأقول: ربما يتسامح العرف في هذه النقيصة والزيادة التي ترجع إلى الرضا.

ولا بأس به بعد ملاحظة كونه حقّاً لا حكماً.

وهذا المعنى هو الذي لاحظه الأصوليون، وأرادوا أن يقيسوا عليه وضع اسماء العبادات للأعمّ.

---

(١) الزهراء وخطبة فدك: ٧١.

قال في الكفاية: أن يكون حالها حال أسامي المقادير و الأوزان مثل المقدار و الحقّة والوزنة إلى غير ذلك، مما لا شبهة في كونها حقيقة في الزائد والناقص في الجملة، فإنّ الواضع وإن لاحظ مقداراً خاصّاً، إلّا أنّه لم يضع له بخصوصه، بل للأعمّ منه ومن الزائد والناقص، أو أنّه و إن خصّ به أوّلاً، إلّا أنّه بالاستعمال كثيراً فيهما بعناية أنّهما منه قد صار حقيقة في الأعمّ ثانياً[١].

ومنه تعرف عدم القيمة فيما قاله معلّقاً على كلام المجلسي في آخر كلامه[٢].

معنى قولها عليها السلام: «وَالنَّهْيَ عَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ تَنْزِيهاً عَنِ الرِّجْسِ».

قد يطلق الخمر ويراد به كلّ ما كان عاقبته الإسكار، ويدخل عندئذٍ فيه: النقيع والبتع والجعة والنبيذ والفضيخ، إضافة إلى الخمر الذي هو العصير العنبي، وقد يطلق ويراد منه المعنى الأخير خاصّةً.

ولا إشكال عندنا في أنَّ الخمر موضوعٌ على نحو الإطلاق الثاني، واستعمل مجازاً في سائر الشراب الذي تكون نتيجته كنتيجة الخمر، أعني: الإسكار. وقد سار على هذا الأئمّة المعصومون عليهم السلام، فقد ورد في الكافي عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ لَمْ يُحَرِّمِ الْخَمْرَ لِاسْمِهَا، وَلَكِنْ حَرَّمَهَا لِعَاقِبَتِهَا، فَمَا كَانَ عَاقِبَتُهُ عَاقِبَةَ الْخَمْرِ فَهُوَ خَمْرٌ»[٣]، وفي الخبر عن الإمام الرضا عليه السلام: «هِيَ خُمَيْرَةٌ اسْتَصْغَرَهَا

(١) كفاية الأصول: ٢٧.

(٢) الزهراء وخطبة فدك:٧٢

(٣) الكافي ٦: ٤١٢.

النَّاسُ»[١].

وقد سارت السيّدة الزهراء عليها السلام على ذلك أيضاً، فأطلقت الخمر وأرادت به مطلق المسكر، بقرينة قولها: تنزيهاً عن الرجز الذي هو بمعنى القذر الذي يجب الاجتناب عنه.

معنى قولها عليها السلام: «وَاجْتِنَابَ اَلْقَذْفِ حِجَاباً عَنِ اَللَّعْنَةِ».

جاء في البحار: أي: لعنة الله أو لعنة المقذوف أو لعنة القاذف، فيرجع إلى الوجه الأخير في السابقة، والأوّل أظهر إشارةً إلى قوله ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[٢][٣].

ويبدو أنَّ صاحب اللمعة لم يفهم مراد المجلسي، إذ فسّر اللعنة بما يلي:

المراد من اللعنة في الفقرة الشريفة لعنة الله أو لعنة القاذف والمقذوف، والأوّل أظهر، قوله تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[٤] والآخرة[٥].

فأنت تراه يجمع بين القاذف والمقذوف، بينما العلّامة المجلسي قال: أو لعنة المقذوف أو لعنة القاذف.

ويمكن أن يكون التبريزي مفيداً لقولين في اللعنة: هي لعنة الله أو لعنة

---

(١) الكافي ٦: ٤١٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٢٣.

(٣) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٧.

(٤) سورة النور، الآية: ٢٣.

(٥) اللمعة البيضاء: ٥٨٣.

القاذف والمقذوف. ويكون العلّامة المجلسي مفيداً ثلاثة أراء كما تقدّم.

واحتمالات العلّامة متصوّرة في المقام، كما أنَّ احتمال العلّامة التبريزي أيضاً.

الظاهر –بحسب الانصراف– أنَّ لعنة الله أقرب، لأنّ اللعنة المضافة إلى القاذف أو المقذوف أو كليهما بحاجة إلى قرينةٍ مساعدةٍ، وهي مفقودة في المقام. ويمكن أن يلاحظ على مختارنا عدم القرينة أيضاً.

فنقول: يمكن أن نجعل السياق قرينةً عليه، فإنّها عليها السلام أفادت: إنَّ الله جعل لكم اجتناب القذف والتخليّة منه حجاباً يقيكم لعنته ويجنبكم سخطه الذي قد يقترن بلعنة القاذف أو المقذوف، وقد لا يقترن، فالقذف على كلّ حال يوجب استحقاق أنَّ يكون القاذف ملعوناً من قبل الله تعالى.

والمعنى الآخر وإن كان صحيحاً، إلّا أنَّه على تقدير وصول القذف إلى أذن المقذوف، أو أنْ تكون عرضةً لقذف القاذف إن لم تجتنب القذف وتبتعد عنه.

معنى قولها عليها السلام: «وَتَرْكَ اَلسَّرِقَةِ إِيجَاباً لِلْعِفَّةِ».

قال العلّامة:(يجب التنزّه عنه عقلاً) [1] في تفسيره لهذه الفقرة وما تقدّمها، فهل الأحكام المذكورة ممّا يجب على الإنسان تركها عقلاً؟

والجواب: لا يمكن المصير إليه؛ وذلك لأنَّ العقل إذا خلي وطبعه لا يحكم بقبح هذه الأمور، إلّا بعد حكم الشرع –فيحكم بوجوب الاجتناب عقلاً عن كلّ ما نهى الشارع عنه، كما ويحكم بوجوب الإتيان بكل ما أمر الشارع به– أو العقلاء بالتحريم أو التقبيح.

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٧ .

فظهر عدم إمكان المساعدة على ما فهمه العلّامة في الفقرات كلّها، ومنها هذه الفقرة، إذ قال: للعفة عن التصرّف في أموال الناس أو يرجع إلى ما مرّ[١].

على أنَّ العفة قد تكون عن التصرّف في أموال الناس، وقد يطلب منها شيئاً آخر، كالعفة عن الجشع والطمع وغيرهما، فترك الشهوات الدنيويّة سواء كانت ماليّةً أو غير ماليّةٍ أولى.

معنى قولها عليها السلام: «وَحَرَّمَ اَللَّهُ اَلشِّرْكَ إِخْلاَصاً لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ فَاِتَّقُوا اَللّهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ وَلاٰ تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَأَطِيعُوا اَللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهٰاكُمْ عَنْهُ فَإِنَّهُ إِنَّمٰا يَخْشَى اَللّهَ مِنْ عِبٰادِهِ اَلْعُلَمٰاءُ».

الواو هنا للاستيناف، وكأنّها بعد أن أنهت مقدّمة خطبتها التي كان جزءاً منها الجعل والعطف عليه، ابتدأت من هنا لتقريع القوم وتحذيرهم من الوقوع في الشرك، مبيّنةً مغبة أغلاطهم، وكاشفةً للستر على نيّاتهم، إذ قرنت أفعالهم بلا تموتن إلّا وأنتم مسلمون. وههنا تخييرٌ واقع بلغة التحذير، بأنّكم إمّا بطاعة الله ورسوله تمضون، أو بنار الشرك ستكوون، فإمّا هدى وإمّا ضلال وعمى، ولهذا السبب ذكرت الآيتين: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٢] وكذلك: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾[٣].

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٧ .

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

معنى قولها عليها السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ: اِعْلَمُوا أَنِّي فَاطِمَةُ وَأَبِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَقُولُ عَوْداً وَبَدْواً وَلاَ أَقُولُ مَا أَقُولُ غَلَطاً وَلاَ أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ شَطَطاً».

هل أرادت عليها السلام التعريف عن نفسها؟

تصوّر بعض الشارحين أن السيّدة فاطمة عليها السلام أرادت التعريف بنفسها عن طريق مقولتها هذه.

فقال العلّامة اليزدي: صوّرت الزهراء المرضيّة عليها السلام في هذا المقطع من خطبتها الحقيقة المذكورة أعلاه ببيان صريح وجميل، لتهيّئ الناس لسماع كلام ستقوله عليها السلام بعد هذا. لكنّها عليها السلام تعرّضت قبل ذلك للتعريف بنفسها، والتذكير بنسبتها إلى رسول الإسلام الكريم صلى الله عليه وآله وسلم؛ لتتمّ بذلك الحجّة على الجميع، ولا يتمكّن الذي قصّروا في الدفاع عنها عليها السلام بعد ذلك من تبرير خطئهم بكون المتحدِّثة غير معروفة لأنّها كانت تتكلّم من وراء الستار، وادعاء الجهل بهوّيتها. فنداء «أَيُّهَا النَّاسُ: اِعْلَمُوا أَنِّي فَاطِمَةُ» قد سدّ الطريق على المتخاذلين، الذين كانوا في كلّ مرة يُبرّرون خذلانهم وتراخيهم بطريقة ما. فقد صدحت عليها السلام باسمها الجميل. وبإطلاقه أحيت في الأذهان عالماً من الفضائل[1].

والحقّ أنّها لم ترد التعريف عن نفسها، لمعلوميّة ذلك عندها وعند غيرها، بل أرادت أن تختزل ما قاله الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فيها، فافتخرت بنفسها وأبيها، وكأنّها قالت: أنا من قال فيَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي، مَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِيْ»[2] و

(١) اعظم شكوى وابلغ بيان ٢: ٢١.

(٢) أمالي الصدوق، المجلس الثاني والعشرون، ١٦٥، الحديث ٣/١٦٣.

«إنَّ اللهَ يَغْضَبُ لِغَضَبِكِ وَيَرْضَى لِرِضَاكِ»[١] و «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا فَقَدْ أَغْضَبَنِي»[٢]، وهكذا.

فأخطرت الأذهان بهذا البيان، وأرجعتهم لتذكّر أقوال الرسول فيها، ولم يكن صلى الله عليه وآله وسلم ببعيدٍ.

معنى قولها عليها السلام: «أَقُولُ عَوْداً وَبَدْواً».

إشارة إلى أنَّ رأيها ثابت لا يتغيّر ولا يختلف باختلاف الأزمنة الأحوال، ومهدت بقولها المتقدّم لقولها اللاحق «وَلاَ أَقُولُ مَا أَقُولُ غَلَطاً، وَلاَ أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ شَطَطاً» لبيان عصمتها ومنعتها عن كلّ غلطٍ في قولٍ، وعن كلّ شططٍ في فعلٍ.

ولا موجب لما صنعه السيّد شبر، إذ خصّص القول بالادّعاء، والفعل بطلب الحقّ، ويقصد: فدكاً[٣]، إذ قلنا: بدلالته على العصمة المنتشرة في كلّ قولٍ وفعلٍ.

كلامها عليها السلام حول النبيّ صلى الله عليه وآله وفضله

معنى قولها عليها السلام: «لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ. فَإِنْ تَعْزُوهُ وَتَعْرِفُوهُ: تَجِدُوهُ أَبِي دُونَ نِسَائِكُمْ، وَأَخَا اِبْنِ عَمِّي دُونَ رِجَالِكُمْ وَلَنِعْمَ الْمَعْزِيُّ إِلَيْهِ صلى الله عليه وآله».

بعد أن ذكّرت بنفسها، وذكرت عصمتها، أوردت بعض صفات النبيّ التي نطق بها الله سبحانه وأردفتها بأوصاف أخر أكثر تفصيلاً.

---

(١) تهذيب الكمال ٣: ٢٥٢، صحيح البخاري ٤: ٤٣٥.

(٢) نهج الحق ١ : ٣٦٢.

(٣) كشف المحجة: ٧٠.

ورسولٌ من أنفسكم: اختلف المفسرون فيها، فمن قال: من جنسكم. ومن قال: من إسماعيل عليه السلام. ومن قال: من العرب.

وقد أشار إلى الاختلاف جملةٌ من مفسّري القرآن كأبي حيان، لكنّه عطف القول الثالث على الأوّل بـ (أو)[١].

وعطف العلّامة المجلسي بـ (ثُمَّ) فقال: وقيل: من جنسكم من البشر ثُمَّ من العرب ثُمَّ من بني إسماعيل[٢].

وهذه الآراء إنّما تنسجم مع قراءة أنفسكم بضم الفاء.

أمّا من قرأ بفتحها، كابن عباس وابن عليّة وابن محيصن والزهري، وقيل: إنَّ هذه القراءة لسيّدة النساء فاطمة عليها السلام[٣]، فيكون المعنى مغايراً للمعنى الأوّل، وهو: أشرفكم وخياركم.

وربما اشتقّ من النفس التي قيل: هي أشرف ما في الإنسان، كما قال الشريعتمداري ذلك[٤].

وعزيز عليه ما عنتم: أي: شاقٌّ عليه عنتكم ولقاءكم المكروه من الضرّر مطلقاً، أو بترك الإيمان، كما أشار إليهما المجلسي[٥].

وحريصٌ عليكم: أي: على هدايتكم، حتّى لا يخرج أحدٌ عن اتّباعه فيهلك.

---

(١) يلاحظ: تفسير البحر المحيط ٥: ١٢٠.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٨.

(٣) جوامع الجامع ٢: ٩٤، كنز الدقائق ٥: ٥٧٩.

(٤) الزهراء وخطبة فدك: ٧٤.

(٥) بحار الأنوار: ٢٩: ١٦٨.

وبالمؤمنين رؤوف رحيم: حكى العلّامة التبريزي عن بعض السلف: لم يجمع الله سبحانه لأحد من الأنبياء بين اسمين من اسمائه، إلّا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّه قال ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاس لَرَءُوفٌ رَّحِيم﴾[2] [3].

معنى قولها عليها السلام: «فَإِنْ تَعْزُوهُ وَتَعْرِفُوهُ: تَجِدُوهُ أَبِي دُونَ نِسَائِكُمْ، وَأَخَا اِبْنِ عَمِّي دُونَ رِجَالِكُمْ وَلَنِعْمَ اَلْمَعْزِيُّ إِلَيْهِ صلى الله عليه وآله».

هذا ما ورد، ويمكن أن يكون تعزروه بدل قولها: (تعزوه)، لكنّه غير موجود في أيّة رواية، فضلاً عن كونه مخالفاً لذيل الكلام، أعني: ولنعم المعزي إليه. نعم، قاله السيّد شبّر، فراجع.

ثُمَّ إنّها ذكرت علياً عليه السلام تمهيداً لما سيقع منها، وإشارة إلى مؤاخاته الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد الهجرة إلى المدينة المنّورة، فسمّي بيوم المؤاخاة.

وفي ذلك روى القندوزي في ينابيع المودة عن زيد بن أبي أوفى، فقال: لمّا آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين أصحابه، فقال عليٌّ: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تواخ بيني وبين أحدٍ.

فقال: «وَالذي بَعَثَنِي بِالحَقِّ نَبِيّاً ما أخَّرْتُكَ إلاَّ لِنَفْسِي فإنَّت مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ موسى، إلاَّ أنَّهُ لاَ نَبِيّ بَعْدِي. وَأَنْتَ أخِي وَ وَارِثِي وَأَنْتَ مَعِي في قَصْرِي في الجَنَّةِ مَعَ ابْنَتِي فَاطِمَةَ وَأَنْتَ أخِي رَفِيقِي ثُمَّ قَرَأَ: إِخْوٰاناً عَلىٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِينَ[4] المُتَحَابُّونَ في

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) اللمعة البيضاء: ٥٩٠.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٧.

اللهِ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ»[١].

وغيرها الكثير في هذا الشأن.

معنى قولها عليها السلام: «فَبَلَّغَ اَلرِّسَالَةَ، صَادِعاً بِالنِّذَارَةِ مَائِلاً عَنْ مَدْرَجَةِ اَلْمُشْرِكِينَ ضَارِباً ثَبَجَهُمْ آخِذاً بِأَكْظَامِهِمْ دَاعِياً إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَاَلْمَوْعِظَةِ اَلْحَسَنَةِ».

قال ابن منظور: وصدعت الشيء: أظهرته وبينته.

ومنه قول أبي ذؤيب:

وكأنّهُنّ رَبابَةٌ وكأنّهُ يُسرٌ يُفيضُ على القِداح ويَصْدَعُ[٢]

والنذارة هي الإعلام على وجه التخويف كما قال المجلسي[٣]، ويمكن أن يستشهد له بقول ابن منظور: أصل الإنذار الإعلام، يقال: أنذرته أنذره انذاراً إذا اعلمته، فأنا منذرٌ ونذير، أي: معلم ومخوّف ومحذّر[٤].

معنى قولها عليها السلام: «مَائِلاً عَنْ مَدْرَجَةِ اَلْمُشْرِكِينَ».

دفع ما توهمه بعض الأعلام

---

(١) كشف الغمّة ١: ٣٢٧، في ذكر المؤاخاة له عليه السلام، عمدة عيون صحاح الأخبار: ٢٣٢، الفصل ٢٩، في قول النبيّ صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: إنك وارثي وحامل لوائي يوم القيامة ومكتوب على باب الجنة، الحديث: ٣٦.

(٢) لسان العرب ٧: ٣٠٣.

(٣) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٨.

(٤) لسان العرب ١٤: ١٠٢.

قال السيّد عبد الله شبّر: والمدرجة: المذهب والمسلك.و أيضاً قول العلامة.

وفي بعض نسخ الخطبة: «ناكباً عن سَنَن مَدْرَجَةِ اَلْمُشْرِكِينَ».

وفي بعضها الآخر: «مَائِلاً عَنْ مَدْرَجَةِ اَلْمُشْرِكِينَ» أي: قائماً للرد عليهم[١].

وفي الكشف: ناكباً على سنن مدرجة المشركين.

وفي رواية ابن أبي طاهر: ماثلاً على مدرجة، أي: قائماً للرد عليهم، وهو تصحيفٌ[٢].

وتابع العلّامة التبريزي العلّامة المجلسي، فقال: وفي رواية ابن أبي طاهر «مَائِلاً عَلى مَدْرَجَةِ» أي: قائماً للردّ عليهم، والظاهر أنّه تصحيفٌ[٣].

أقول: يبدو أنّ السيّد شبر والعلّامة التبريزي قد دخلهما الوهم من تصريح العلّامة المجلسي، فلم يتابعا بعده أبداً، علماً أنَّ التبريزي قال: مائلاً.

وما ذهب إليه لا يصلح لتفسيره، فإنَّ (مائلاً) تغاير (ماثلاً) في المعنى، وفي التعدية أيضاً.

وفي مقام الردّ على العلّامة المجلسي، نقول: نحن راجعنا رواية ابن أبي طاهر فلم نجد هذا التعبير فيها، وإليك ما قاله الشيخ محمد جواد المحمودي الذي قام بجمع مصادر الخطبة الشريفة وأسانيدها.

أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور: حدّثني جعفر بن محمد رجل من أهل ديار مصر لقيته بالرافقة، قال: حدّثني أبي، قال: أخبرنا موسى بن عيسى، قال: أخبرنا عبد

---

(١) كشف المحجّة: ٧٧.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٨، ١٦٩.

(٣) اللمعة البيضاء: ٥٩٥.

الله بن يونس، قال: أخبرنا جعفر الأحمر، عن زيد بن عليّ -رحمة الله عليه- عن عمّته زينب بنت الحسين عليها السلام، قالت:

لمّا بلغ فاطمة عليها السلام إجماع أبي بكر على منعها فدك لاثت خمارها وخرجت في حشدة نسائها ولمّة من قومها تجرّ أذراعها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً حتى وقفت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار، فأنّت أنة أجهش القوم لها بالبكاء، فلمّا سكنت فورتهم، قالت: «أبدأ بحمد الله» ثمّ أسلبت بينها وبينهم سجفاً، ثمّ قالت:

«الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر بما ألهم، والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، واحسان مننٍ أولاها، جم عن الاحصاء عددها، ونأى عن المجازاة أمدها، وتفاوت عن الإدراك آمالها، واستثن الشكر بفضائلها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها.

وأشهد أن لا إله إلا الله كلمّة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنى في الفكر معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الأوهام الإحاطة به، ابتدع الأشياء لا من شيءٍ قبله، وابتدأها بلا مثال، لغير فائدةٍ زادته إلّا إظهاراً لقدرته وتبّداً لبريته، واعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، والعقاب على معصيته، ذيادةً لعباده عن نقمته، وجياشاً لهم إلى جنته.

وأشهد أنّ أبي محمداً عبده ورسوله، اختاره قبل أن يجتلبه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، وسماه قبل أن استنجبه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علما من الله عزّ وجلّ بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواضع المقدور، ابتعثه الله عز وجل إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء

حكمه، فرأى ﷺ الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدةً لأوثانها، منكرةً لله مع عرفانها، فأنار الله عزّ وجلّ بمحمد ﷺ ظلمها، وفرج عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، ثم قبض الله نبيّه ﷺ قبض رأفةٍ واختيارٍ، رغبةً بأبي ﷺ عن هذه الدار، موضوع عنه العبء والأوزار، محتف بالملائكة الأبرار، ومجاورة الملك الجبار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على محمد نبيّ الرحمة، وأمينه على وحيه وصفيّه من الخلائق، ورضيه ﷺ ورحمة الله وبركاته.

ثُمَّ أنتم عباد الله نصب أمر الله ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغائه إلى الأمم، زعمتم حقاً لكم، أ لله فيكم عهدٌ قدمه إليكم، ونحن بقية استخلفنا عليكم، ومعنا كتاب الله بينةٌ بصائره، وآي فيا منكشفة سرائره، وبرهانٌ متجاية ظواهره، مديم الريّة إسماعه، قائد إلى الرضوان أتباعه، مؤدٍ إلى النجاة استماعه، فيه بيان حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وتبيانه الجالية، وجمله الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة.

ففرض الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والزكاة تزييداً في الرزق، والحج تسليةً للدين، والعدل تنسّيكاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً [للملة]، وإمامتنا أمناً من الفرقة، وحبّنا عزاً للإسلام، والصبر منجاة، والقصاص حقناً للمداء والوفاء بالنذر تعرّضاً للمغفرة، وتوفية المكائيل والموازين تعبيراً للنحسة، والنهي عن شرب الخمر تنزيها عن الرجس، وقذف المحصنات اجتناباً للعنة، وترك السرقة إيجابا للعفة.

وحرم الله عزّ وجلّ الشرك إخلاصا له بالربوبيّة، فـ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا

تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[١] وأطيعوا الله فيما أمركم به [وانتهوا عمّا] نهاكم عنه، فإنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٢]».

ثم قالت: أيها الناس، إنا فاطمة وأبي محمد أقولها عوداً على بدء، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[٣]».

ثمّ ساق الكلام على ما رواه زيد بن علي عليه السلام في رواية أبيه[٤].

وإذا جئنا إلى ما رواه زيدٌ بن عليٍّ وجدناه كالآتي: أحمد بن أبي طاهر بن طيفور: ذكرت لأبي الحسين زيد بن عليّ بن الحسين [بن زيد بن عليّ بن الحسين] بن عليّ بن أبي طالب صلوات عليهم كلام فاطمة عليها السلام عند منع أبي بكر إيّاها فدك وقلت له: إنّ هؤلاء يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبي العيناء؟! الخبر منسوق البلاغة على الكلام! فقال لي: رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلّمونه أبناءهم، وقد حدّثنيه أبي عن جدّي يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية.

ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جدّ أبي العيناء، وقد حدّث به الحسن بن علوان عن عطيّة العوفي أنّه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه.

ثمّ قال أبو الحسين: وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحقّقونه؟ لولا عداوتهم لنا أهل ابيت، ثمّ ذكر الحديث، قال:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٤) خطب سيدّة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام، مصادرها وأسانيدها: ١٢٤-١٣٠.

لمّا أجمع أبو بكر على منع فاطمة بنت رسول الله ﷺ فدك وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت في لمّة من حفدتها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله ﷺ شيئاً حتّى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار، فنيطت دونها ملأة، ثمّ أنت أنة أجهش القوم لها بالبكاء، وارتجّ المجلس، فأمهلت حتّى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، فافتتحت الكلام بمحمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسول الله ﷺ فعاد القوم في بكائهم، فلمّا أمسكوا عادت في كلامها، فقالت:

«﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] فإن تعرفوه تجدوه أبي دون آبائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، فبلغ النذارة صادعاً بالرسالة، مائلاً على مدرجة المشركين، ضارباً لثجنهم، آخذاً بكظمهم، يهشم الأصنام وينكث الهام، حتّى هزم الجمع وولوا الدبر، وتغرّى الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقائق الشياطين، وكنتم على شفا حفرةٍ من النار، مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرْق، وتقتاتون الورق، أذلة خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله برسوله ﷺ بعد اللتيا واللتي وبعد ما مني بهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب، كلّما حشوا ناراً للحرب أطفأها [الله]، ونجم قرن للضلال، وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بحده مكدوداً في ذات الله، قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، وأنتم في بلهينة وادعون آمنون، حتى إذا اختار الله لنبيه دار أنبيائه

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

ظهرت خلة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الآفلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه صارخاً بكم، فوجدكم لدعائه مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، فاستنهضكم فوجدكم خفافاً، وأجمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتموها غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، [والرسول لما يقبر] بداراً، زعمتم خوف الفتنة ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[١].

فهيهات منكم، وأنى بكم، وأنى تؤفكون؟ وهذا كتاب الله بين أظهركم، وزواجره بينة، وشواهده لائحة، وأوامره واضحة، أرغبة عنه تدبرون، أم بغيره تحكمون، ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ﴾[٢] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٣].

ثم لم تريثوا إلا ريث أن تسكن نغرتها، تشربون حسواً وتسرون في ارتغاء، ونصبر منكم على مثل حز المدى، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٤]، ويهاً معشر المهاجرين، أأبتز إرث أبي، أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟! (لقد جئت شيئاً فرياً)، فدونكها مخطومةً مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، و﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

تَعْلَمُونَ﴾[١]».

ثم انحرفت إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وهي تقول:

قَـد كـانَ بَعـدكَ أنبـاءٌ وَهَنْبَثَـةٌ ... لَو كنتَ شَاهِدُها لَم تَكثُرِ الخُطَبُ

إنّـا فَقَـدناكَ فَقـدَ الأرض وابلهـا ... وَاختلّ قومكُ فَاشهدهم ولا تغبُ

قال: فما رأينا يوماً كان أكثر باكياً ولا باكية من ذلك اليوم.

ثم روى الخطبة بإسناده عن زينب عليها السلام، ثم قال:

وحدثني عبد الله أحمد العبدي، عن حسين بن علوان، عن عطيّة العوفي، أنّه سمع أبا بكر يومئذ يقول لفاطمة عليها السلام: يا ابنة رسول الله، لقد كان [أبوكِ] صلى الله عليه وآله بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، وعلى الكافرين عذاباً أليماً، وإذا عزوناه كان أباك دون النساء، وأخا ابن عمك دون الرجال، آثره على كلّ حميم، وساعده على الأمر العظيم، لا يحبّكم إلّا العظيم السعادة، ولا يبغضكم إلّا الرديء الولادة، وأنتم عترة الله الطيبون، وخيرة الله المنتخبون، على الآخرة أدلّتنا وباب الجنّة لسالكنا.

وأمّا منعك ما سألت، فلا ذلك لي، وأمّا فدك وما جعل لك أبوك، فإن منعتك فأنا ظالم، وأمّا الميراث فقد تعلمين أنّه صلى الله عليه وآله قال: (لا نورث ما أبقيناه صدقة).

قالت: «إن الله يقول عن نبيّ من أنبيائه: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[٢]، وقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾[٣]، فهذان نبيّان، وقد علمت أنّ النبوّة لا تورث وإنّما يورث ما دونها، فما لي أُمنع إرث أبي، أأنزل الله في الكتاب: (إلّا فاطمة بنت

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٧.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦.

(٣) سورة النمل، الآية: ١٦.

محمد)؟ فتدلّني عليه فأقنع به!»[١].

هذا ما عثرنا عليه فعلاً في هذا الكتاب، والله أعلم ورسوله.

معنى قولها عليها السلام: «ضَارِباً ثَبَجَهُمْ آخِذاً بِأَكْظَامِهِمْ دَاعِياً إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ».

الثبج ـ كما قاله شرّاح الخطبة ـ: وسط الشيء ومعظمه[٢].

وهذا وإن كان سليماً، الّا أنّه ليس بتامّ، فقد قال صاحب اللسان: ثبج كلّ شيءٍ معظمه ووسطه وأعلاه[٣]. فيما خصّه الخليل بأعلى الظهر من كلّ شيءٍ.

والكَظَم: مخرج النفس. يقال: كَظَمني فلانٌ وأخذ بكَظَمي. أبو زيد: يقال أخذت بكظام الأمر، أي: بالثقة، أخذ بكظمه، أي: بحلقه؛ عن ابن الاعرابي. ويقال: أخذت بكظمه، أي: بمخرج نفسه، والجمع كِظام. وفي الحديث: (لعلَّ اللَّهَ يُصْلِح أَمْرَ هذه الأُمَّة ولا يُؤخذ بأَكْظامِها)؛ هي جمع كظم، بالتحريك، وهو مخرج النفي من الحلق؛ ومنه حديث النخعي: (لَهُ التَّوْبَةُ مَا لَمْ يُؤْخَذْ بِكَظَمِهِ) أي عند خروج [نفسه] وانقطاع نفسه. وأخذ الأمر بكظمه إذا غمّه[٤].

إلّا أنَّ الخليل قال: والكَظْم: مخرج النفس. [يقال]: قد غمّه وأخذ بكظمه فما

---

(١) خطب سيدّة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام، مصادرها وأسانيدها ٢١٢-٢١٦.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٩، اللمعة البيضاء: ٥٩٥، كشف المحجّة: ٧٧.

(٣) لسان العرب ٢: ٨٠.

(٤) المصدر السابق ١٢: ١٠٦.

يقدر أن يتنفس، أي: كربه، وهو مكظوم كظيم، أي: مكروب[١].

وأنت تلاحظ الفرق بين كَظَم وبين كَظْم، فإنّ الأوّل فعل والثاني مصدر الفعل وأصله.

وأمّا الدعوة إلى الله، فهي كما أمر بقوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٢].

قال السيّد الطباطبائي: وقد فسرت الحكمة –كما في المفردات– بإصابة الحقّ بالعلم والعقل. والموعظة كما عن الخليل: بأنه التذكير بالخير فيما يرق له القلب. والجدال كما في المفردات: بالمفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة

والتأمّل في هذه المعاني يعطي أنّ المراد بالحكمة –والله أعلم– الحجّة التي تنتج الحق الذي لا مرية فيه ولا وهن ولا إبهام والموعظة هو البيان الذي تلين به النفس ويرق له القلب، لما فيه من صلاح حال السامع من العبر وجميل الثناء ومحمود الأثر ونحو ذلك.

والجدال هو الحجة التي تستعمل لفتل الخصم عما يصر عليه وينازع فيه من غير أن يريد به ظهور الحق بالمؤاخذة عليه من طريق ما يتسلمه هو والناس أو يتسلمه هو وحده في قوله أو حجته[٣].

وبعد إذ عرفت ذلك لا موجب لتضعيف رأي العلّامة المجلسي الذي سار عليه معظم شرّاح الخطبة الشريفة، إذ قال: المراد بالحكمة: البراهين القاطعة وهي

---

(١) العين ٣: ١٥٨٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ١٢: ٣٤٢.

للخواصّ، وبالموعظة الحسنة: الخطابات المقنعة والعبر النافعة وهي للعوام، وبالمجادلة بالتي هي أحسن: الزام المعاندين والجاحدين بالمقدمات المشهورة والمسلّمة، وأمّا المغالطات والشعريات فلا يناسب درجة أصحاب النبوّات[1].

فالناس تختلف بتلقّيها للمعارف والعلوم، وتختلف بأمزجتها وقلوبها، وعداوتها وحبّها لنفسها وأموالها، وهلم جرّاً.

فالنبيّ يراعي كلّ ذلك بخطاباته، ولا يلزم أن يُعمل البرهان فيهم، حتّى مع وجود المتلقّي له، إن كانت نفسه شفافةً قابلةً للتأثّر، أو كانت نفسه جامحةً، أي: المخاطب، فربما يختار النبيّ اسلوباً لا تكون فيه مجادلة، بل يعظه بالعبر والمواعظ مركّزاً على نقاط القوّة في مخاطبه.

نعم، بعض العامّة كأبي حيان حكى عن ابن عباس: أنَّ المراد بالآية: القرآن أو الفقه، وإليك نصّ كلامه: أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف، وأن يسمع المدعو حكمة، وهو الكلام الصواب القريب الواقع من نفس أجمل موقع، وعن ابن عباس: إن الحكمة القرآن، وعنه: الفقه، وقيل: النبوة، وقيل: ما يمنع من الفساد، من آيات ربك المرغبة والمرهبة، و(الموعظة الحسنة) مواعظ القرآن عن ابن عباس، وعنه أيضاً: الأدب الجميل الذي يعرفونه، وقال ابن جرير: هي العبر المعدودة في هذه السورة، وقال ابن عيسى: الحكمة المعروفة بمراتب الأفعال، والموعظة الحسنة أن تختلق الرغبة بالرهبة والانذار بالبشارة، وقال الزمخشري: (إلى سبيل ربك) الإسلام، بالحكمة بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة و(الموعظة الحسنة) وهي التي لا تخفى عليهم أنك تناصحهم

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٩.

بها وتقصد ما ينفعهم فيها، ويجوز أن يريد القرآن، أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة (وجادلهم بالتي هي احسن) طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف، وقال ابن عطية: (الموعظة الحسنة) التخويف والترجئة والتلطف بالإنسان بأن تجله وتنشطه وتجعله بصورة من يقبل الفضائل ونحو هذا[1].

وربّما يؤيّد ببعض ما روته الخاصّة، ومنهم الشيخ الكليني في الكافي، فقد روى عن عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ بَكْرِ بْنِ صَالِحٍ، عَنِ اَلْقَاسِمِ بْنِ بُرَيْدٍ، عَنْ أَبِي عَمْرٍو اَلزُّبَيْرِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اَللَّهِ عَلَيْهِ اَلسَّلاَمُ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنِ اَلدُّعَاءِ إِلَى اَللَّهِ وَاَلْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ أَهُوَ لِقَوْمٍ لاَ يَحِلُّ إِلاَّ لَهُمْ وَلاَ يَقُومُ بِهِ إِلاَّ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ أَمْ هُوَ مُبَاحٌ لِكُلِّ مَنْ وَحَّدَ اَللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ وَآمَنَ بِرَسُولِهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَمَنْ كَانَ كَذَا فَلَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى اَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى طَاعَتِهِ وَأَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِهِ؟ فَقَالَ: «ذَلِكَ لِقَوْمٍ لاَ يَحِلُّ إِلاَّ لَهُمْ وَلاَ يَقُومُ بِذَلِكَ إِلاَّ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ» قُلْتُ: مَنْ أُولَئِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ اَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي اَلْقِتَالِ وَاَلْجِهَادِ عَلَى اَلْمُجَاهِدِينَ فَهُوَ اَلْمَأْذُونُ لَهُ فِي اَلدُّعَاءِ إِلَى اَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ قَائِماً بِشَرَائِطِ اَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي اَلْجِهَادِ عَلَى اَلْمُجَاهِدِينَ فَلَيْسَ بِمَأْذُونٍ لَهُ فِي اَلْجِهَادِ، وَلاَ اَلدُّعَاءِ إِلَى اَللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ فِي نَفْسِهِ مَا أَخَذَ اَللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ شَرَائِطَ اَلْجِهَادِ» قُلْتُ: فَبَيِّنْ لِي يَرْحَمُكَ اَللَّهُ، قَالَ: «إِنَّ اَللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَخْبَرَ [نَبِيَّهُ] فِي كِتَابِهِ اَلدُّعَاءَ إِلَيْهِ وَوَصَفَ اَلدُّعَاةَ إِلَيْهِ فَجَعَلَ ذَلِكَ لَهُمْ دَرَجَاتٍ يُعَرِّفُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَيُسْتَدَلُّ بِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَوَّلُ مَنْ دَعَا إِلَى نَفْسِهِ وَدَعَا إِلَى طَاعَتِهِ وَاِتِّبَاعِ أَمْرِهِ فَبَدَأَ بِنَفْسِهِ فَقَالَ: ﴿وَ اَللّٰهُ يَدْعُوا إِلىٰ دٰارِ اَلسَّلاٰمِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ

(١) البحر المحيط ٥: ٥١٣.

إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١] ثُمَّ ثَنّى بِرَسُولِهِ فَقَالَ: ﴿اُدْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٢] يَعْنِي بِالْقُرْآنِ[٣].

لكن الرواية ضعيفة ببكر بن صالح، وربما بغيره أيضاً.

والقرآن المذكور لعلّه ذُكر كأبرز المصاديق، فلا تكون الرواية مفيدةً للحصر، أضف إلى ذلك ما نقله الأندلسي من الأقوال والآراء بغير اعتراضٍ. بل ما نقل عن ابن عباس نفسه من أنَّ المراد بالآية الفقه الذي يدلّ على عدم الحصر بالقرآن الكريم.

عوداً على بدء

ذكر الشريعتمداري ما نصّه: أراد القائل تطبيق الآية الكريمة على اصطلاح أهل المنطق، ولا دليل عليه، ولهذا عبّر المجلسي قدس سره بالقيل مشعراً بتمريضه. والذي ينبغي أن يقال هو أنّ الآية الكريمة متعرضة للدعوة الشاملة للغافل والمعاند، وللمجادلة المختصّة بالمعاند الذي هو بصدد معارضة الحقّ ومغالبة المحقّ. وكما أنّ الدعوة تكون بالمحكمة والموعظة الحسنة غير الشائنة، كذلك المجادلة تكون بهما مع التحفظ على البيان الذي لا يثير الحميّات والتعصّبات حتى تكون بالتي هي أحسن. ولا دليل على اختلاف موادّ المجادلة وموادّ الدعوة البتة، كما لا دليل على تخصيص الحكمة بالخواص، والموعظة بالعوامّ، بل ينتفع الكلّ بالكلّ، كما صرّح

(١) سورة يونس، الآية: ٢٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) الكافي ٥: ١٣.

بهذا الأخير صاحب الميزان[١][٢].

ونقول: لا نمانع في تعدّد وظائف النبيّ، فتارة تراه يسوق البراهين اليقينيّة، وأخرى يعظ بما أمره الله، وثالثة يخوض المنازعات بالمقدّمات المشهورة. وما قلته من عدم الدليل على تخصيص الحكمة بالخواصّ، والموعظة بالعوام فيه بأسٌ ونظرٌ، إذ يلزم على الحكيم الّا يكون حكيماً إذا خاطب العوام بالحكمة، واتّخذ فيهم طرقاً لا يعرفها غير الخواصّ.

أمّا عن قولك: (والموعظة بالعوام) فهذا أيضاً لا يمكن قبوله، إذ العوّام لا يمكن مخاطبتهم بأساليب الخواصّ، ولا يمكن أن نجنح إلى معاملتهم معاملة الخصوم والأضداد فنجادلهم.

نعم، قلنا: إنَّ النبيّ يمكن أن يختار اسلوباً نافعاً، ويركّز بكلامه على نقاط القوّة، فمع جموح الخصم الذي يحتاج إلى المجادلة يمكن للنبيّ أو لغيره اعتماد أسلوب آخر إذا اكتشفه فيه، ففلان يعدّ نفسه من المرتبة الثالثة، والنبيّ يخاطبه خطاب المرتبة الثانية طلباً لهدايته، وسعياً لإقامة الحقّ والعدلّ.

وقولك: (صرّح بهذا الأخير صاحب الميزان). وهذا ليس صحيحاً، إذ صرّح بعدم الدليل على اختصاص الطرق حسب أفهام الناس وأشار بانتفاع الخواص بالموعظة والمجادلة، وانتفاع العوام بالمجادلة. وهذا يكفيه لبطلان القول المزبور.

أمّا أنَّ صاحب الميزان قد تكلّم عن عدم تخصيص الحكمة بالخواصّ، فلم نشهده، ولا يقبله للزوم المحذور المتقدّم.

---

(١) الزهراء وخطبة فدك: ٧٧.

(٢) لاحظ: الميزان في تفسير القرآن ١٢: ٣٤٤.

معنى قولها عليها السلام: «يجف اَلْأَصْنَامَ وَيَنْكُثُ اَلْهَامَ، حَتَّى اِنْهَزَمَ اَلْجَمْعُ وَوَلَّوُا اَلدُّبُرَ، حَتَّى تَفَرَّى اَللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ وَأَسْفَرَ اَلْحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ».

لم يشر أحدٌ إلى ما ورد في نسخة هذه الخطبة، أعني: رواية عبد الله بن الحسن، فقد جاء في نسختي: "يجف" وقيل في غيرها: "يكسر". ومعناهما واضح، إذ ذلك كنايةٌ عن النصر والغلبة.

وفي «يجف» عناية زائدة حيث يدلّ على عدم الفائدة من تلكم الحجارة أو غيرها.

أمّا قولها: «وَيَنْكُثُ اَلْهَامَ» فقد اختلف في معناه، وفي كونه ينكت، لا ينكث.

أمّا الخلاف الثاني فلا نتعرّض له، إذ إنّنا عازمون على شرح ما ورد في رواية عبد الله بن الحسن.

أمّا الخلاف الأوّل ففي معناه قال العلّامة المجلسي: النكث إلقاء الرجل على رأسه، يقال: طعنه فنكثه، والهام جمع الهامة بالتخفيف فيهما، وهي الرأس، والمراد: قتل رؤساء المشركين وقمعهم وإذلالهم، أو المشركين مطلقاً. وقيل: أريد به إلقاء الأصنام على رؤوسها، ولا يخفى بُعده لاسيما بالنظر إلى ما بعده[١].

وتبعه –كما العادة– العلّامة التبريزي[٢] والسيد عبد الله شبرّ[٣].

وقد حقّق الشريعتمداري هذا المطلب، فتوصّل إلى أنَّ ما قالوه غلطٌ، وأنَّ

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٩.

(٢) اللمعة البيضاء: ٥٩٨.

(٣) كشف المحجّة: ٧٨.

الصحيح (ينكت)، واستشهد على كلامه بكلام المنجد.

قال: ما ذكره المجلسي قدس سره في الشرح، هو النكت بالتاء المنقوطة في آخره، قال في المنجد: "نكت فلاناً: ألقاه على رأسه" فما في متن الخطبة في المطبوع الجديد من البحار –بالثاء المثلثة– ومثله في اللمعة البيضاء، غلط، فإنّ النكث –بالثاء المثلثة– نقض العهد والحبل، ولا مناسبة له بالمقام، الّا أن يراد به التمزيق والتفريق مجازاً. ولو قرئ: ينكب –بالباء الموحّدة بمعنى يطرح– لم يكن بعيداً. قال في المنجد: "نكب الشيء أو به [من باب نصر]: طرحه"[1]. وهو صحيح بعد المراجعة.

فقال ابن منظور: نكت: الليث: النكت أن تنكت بقضيب في الأرض، فتؤثر بطرفه فيها. وفي الحديث: فجعل ينكت بقضيب أي يضرب الأرض بطرفه. ابن سيده: النكت قرعك الأرض بعود أو باصبع[2].

ثُمّ ذكر بعد ذلك: الأصمعي: طعنه فنكته إذا ألقاه على رأسه؛ وأنشد:

مُنْتَكِتُ الرأس فيه جائفةٌ جَيَّاشةٌ لا تَرُدُّها الفُتُلُ

الجوهري: يقال طعنه فنكته أي ألقاه على رأسه فانتكت هو. ومر الفرس ينكت، وهو أن ينبو عن الأرض. وفي حديث أبو هريرة: (ثم لأنكتَنَّ بك الأرض) أي: أطرحك على رأسك. وفي حديث ابن مسعود: (أَنَّهُ ذَرَقَ عَلَى رَأْسِهِ عُصْفُورٌ فنَكَتَه بِيَدِهِ) أي: رماه عن رأسه إلى الأرض[3].

وقال في نكث: النكث: نقض ما تعقده وتصلحه من بيعةٍ وغيرها.

---

(١) الزهراء وخطبة فدك: ٧٨.

(٢) لسان العرب: ١٤: ٢٧٧.

(٣) المصدر السابق ١٤: ٢٧٨.

نكثه ينكثه نكثاً فانتكث، وتناكث القوم عهودهم: نقضوها، وهو على المثل. وفي حديث علي كرم الله وجهه: امرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين؛ النكث: نقض العهد؛ وأراد بهم أهل وقعة الجمل، لأنهم كانوا بايعوه ثم نقضوا بيعته، وقاتلوه؛ وأراد بالقاسطين أهل الشام، وبالمارقين الخوارج[١].

وإذا أغمضنا الطرف عن ذلك سنواجه إشكالاً آخر في قوله: ولا يخفى بعده لاسيّما بالنظر إلى ما بعده.

فإنّها عليها السلام ذكرت ذلك على سبيل الكناية، والكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته منه[٢].

وعليه: إنَّ ما حصل فعلاً هو تكسير الأصنام ونكت الهام الذي هو النصر المؤزّر اللاحق لإذلال المشركين وتوليّتهم الدبر،فلا يكون قرينة على المجاز الذي لم يصرّح به العلّامة، مع أنَّ الأمر إذا دار بين الحقيقة والمجاز فالحقيقة أحقّ وأولى.

معنى قولها عليها السلام: «حَتَّى اِنْهَزَمَ اَلْجَمْعُ وَوَلَّوُا اَلدُّبُرَ، حَتَّى تَفَرَّى اَللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ وَأَسْفَرَ اَلْحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ، وَنَطَقَ زَعِيمُ اَلدِّينِ، وَخَرِسَتْ شَقَاشِقُ اَلشَّيَاطِينِ وَطَاحَ وَشِيظُ اَلنِّفَاقِ وَاِنْحَلَّتْ عُقَدُ اَلْكُفْرِ وَاَلشِّقَاقِ».

قال العلّامة المجلسي: والواو مكان حتّى –كما في رواية ابن أبي طاهر– أظهر[٣]. وهو حقٌّ لئلا يلزم التكرار.

---

(١) المصدر السابق ١٤: ٢٧٨.

(٢) مختصر المعاني ٢: ١٢٣.

(٣) بحار الأنوار ٢٩: ١٦٩.

وتفرّى الليل، أي: انشق حتّى ظهر ضوء الصباح.

وأسفر الحقّ، أي: أضاء.

وربما يقصد وضح الحقّ وانكشف انكشافاً تامّاً؛ فإنَّ ذلك معنى أسفر بالدقّة، اضافةً إلى لزوم التكرار المعنوي الذي يعدّ أهون من التكرار اللفظي، لكنّه غير جيّد أيضاً.

والزعيم: سيّد القوم ومترأسهم.

وخرست شقاشق الشياطين: الشقاشق هي شيءٌ كالرية يخرجها البعير من فمه إذا هاج.

والمراد: خرست ألسنة المشركين الذين كانوا يصوّتون بالأباطيل في أمور الدين، واسناد الخرس إلى الشقاشق مجازيٌ، كما أنَّ إطلاق الشياطين على المشركين مجازيٌ أيضاً.

وطاح وشيظ النفاق: هلك السفلة والرذّل من القوم، أو لفيف من الناس لا ينتسبون إلى أصلٍ واحدٍ.

والأوّل أحقّ بالسياق، وإن كان الثاني ممكناً باعتبار إضافتها عليها السلام إلى النفاق.

معنى قولها عليها السلام: «وَفُهْتُمْ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْبَيضِ الْخِمَاصِ وَكُنْتُمْ عَلىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ، مَذْقَةَ الشَّارِبِ وَنَهْزَةَ الطَّامِعِ وَقَبْسَةَ الْعَجْلَانِ، وَمَوْطِئَ الْأَقْدَامِ تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ وَتَقْتَاتُونَ الْقِدَّ أَذِلَّةً خَاسِئِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ».

ما المراد من البيض الخماص؟

قال المجلسي: يقال فاه فلانٌ بالكلام كقال، أي: لفظ به كتفوّه، وكلمّة الإخلاص: كلمّة التوحيد. وفيه تعريض بأنّه لم يكن إيمانهم عن قلوبهم. والبيض جمع أبيض، وهو من الناس خلاف الأسود، والخَماص بالكسر جمع خميص، والخَماصة تطلق على دقّة البطن خلقة وعلى خلوّه من الطعام، يقال: فلان خميص البطن من أموال الناس، أي: عفيف عنها. وفي الحديث: كالطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً.

والمراد بالبيض الخماص: إمّا أهل البيت عليهم السلام، ويؤيّده ما في كشف الغمّة: في نفر من البيض الخماص الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، ووصفهم بالبيض لبياض وجوههم، أو هو من قبيل وصف الرجل بالأغرّ، وبالخماص لكونهم ضامري البطون بالصوم وقلّة الأكل، أو لعفّتهم عن أكل أموال الناس بالباطل، أو المراد بهم من آمن من العجم كسلمان رضي الله عنه وغيره، ويقال لأهل فارس: بيض لغلبة البياض على ألوانهم وأموالهم؛ إذ الغالب في أموالهم الفضّة، كما يقال لأهل الشام: حمر لحمرة ألوانهم وغلبة الذهب في أموالهم، والأوّل أظهر. ويمكن اعتبار نوع تخصيص في المخاطبين، فيكون المراد بهم: غير الراسخين الكاملين في الإيمان، وبالبيض الخماص: الكمّل منهم[1].

لكن في تفسيره نظرٌ يكمن بالبيض، فإنّه من البعيد جدّاً أن تجعل صفة البياض مقرونةً بالخمص، فتخرج من كان أسمر اللون، حتى لو كان خمصاً.

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٧٠، ١٧١.

وتقصد عليها السلام كلّ من قال الله فيه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾[1] فيشمل كلّ من (بيضّ وجهه وإن كان غير أبيض).

وأمّا كون المراد به أهل البيت عليهم السلام خاصّةً فليس ذلك بظاهرٍ. نعم، هم المصداق الأبرز للآية المباركة.

وعليه: لا معنى للتخصيص بسلمان رضي الله عنه وبغيره من أهل فارس، لكونهم مشمولين بذلك الخطاب بنحو العموم. بل لا معنى لتأييد قوله بما ورد في كشف الغمة، لأنّه على تقدير صدوره يكون المصداق الأبرز، ولأنَّ مفهوم الوصف غير ثابتٍ فعلاً.

وما ذكره أخيراً لا يساعده الدليل، إذ ذكر: يمكن اعتبار نوع تخصيص في المخاطبين، فيكون المراد به غير الراسخين الكاملين في الإيمان، وبالبيض الخماص الكمل منهم. وقوّاه الشريعتمداري.

لكن يرد عليهما: أنَّ التخصيص بحاجةٍ إلى مخصّص، وأنَّ الصفات المذكورة ليست صفات الكمّل، إذ يشترك فيها عددٌ لا بأس به من الناس.

ثُمَّ لماذا قالت عليها السلام في نفرٍ؟

أجاب العلّامة التبريزي: كلمّة (في) للمصاحبة بمعنى (مع)، ويجوز جعل الخطاب عامّاً، و(في) بمعنى (على) بتقدير معنى الاشتمال[2].

والحقّ أنَّ (في) هنا بمعنى (الباء) التي لا تخلو من معنى الملاصقة، كمررت بزيدٍ، أي: ألصقت مروري بمكانٍ يقرب من زيدٍ، فكذلك ههنا.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.

(٢) اللمعة البيضاء: ٦٤٠.

معنى عليها السلام: «وَكُنْتُمْ عَلىٰ شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ، مَذْقَةَ الشّارِبِ وَنَهْزَةَ الطّامِعِ وَقَبْسَةَ الْعَجْلانِ، وَمَوْطِئَ الْأَقْدامِ تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ وَتَقْتاتُونَ الْقِدَّ أَذِلَّةً خاسِئِينَ، تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ».

شفير جهنم

أعتقد أنَّ شرح «مَذْقَةَ الشّارِبِ وَنَهْزَةَ الطّامِعِ وَقَبْسَةَ الْعَجْلانِ، وَمَوْطِئَ الْأَقْدامِ» متوقّفٌ على ما نفهمه من النار، ولذا اختلف الشرّاح بين قديمهم وحديثهم، فحمل راية (شفير جهنم)[1] العلّامة المجلسي وتبعه قوم.

بينما طرح صاحب الإشراقات رأياً آخر، بالإضافة إلى احتماله رأي العلّامة المجلسي.

في حين شرح العلّامة اليزدي ذلك بطريقةٍ أدبيّة قلّ نظيرها، كما ستراها بعد قليلٍ. ولنأخذ الأقوال قولاً بعد آخر:

قال العلّامة المجلسي: ﴿كُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾[2] شفا كلّ شيء: طرفه وشفيره، أي: كنتم على شفير جهنّم مشرفين على دخولها لشرككم وكفركم. مذقة الشارب ونهزة الطامع: مذقة الشارب شربته، والنهزة بالضم: الفرصة، أي: محل نهزته، أي: كنتم قليلين أذلّاء يتخطّفكم الناس بسهولة، وكذا بقولها عليها السلام: وقبسة العجلان وموطئ الأقدام. والقبسة بالضم: شعلة من نار يقتبس من معظمها، والإضافة إلى العجلان لبيان القلّة والحقارة، ووطء الأقدام: مثل مشهور في المغلوبيّة والمذلّة.

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٧١.

(٢) سورة آل عمران، الأية: ١٠٣.

تشربون الطرق وتقاتون الورق: الطّرْق بالفتح: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر، والورَق بالتحريك: ورق الشجر. وفي بعض النسخ: وتفتاتون القِدّ، وهو بكسر القاف وتشديد الدال: سير يقدّ من جلد غير مدبوغ. والمقصود وصفهم بخباثة المشرب وجشوبة المأكل، لعدن اهتدائهم إلى ما يصلحهم في دنياهم، ولفقرهم وقلّة ذات يدهم وخوفهم من الأعادي.

أذلّة خاسئين تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم: الخاسئ المبعّد المطرود، والتخطّف: استلاب الشيء وأخذه بسرعة، اقتُبس من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]. وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّ الخطاب في تلك الآية لقريش خاصّة. والمراد بالناس: سائر العرب أو الأعمّ[2].

وقال العلّامة التبريزي: (وكنتم على شفا حفرة) شفا كلّ شيء طرفه وشفيره، أي: كنتم على شفير جهنم مشرفين على دخلوها والتهافت فيها بشرككم وكفركم، إذ لو كان أدرككم الموت في تلك الحالة لوقعتم في النار، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[3].

والخطاب لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، أي: وكنتم يا أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم على طرف

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٧١، ١٧٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

حفرة من جهنم لم يكن بينكم وبينها إلّا الموت، فأنقذكم الله منها بأن أرسل إليكم رسولا هداكم إلى الإيمان ودعاكم إليه، فنجوتم بإجابته من النار، وإنّما قال: (فأنقذكم منها)، مع أنّهم لم يكونوا فيها، لأنّهم كانوا بمنزلة من هو فيها من حيث استحقاقهم لدخولها واشرافهم عليها.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: قال: «فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهٰا بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله» هكذا والله نزل بها جبرئيل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وآله.

والضمير في منها للحفرة أو للنار أو للشفا، وتأنيثه لتأنيث ما أضيف إليه، أو لأن الشفا بمعنى الشفة فإن شفا البئر وشفتها طرفها كالجانب والجانبة، وأصله شفو – بالواو– قلبت الواو ألفا في المذكر وحذفت في المؤنث، قال الأخفش: لما لم تجز فيه الإمالة عرف انه من الواو لأن الإمالة إنما تكون من الياء، والتثنية شفوان وجمعه أشفاء، ومنه قولهم: أشفى فلان على كذا أي أشرف عليه كإشراف المريض على الموت.

وقوله تعالى: ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾[1] أي: طرف موضع جرفه السيول، أي: أكلت ما تحته، وهار: مثل قولهم شاكي السلاح، وأصله: شائك السلاح على وجه.

قولها عليها السلام: «مَذْقَةَ اَلشَّارِبِ وَنَهْزَةَ اَلطَّامِعِ».

مذقة الشارب –بضم الميم–: شربته وهو ما يذاق ويشرب مثل الغرفة بمعنى ما يغرف، من قولهم: ذقت الشيء أذوقه ذوقا ومذاقا ومذاقة.

وأصل الذوق إدراك طعم الشيء بواسطة الرطوبة المنبثة بالعصب المفروش على عضل اللسان، وقد يطلق الذوق على نفس تلك القوة وعلى القوة الادراكية التي

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

لها اختصاص بادراك لطائف الكلام ووجوه محاسنه الخفية، وذقت ما عند فلان خبرته وجربته، وأذاقه الله وبال أمره أي أصابه به.

و(النَهْزَةَ) بالضم الفرصة من قولهم: انتهزها أي اغتنمها وبادر وقتها، وناهزتهم الفرص أي بادرتهم إليها، والأصل من قولهم نهز رأسه -من باب منع- حركه، والفرصة محل الحركة والعمل بالشيء وزمان المهلة ونفس المهلة.

ونهز فلان راحلته أي دفعها في السير، ونهز لكذا أي نهض لتناوله، والمراد من كونهم مذقة الشارب كونهم قليلين، ومن كونهم نهزة الطامع كونهم محل نهزته كناية عن القلة أيضاً أي: كنتم أذلاء قليلين يكاد أن يتخطفكم الناس بسهولة، وكذا قولها عليها السلام: وقبسة العجلان وموطئ الأقدام.

و(القَبْسَةَ) بالضم شعلة من نار تقتبس من معظمها وكذلك القبس والمقباس، واقتباسها الأخذ منها، وفي حديث علي عليه السلام: (أَوْرَى قَبَساً لِقَابِسٍ) أي أظهر نورا من الحق لطالبه، والقابس طالب النار أو آخذها وكذلك المقتبس، وقد يستعاران لطالب العلم، والإضافة إلى العجلان لبيان القلة والحقارة، والعجلان صفة من العجلة.

و(وَطِئَ ٱلْأَقْدَامِ): مثل مشهور في المذلة والمغلوبية، والأقدام جمع القدم وموطئها محل وطئها.

و(اَلطَّرْقَ) بالتحريك أو بالفتح فالسكون: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر، وقيل: هو منقع الماء من الطروق -بضم الطاء- بمعنى الدق، وسمى الآتي بالليل طارقا لاحتياجه إلى دق الباب، ومنه حديث علي عليه السلام: (إنها خارقة طَارِقَة) أي طرقت بخير، ومنه الدعاء: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ طَوَارِقِ اللَّيْلِ إِلاَّ طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ).

والطارق: النجم المضيء الثاقب، ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾[١] فسّر الطارق فيه بالكوكب الذي يبدو بالليل، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾[٢]، قيل أي المضيء كأنه يثقب الأفلاك بضوئه فينفذ فيها.

القمي قال: الطارق النجم الثاقب، وهو نجم العذاب، ونجم القيامة، وهو زحل في أعلى المنازل.

وفي الخصال عن الصادق عليه السلام انه قال لرجل من أهل اليمن: فَمَا زُحَلُ عِنْدَكُمْ فِي اَلنُّجُومِ؟ فَقَالَ اَلْيَمَانِيُّ: نَجْمٌ نَحْسٌ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اَللَّهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ «مَهْ لاَ تَقُولَنَّ هَذَا فَإِنَّهُ نَجْمُ أَمِيرِ اَلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ نَجْمُ اَلْأَوْصِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، وَهُوَ اَلنَّجْمُ اَلثَّاقِبُ اَلَّذِي قَالَ اَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ» فَقَالَ لَهُ اَلْيَمَانِيُّ: فَمَا يَعْنِي بِالثَّاقِبِ؟ قَالَ: «إِنَّ مَطْلِعَهُ فِي اَلسَّمَاءِ اَلسَّابِعَةِ، وَإِنَّهُ ثَقَبَ بِضَوْئِهِ حَتَّى أَضَاءَ فِي اَلسَّمَاءِ اَلدُّنْيَا، فَمِنْ ثَمَّ سَمَّاهُ اَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اَلنَّجْمَ اَلثَّاقِبَ»[٣].

ويطلق الطريق على السبيل، لأنَّه فعيل بمعنى مفعول، حيث إنَّه يدقّ بالأرجل، والمطرقة على آلة: الدقّ، لكونها كذلك.

و(الاَقْتِيَاتُ): أخذ القوت من اقتاته يقتاته اقتياتاً، وقد تقلب التاء الثانية دالاً للخفة، أي: أخذه قوتاً لنفسه.

و(الورق): بالتحريك ورق الشجر، والمراد: بيان احتياجهم إلى أكل مثله لغاية الفقر والمجاعة.

---

(١) سورة الطارق، الآية: ١.

(٢) سورة الطارق، الآية: ٢، ٣.

(٣) الخصال ٢: ٤٩٠.

وفي بعض النسخ: (وتقتادون القد)، وهو بكسر القاف وتشديد الدال سير يقد من جلد غير مدبوغ، كناية عن كون أكلهم من الأشياء الخشنة كالورق والقد، وكون شربهم من المياه العفنة كالنقيع والطرق.

وحاصل المراد من الفقرات المذكورة: وصفهم بخباثة المشرب وخشونة المأكل، لعدم اهتدائهم إلى ما يصلحهم في دنياهم لفقرهم، وقلة ذات يدهم، وخوفهم من الأعادي.

و(الأَذِلَّةً): جمع الذليل كالأعزة جمع عزيز.

و(الخَاسِئ): الصاغر المبعد كناية عن الذليل أيضا من خسأت الكلب خسأ طردته، وفي حديث الدعاء: (واخسأ شيطاني) بهمزة وصل، أي: أسكنه صاغرا مطرودا وأبعده، وخسأ الكلب بنفسه يتعدى ولا يتعدى بمعنى انخسأ، قال تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[1] وأصل الخسء هو الإبعاد والبعد بمكروه، وقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[2] أي: باعدين مبعدين، و﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[3] أي: مبعد أو هو كليل.

و(التَخَطَّفَ): استلاب الشيء بخفية وأخذه بسرعة من قولهم: خطفه خطفا - من باب تعب- استلبه بسرعة، ومن باب ضرب لغة أيضا حكاها الأخفش، وتخطفه واختطفه مثله، وخطفه تخطيفا مبالغة فيه، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾[4] أي

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الملك، الآية: ٣.

(٤) سورة الصافات، الآية: ١٠.

اختلس خلسة من كلام الملائكة، وليتخطف الناس من أرضنا أي تستلب.

والخطاف -بالفتح- هو الشيطان يخطف السمع أي يسترقه، وقوله تعالى: ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[١]: كل منهما كناية عن الهلاك.

وقولها عليها السلام: «مِنْ حَوْلِكُمْ»، أي: من جوانبكم، والمراد من الجوانب الأربعة: كناية عن الإحاطة والأخذ على الوجه الأكمل، والكلام المذكور من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام: (أَنَّ الْخِطَابَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ لِقُرَيْشٍ خَاصَّةً، وَ الْمُرَادُ بِالنَّاسِ سَائِرُ الْعَرَبِ أَوِ الْأَعَمُّ)، منها ومن العجم[٣].

بينما قال الهديبي: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾[٤].

ذكرتهم الزهراء عليها السلام بالخطر الذي كان يهددهم في حياتهم الدنيوية والاخروية بسبب وضعهم الذي كانوا عليه قبل الإسلام، بأن كانوا على حافة الهاوية وعلى شفير هوة سحيقة يجرّهم إليها حالهم ووضعهم السيّء.

وقد أخذت الزهراء عليها السلام هذا من القرآن الكريم من قوله تعال: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣١.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

(٣) اللمعة البيضاء: ٦١٠-٦١٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَ﴾[1].

(والمراد من النار إن كان نار جهنم فالمراد بكونهم على شفا حفرتها أنهم كانوا كافرين ليس بينهم وبين الوقوع فيها إلّا الموت الذي هو أقرب إلى الإنسان من سواد العين إلى بياضها فأنقذهم الله منها بالإيمان.

وإن كان المراد بيان حالهم في مجتمعهم الفاسد الذي كانوا فيه قبل إيمانهم وتآلف قلوبهم وكان المراد بالنار هي الحروب والمنازعات –وهو من الاستعمالات الشائعة بطريق الاستعارة– فالمقصود أن المجتمع الذي بني على تشتت القلوب واختلاف المقاصد والأهواء، لا محالة لا يسير هذا المجتمع بدليل واحد يهديهم إلى غاية واحدة بل بأدلة شتى تختلف باختلاف الميول الشخصية والتحكمات الفردية اللاغية التي تهديهم إلى أشد الخلاف والاختلاف، يشرفهم إلى أردأ التنازع ويهددهم دائماً بالقتال والنزاع ويعدهم للفناء والزوال، وهي النار التي لا تبقي ولا تذر على حفرة الجهالة التي لا منجا ومخلص للساقط فيها).

معنى قولها عليها السلام: «مَذْقَةَ اَلشَّارِبِ وَنَهْزَةَ اَلطَّامِعِ، وَقَبْسَةَ اَلْعَجْلاَنِ وَمَوْطِئَ اَلْأَقْدَامِ».

بدأت الزهراء عليها السلام تشير إلى مظاهر البؤس والانحطاط في حياتهم من الناحية الاجتماعية وغيرها حيث كانوا ضعفاء كل الضعف أمام سائر القوى المجاورة لهم فمتى ما أرادت تلك القوى أن تنال منهم ما تريد فعلت من غير أن يكون لهم أدنى مقاومة فهم أمامها كشربة شارب أو كأكلة آكل ينال منهم عدوهم غايته من غير أن

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

يكلف نفسه أية مشقة أو عناء كما يفعل الذي يقتبس شعلة من النار وهو سائر في طريقه باستعجال من دون أي حاجة للوقوف.

وكان مقامهم أمام غيرهم مقام الذل والحقارة كمن يداس بالأقدام وذلك استصغاراً لمقامهم وامتهاناً لكرامتهم.

معنى قولها عليها السلام: «تَشْرَبُونَ اَلطَّرْقَ وَتَقْتَاتُونَ اَلْقِدَّ».

وهذه إشارة إلى وضعهم الاقتصادي والمعيشي، حيث كانوا يعيشون الفقر والجدب إلى المستوى الذي كان القد لهم طعاماً وقوتاً –وهو الجلد أو اللحم اليابس والمجفف– وصار الطرق لهم شراباً –وهو ماء المطر– الذي تطرقه الإبل فتشرب منه وتبرك وتبعر فيه، (مع العلم أن النفوس الشريفة تستقذر هذا الماء وتمجه ولا ترضى به ولكنه الجهل والإحساس بالنقص والخضوع للمذلة والهوان كأنهم لم يعرفوا حفر الآبار أو تفجير العيون أو إيجاد القنوات تحت الأرض، ولا تسأل عن مضاعفات هذه المياه وتلوثها بأنواع الجراثيم والمكروبات).

وكانوا يعيشون على أرض قاحلة تشح بأقل انتاج زراعي لأنها لا تستسقى إلا بالمطر الذي قل أن تجود به السماء إلا في فترات قصيرة في ضمن السنة وكانوا يحتقرون الزراعة والحرف اليدوية.

معنى قولها عليها السلام: «أَذِلَّةً خَاسِئِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ اَلنَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ».

الخاسئ هو المنبوذ المطرود الذي لا يترك أن يدنو من الناس لحقارته كأنما وضعهم المشار إليه جعلهم في مستوى متدنٍ من الذلة والهوان أمام الآخرين فأصبحوا ينظر إليهم وكأنهم ليسوا بالمستوى الذي يكونون به في مصاف الأمم

والمجتمعات لأنهم لا يملكون شيئاً من المقومات التي تجعلهم في مستوى الأمم المتحضرة. وكانوا يعيشون الخوف الدائم ممن حولهم من الناس بأن يهجموا عليهم بين آونة وأخرى ليتخطفوهم ويستذلوهم بمهانة أشد وأقسى[١].

في حين قال العلّامة اليزدي: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾[٢].

وفي هذا المقطع استشهدت سيّدة العالمين عليها السلام بالآية الثالثة بعد المئة من سورة آل عمران التي تقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[٣] فالقبائل العربية كلها كانت تعادي بعضها قبل بعثة نبي الإسلام الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت الحرب قائمة بينها باستمرار، وكذلك سفك الدماء، حتى أصبحت هذه الحالة ثابتة بينهم. لكن وببركة الإسلام وجدت المحبة والألفة بينهم. وأصبحوا في ظلّ هذه النعمة من الله تعالى يشفقون على بعضهم كالأخوة. وبذكرها عليها السلام لهذه الآية تشير لهم إلا أنّكم عندما كنتم حديثي الإسلام كنتم مجموعةً صغيرةً، مستضعفةً، فقيرةً، جائعةً، تقف على حافة هاوية من النار، وكم [كان من] الممكن أن تنزلق في أيّ لحظة، وتسقط داخل جهنم. لكنّ الله تعالى أنقذكم من ذلك ببركة أبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد اقتبست السيّدة الزهراء عليها السلام هذا الخطاب من القرآن الكريم، وكانت تتلو آياته في العديد من مواطن خطبتها؛ إذ استعمل هذا الأسلوب في العديد من آيات

---

(١) إشراقات فكريّة ٢: ٢٢٧، ٢٢٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

القرآن لتحريك دافع الشكر عند الناس؛ ففي سورة الأنفال يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۞ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1]. ففي هذه الآيات طرح موضوع طاعة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ودوره الحياتيّ على مستوى البشر. ثم تلا ذلك تهديد بأن إذا عصيتم ستصابون بفتنة شديدة. لكن، لكي يوجد الله الدافع عند الناس للطاعة فقد قال عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]. فالله تعالى يذكّر المسلمين في هذه الآية بقلّة عددهم، واستضعافهم، وبخوفهم الماضي من الاختطاف على أيدي الآخرين. ثم يذكّرهم بالنِعَم التي منّ بها عليهم. وينبههم في النهاية إلى أنّ النعم من النصر، والمدد الإلهيّ، إلى الرزق الطيّب، مسبَّبة كلّها عن شكرهم لربّهم تعالى. فالله يريد منّا أن نشكره. وهذا لا يعني أنّه بحاجة إلى ذلك، بل من المتيقّن به أنّ شكرنا لن ينفعه عزّ وجلّ، كما أن جحودنا لن يضرّه سبحانه وتعالى؛ ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[3]. وإذا أراد

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٠-٢٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٨.

الله تعالى منّا أن نشكره فلأنّ الشكر يوجب ترقّينا، وتكاملنا، ونيلنا الأهليّة لكمالات أكثر. فالعبادة التي تُؤدّى شكراً تصل بالإنسان إلى مقام الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

فالمقطع السابق من الخطبة المباركة للسيّدة الزهراء عليها السلام يُشكّل -في الحقيقة- تفسيراً لهذه الآيات من القرآن الكريم، والتي تسعى من خلال التذكير بوضع المسلمين الأوائل، ودور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في إنقاذهم، وسعادتهم، إلى إيجاد الدافع عندهم للشكر.

وبكلمات أدبيّة تصوّر السيّدة الزهراء عليها السلام الوضع المؤسف، والمتزلزل للعرب قبل رسالة نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، وتقول: «مَذْقَةَ اَلشَّارِبِ، وَنَهْزَةَ اَلطَّامِعِ، وَقَبْسَةَ اَلْعَجْلاَنِ، وَمَوْطِئَ اَلْأَقْدَامِ، تَشْرَبُونَ اَلطَّرْقَ، وَتَقْتَاتُونَ اَلْقِدَّ»، أي: كنتم كجرعة من الماء، يمكن للناس أن يبتلعوكم. وكان كلّ من يطمع بكم قادراً على اختطافكم. كما كنتم كشعلة نار يريد المستعجل أن يأخذها بسرعة؛ لئلا يؤذي يده، ولا تنطفئ في الوقت نفسه. فإلى هذه الدرجة كنتم ضعافا، وعلى شُرف الانطفاء، مضافاً إلى أنّكم كنتم موطأ للأقدام. وكان الماء الذي تشربونه من مشرب ملوّث ببول الإبل والوحل. وكان طعامكم من الجلد غير المدبوغ. فالقد هو الجلد الطازج غير المدبوغ؛ إذ كانوا يأكلونه أحياناً من شدّة الفقر والجوع؛ فقالت لهم عليها السلام: «أَذِلَّةً خَاسِئِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ اَلنَّاسُ»[1]، مِنْ حَوْلِكُمْ».

وفي تتمة كلامها عليها السلام أشارت إلى الآية السادسة والعشرين من سورة الأنفال، التي أشرنا إليها سابقاً. وبالإشارة في هذه الآية المباركة إلى الوضع السيّئ في عهد الجاهليّة يذكّر الله تعالى المسلمين بأنّ الله أعانهم من الناحية الاجتماعيّة، ونجّاهم من

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

الذلّ، كما أنّهم تخلّصوا من الطعام القذر، ومنّ الله عليهم بالرزق الطاهر والطيّب.

وببيان ابنة رسول الإسلام الكريم: لهذه النكات فإنّها عليها السلام تسعى لتذكير الناس بخدمات النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ ليدركوا ما لرسول الله صلى الله عليه وآله من حقّ في أعناقهم. وأنّ الذي يتكلم معهم الآن يريد أكثر من أيّ شخص آخر استمرار طريقه المبارك، وسَير الناس فيه. وقد كانت حرقة قلبها الحنون عليها السلام ناشئةٍ من قلقها من انحراف الناس عن الطريق الذي دلّهم عليه النبيّ صلى الله عليه وآله. فكانت قلقةً من أن ينسى المسلمون هدايةً منّ الله بها عليهم بوساطة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم. وبتذكيرهم بخدماته صلى الله عليه وآله كانت عليها السلام تسعى مع ضمائرهم النائمة لإيقاظها قليلاً، وتوفير الأرضيّة لهدايتهم، وإلا فإنّ فدكاً وأمثالها لم تكن سوى ذريعة للقيام بذلك[١].

ونحن نؤيّد اليزدي، إذ كانت العرب تمارس ذلك فعلاً، ولا يعبأ بهم، لأنَّهم لم يجتمعوا حول رجلٍ واحدٍ، فكانت الأهواء تأخذهم بعيداً، حتّى تكلفوا الضعف والهوان. إلى أن جاءهم محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم وآمنوا بعد اللتيا والتي، فاستقّرت احوالهم، وراحوا يتطلعون إلى ما كانت تفعله سائر الأمم.

وإنّما أيدناه، لأنَّ الزهراء عليها السلام استشهدت بقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾[٢].

وهم داخلون في الحروب والنزاعات والاختلافات جزماً، فلو كانت النار بمعنى الحروب والفتن لما قال عنها الله تعالى: ﴿شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾[٣].

---

(١) اعظم شكرى وابلغ بيان ٢: ٣٨-٤١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

فالصحيح رأي العلّامة المجلسي ومن تبعه، الّا أنَّ اليزدي كان رأيه أظهر بياناً وتفصيلاً. ومنه تعرف عدم صحّه ما احتمله صاحب الإشراقات.

معنى قولها عليها السلام: «فَأَنْقَذَكُمُ اَللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعْدَ اَللَّتَيَّا وَاَلَّتِي وَبَعْدَ أَنْ مُنِيَ بِبُهَمِ اَلرِّجَالِ وَذُؤْبَانِ اَلْعَرَبِ وَمَرَدَةِ أَهْلِ اَلْكِتَابِ كُلَّمٰا أَوْقَدُوا نٰاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اَللّٰهُ أَوْ نَجَمَ قَرْنُ اَلشَّيْطَانِ أَوْ فَغَرَتْ فَاغِرَةٌ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ».

اللّتيا والتي: هما الداهية الكبيرة والصغيرة، وكَنَى عن الكبيرة بلفظ التصغير تشبيهاً بالحيَّة، فإنها إذا كثر سمها صغرت لأن السم يأكل جَسَدها، وقيل: الأصل فيه أن رجلاً من جَدِيس تزوج امرأة قصيرة، فقاسى منها الشدائد، وكان يعبر عنها بالتصغير، فتزوج امرأة طويلة، فقاسى منها ضعف ما قاسى من الصغيرة، فطلقها، وقال: بعد اللَّتَيَّا والَّتِي لا اتزوج أبداً، فجرى ذلك على الداهية. وقيل: إن العرب تصغّر الشيء العظيم، كالدُّهَيْم واللُّهَيْم، وذلك منهم رَمْز[1].

والمراد: الشدائد المتعاقبة المختلفة أطرافها.

و«بُهَمِ»: كصرد، الشجعان.

و«الذُؤْبَانِ» :جمع ذئاب، فيقال في الجمع: ذئاب وذؤبان.

وذؤبان العرب: لصوصهم وصعاليكهم الذين يستلبون أموال الناس، سمّوا كذلك تشبيهاً بالذئاب.

وقد قيل: من يسترعي الذئب فقد ظلم.

---

(١) مجمع الأمثال ١: ١٣٩.

و «مَرَدَةِ أَهْلِ اَلْكِتَابِ»: هم الذين عتوا عن أمر ربّهم وتكبروا.

وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وألحق المجوس بهم الحاقاً، كما مقرّرٌ في علم الفقه.

و «نَجَمَ قَرْنُ اَلشَّيْطَانِ أَوْ فَغَرَتْ فَاغِرَةٌ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ قَذَفَ أَخَاهُ فِي لَهَوَاتِهَا».

نجم الشيء كنصر نجوماً: ظهر وطلع، والمراد بالقرن: القوّة، وفسّر قرن الشيطان بأمّته ومتابعيه، وفغر فاه: أي فتحه، وفغر فوه: أي انفتح يتعدّى ولا يتعدّى، والفاغرة من المشركين: الطائفة العادية منهم تشبيهاً بالحيّة أو السبع ويمكن تقدير الموصوف مذكّراً على أن يكون التاء للمبالغة.

كلامها عليها السلام في بيان جهاد أمير المؤمنين عليه السلام

معنى قولها عليها السلام: «قذف أخاه في لهواتها فَلاَ يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ جَنَاحَهَا بِأَخْمَصِهِ وَيُخْمِدَ لَهَبَهَا بِسَيْفِهِ، مَكْدُوداً فِي ذَاتِ اَللَّهِ مُجْتَهِداً فِي أَمْرِ اَللَّهِ، قَرِيباً مِنْ رَسُولِ اَللَّهِ، سَيِّداً فِي أَوْلِيَاءِ اَللَّهِ، مُشَمِّراً نَاصِحاً، مُجِدّاً، كَادِحاً، لاَ تَأْخُذُهُ فِي اَللَّهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ وَأَنْتُمْ فِي رَفَاهِيَةٍ مِنَ اَلْعَيْشِ وَادِعُونَ فَاكِهُونَ آمِنُونَ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا اَلدَّوَائِرَ وَتَتَوَكَّفُونَ اَلْأَخْبَارَ وَتَنْكِصُونَ عِنْدَ اَلنِّزَالِ وَتَفِرُّونَ مِنَ اَلْقِتَالِ».

القذف: الرمي، ويستعمل في الحجارة، كما أنّ الحذف يستعمل في الحصا، يقال: هم بين حاذف وقاذف... واللهوات بالتحريك: جمع لهات وهي اللحمة في أقصى سقف الفم، وفي بعض الروايات: في مهواتها بالضم، وهي بالتسكين: الحفرة وما بين الجبلين ونحو ذلك... وعلى أيّ حال المراد أنّه كلّما أراده طائفة من

المشركين أو عرضت له داهية عظيمة بعث علياً عليه السلام لدفعها وعرّضه للمهالك[١].

فلا ينكفئ: فلا يرجع.

والصماخ: وهو من الأذُن: الخرق الباطن الذي يفضي إلى الرأس، ويقال: إنَّ الصماخ هو الأُذن نفسها.

والسماخ لغة في الصماخ[٢]. وقد ورد في دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام: وَمَسَارِبِ صِمَاخِ سَمْعِي[٣]، وورد أيضاً: ومسارب سماخ سمعي[٤].

و«الأَخْمَص»: ما لا يصيب الأرض من باطن القدم عند المشي.

و«المَكْدُود»: هو من بلغه التعب والأذى.

وفي الحديث: (اَلْكَادُّ عَلَى عِيَالِهِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله)[٥].

قال العلّامة التبريزي: مكدوداً حالٌ من أخاه أو من ضميره، وكذا ما بعده من الأوصاف المنصوبة[٦].

وهو عجيبٌ، لا يمكن تصوره من العلّامة؛ لأنّه حالٌ من (أخاه) فقط، لأنَّ الوصف لأمير المؤمنين عليه السلام ولا يمكن أن يكون لرسول رب العالمين صلى الله عليه وآله وسلم. بل يلزم من قوله: (وكذا ما بعده الأوصاف) أن يكون الرسول قريباً من الرسول نفسه صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٧٢.

(٢) لاحظ: لسان العرب ٧: ٤٠٣.

(٣) إقبال الاعمال: ٩٦٢.

(٤) البلد الأمين و الدرع الحصين: ٢٥٢.

(٥) الكافي ٥: ٨٨.

(٦) اللمعة البيضاء: ٦٢٢.

وهو أعجب ما رأيناه.

معنى قولها عليها السلام: «تَتَرَبَّصُونَ بِنَا اَلدَّوَائِرَ».

الدوائر: صروف الزمان وحوادث الأيام والعواقب المذمومة، وأكثر ما تستعمل الدائرة في تحوّل النعمة إلى الشدّة، أي: كنتم تنتظرون نزول البلايا علينا وزوال النعمة والغلبة عنا[١].

قال الشريعتمداري: قال الراغب: "والدورة والدائرة في المكروه، كما يقال دولة في المحبوب". وقال أيضاً: "عليهم دائرة السوء، أي يحيط بهم السوء احاطة الدائرة بمن فيها، فلا سبيل لهم إلى الانفكاك بوجه". وفي المنجد: "الدائرة: الحلقة". وفي دعاء الافتتاح: وحلقة بلاء قد فككتها. وبالجملة يظهر بالتدبّر أن التعبير بالدائرة للدلالة على الإحاطة وعدم امكان التخلّص، ولهذا اختصّت باستعمالها في السوء، والتعبير بالدولة للتداول بالأيدي وهو في المحبوب[٢].

معنى قولها عليها السلام: «تَتَوَكَّفُونَ اَلْأَخْبَارَ».

تنتظرون وقوع المصائب والفتن.

وقولها عليها السلام: « النُّكُوصُ».

معناه: الاحجام عن الشيء والرجوع[٣].

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٧٤.

(٢) الزهراء وخطبة فدك: ٨٩.

(٣) بحار الأنوار ٢٩: ١٧٤.

كلامها عليها السلام في بيان نفاق الناس

معنى قولها عليها السلام: «فَلَمَّا اِخْتَارَ اَللَّهُ لِنَبِيِّهِ دَارَ أَنْبِيَائِهِ، وَمَأْوَى أَصْفِيَائِهِ، ظَهَرَ فِيكُمْ حَسَكَةُ اَلنِّفَاقِ وَسَمَلَ جِلْبَابُ اَلدِّينِ وَنَطَقَ كَاظِمُ اَلْغَاوِينَ وَنَبَغَ خَامِلُ اَلْأَقَلِّينَ وَهَدَرَ فَنِيقُ اَلْمُبْطِلِينَ فَخَطَرَ فِي عَرَصَاتِكُمْ وَأَطْلَعَ اَلشَّيْطَانُ رَأْسَهُ مِنْ مَغْرَزِهِ هَاتِفاً بِكُمْ فَأَلْفَاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُسْتَجِيبِينَ، وَلِلْعِزَّةِ فِيهِ مُلاَحِظِينَ، ثُمَّ اِسْتَنْهَضَكُمْ فَوَجَدَكُمْ خِفَافاً، وَأَحْمَشَكُمْ فَأَلْفَاكُمْ غِضَاباً فَوَسَمْتُمْ غَيْرَ إِبِلِكُمْ وَوَرَدْتُمْ غَيْرَ مَشْرَبِكُمْ».

(لَمَّا) حرف وجود لوجود، وقال ابن السراج والفارسي: إنّها ظرفٌ، بمعنى: حين، وإليك نصّ المسألة:

قال ابن هشام الأنصاري: من أوجه (لما) أن تختصّ بالماضي؛ فتقتضي جملتين وجدت ثانيهما عند وجود أوّلاهما، نحو: "لما جاءني أكرمته" ويقال فيها: حرف وجود لوجود، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وزعم ابن السراج وتبعه الفارس وتبعهما ابن جني وتبعهم جماعة: أنّها ظرف، بمعنى: حين[1].

و«حَسَكَةُ اَلنِّفَاقِ»: حسكة بالتحريك العداوة.

يقال: في صدره حسكة وحسيكة، أي: ضغنٌ وعداوةٌ. وأطلاق الحسكة على العداوة، لأنّها تؤثّر في القلب.

وقصدت عليها السلام من: «ظَهَرَ فِيكُمْ حَسَكَةُ اَلنِّفَاقِ»: أظهرتم باطنكم الذي طالما أخفيتموه عنا، ولم تتعاملوا به أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان باطنكم يشبه الشوكة الصلبة

(١) مغني اللبيب ١: ٣٦٩.

التي تؤذي من أصابته.

و«سَمَلَ جِلْبَابُ اَلدِّين»

أي: عند بروز باطنكم انكشف عنكم ظاهركم، فاتّحد الباطن والظاهر، فكنتم بعد وفاة أبي صلى الله عليه وآله وسلم جريئيين على الله ورسوله.

«وسَمَلَ جِلْبَابُ اَلدِّين»، أي: تمزّق الجلباب الذي كنتم تختبؤون تحته فبانت معايبكم.

«ونَطَقَ كَاظِمُ اَلْغَاوِينَ، وَنَبَغَ خَامِلُ اَلْأَقَلّينَ، وَهَدَرَ فَنِيقُ اَلْمُبْطِلِينَ...».

وقد تقدّم شرح (كَاظِمُ)، وتعني بها: نطق من كان ساكتاً من الغاوين المنهمكين في الجهل والباطل.

«ونَبَغَ»، أي: أظهر ما كان مخفيّاً من النفاق.

«و خَامِلُ»: من خفي ذكره وصوته وكان ساقطاً لا نباهة له.

«وَلْأَقَلّينَ»: المراد منه الأذلون. وفي بعض النسخ: الآفلين: من أفل الشيء أفولاً، أي: غاب. والآفل: الزائل المتغيّر.

معنى: فنيق المبطلين

هذا، ولم أجد من تعرّض لشرح قولها عليها السلام: «وَهَدَرَ فَنِيقُ اَلْمُبْطِلِينَ» شرحاً وافياً غير من اقتصر على شرح الاسم بالاسم.

نعم، وجدت الشريعتمداري قائلاً: واستعارة الفنيق لرئيس المبطلين لتحقيره، وكونه كالبهيمة وأنّ تكريمه لمصلحة الانتفاع به[1].

لكنّه غير مستقيم، إذ لا موجب للتكرمة على هذا الوجه، لأنّ كلّ بعير ينتفع به

(١) الزهراء وخطبة فدك: ٩٣.

انتفاعاً ما.

بل لم تقل عليها السلام: رئيس المبطلين، وإنّما قالت: فنيق المبطلين.

وأمّا قوله: (إنّها استعارة) فهو وإن كان ممكناً، الّا أنّه ليس كذلك، بعد إذ عرفت.

والحقّ أن يقال: لمّا تكلمّت عن نطق الكاظم، ونبوغ الخامل. أشارت إلى الحصة الأخرى: وهم كبار القوم وأشرافهم فأخفى صوته لئلا يظهر ما أضمر.

وبعد ذلك: حظر في عرصاتكم، أي: قال مقولته في محظركم، وفي عرصاتكم، وأطلع الشيطان من مغرزه.

وهذا – بحسب ما نراه – أوفق من التفسير السابق، إضافة إلى أنَّ المجتمع آنذاك على هذه الشاكلة، فبين خاملٍ ذليلٍ وبين ناطقٍ غاوٍ وبين من لم ينطق حفظاً لشأنه، واعتماداً على الناطقين المظلّين.

معنى قولها عليها السلام: «وَأَطْلَعَ الشَّيْطَانُ رَأْسَهُ مِنْ مَغْرَزِهِ هَاتِفاً بِكُمْ فَأَلْفَاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُسْتَجِيبِينَ».

في لسان العرب: أطلع رأسه إذا أشرف على شيء، وكذلك أطلّع وأطلع غيره وأطلّعه، والاسم الطّلاع[1].

«ومَغْرَزِهِ»: ما يختفي فيه، وهو مكانه الثابت فيه.

«وهَاتِفاً بِكُمْ فَأَلْفَاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُسْتَجِيبِينَ، وَلِلْعِزَّةِ فِيهِ مُلاَحِظِينَ»

والهتاف: –كما قال العلّامة– الصياح، وعليه سار معظم الشارحين.

والحقّ أنّه هنا بمعنى: النداء والدعوة.

---

(١) لسان العرب ٨: ١٨٤.

قال في لسان العرب: الهتف والهتاف: الصوت الجافي العالي، وقيل: الصوت الشديد. وقد هتف به هتافاً أي صاح به. أبو زيد: يقال هتفت بفلان أي دعوته، وهتفت بفلان أي مدحته. وفلانة يهتف بها أي تذكر بجمال. وفي حيث حنين: قال اهتف بالأنصار أي نادهم وادعهم، وقد هتف يهتف هتفاً. وفي حديث بدر: فجعل يهتف بربه أي يدعوه ويناشده[١].

وبعد أن ناداهم ودعاهم وجدهم مستجيبي الدعوة، حاضري الرأي، لاحظي العزّة فيه للأسف.

وأصل اللحظ النظر بمؤخّر العين، وهو إنّما يكون عند تعلّق القلب بشيءٍ. قال العلّامة: ثُمَّ استنهضكم فوجدكم خفاقاً [خفافاً]، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير شربكم: النهوض القيام، واستنهضه لأمر: أي أمره بالقيام إليه... فوجدكم خفاقاً: أي مسرعين إليه. وأحشمت الرجل: أغضبته، وأحشمت النار ألهبتها. أي: حملكم الشيطان على الغضب فوجدكم مغضبين لغضبه، أو من عند أنفسكم. وفي المناقب القديم: عطافاً -بالعين المهملة والفاء- من العطف، بمعنى الميل والشفقة، ولعلّه أظهر لفظاً ومعنى. والوسم: أثر الكي، يقال: وسمته كوعدته وسماً. والورود: حضور الماء للشرب، والإيراد: الإحضار. والشرب بالكسر: الحظ من الماء، وهما كنايتان عن أخذ ما ليس لهم بحقّ من الخلافة والإمامة وميراث النبوّة. وفي الكشف: وأوردتموها شرباً ليس لكم[٢].

إلّا أنَّ الشريعتمداري لم يستظهر ما استظهره العلّامة، فعلّق عليه: ليس بأظهر،

(١) المصدر السابق ١٥: ٢٦.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٧٥.

بل لا يصحّ بعد قولها عليها السلام: أحمشكم بمعنى أغضبكم. والمراد غضبهم في طلب الرئاسة لزعمهم أنّهم أحقّ بها لكبر سنّهم. ولا يبعد أن يكون إشارة إلى أحقادهم البدريّة والحنينيّة والخيبرية وغيرهنّ، فيكون المخاطبون جميع الرؤساء والمرؤوسين -لعنهم الله وخذلهم- وقد ورد في دعاء الندبة: قد وتر فيه صناديد العرب، وقتل أبطالهم، وناوش ذؤبانهم، فأودع قلوبهم أحقاداً بدريّة وخيبريّة وحنينيّة وغيرهنّ، فأضبّت على عداوته، وأكبّت على منابذته[1].

ولا أظنّه بعيداً.

معنى قولها عليها السلام: «هَذَا، وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ وَالْكَلْمُ رَحِيبٌ، وَالْجُرْحُ لَمَّا يَنْدَمِلْ وَالرَّسُولُ لَمَّا يُقْبَرْ، اِبْتِدَاراً، زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ».

اختلف في قولها «هَذَا»، فرأى التبريزي في هذا عدّة معاني ولم يصر إلى أحدها بعينه، فقال: أي: خذوا هذا الذي ذكرت وتدبرّوا فيه: أو اذكروا هذا الذي فعلتم أو أنّكم فعلتم هذا، ونحو ذلك، والحال أنّ العهد قريب[2].

فيما أعقب الشريعتمداري بقوله: الأظهر بالتقدير: هذا وقع والعهد قريب[3].

الّا أنّ الجميع مردود:

أمّا الأوّل فهو بحاجةٍ إلى تخصيص فالذي ذكرته طويلٌ ولا يحتمل ارادتها له،

---

(١) الزهراء وخطبة فدك: ٩٥.

(٢) اللمعة البيضاء: ٦٣٦.

(٣) الزهراء وخطبة فدك: ٩٥.

أضف إليه أنَّ المقام مقام توبيخ وتأنيب فلا موجب لما ذكره من التذكير.

أمّا الثاني فيرد عليه نفس الإشكال.

أمّا الثالث فيرد عليه الاشكال المقدم أيضاً، إضافةً إلى أنَّ "أنّكم" يجب أن تكسر همزتها، ولا يجوز فيها الفتح.

وأمّا عن كلام الشريعتمداري فاتّضح الإشكال عليه ممّا تقدّم.

والذي يمكن أن يقال: إنّها أشارت باسم الإشارة إلى ما تقدم منها قبل قليلٍ، أي: بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نطق كاظم الغاويين ونبغ خامل الأقلّين... .

لهذا قالت بعد هذا: (والعهد قريب والكلم رحيب).

والواو قبل العهد واو الحال الداخلة على الجملة الإسميّة، وتسمى واو الابتداء التي قدّرها الأقدمون بـ (إذ).

والعهد كلّ ما عوهد الله عليه، وكل ما بين العباد من مواثيق.

والعهد الوصية، كقول سعد حين خاصم عبد بن زمعة في ابن أمته: ابن أخي عهد إليّ فيه، أي: أوصى.

ومنه حديث الإمام علي عليه السلام: عهد إليّ النبي الأُمي، أي: أوصى.

ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾[1]، يعني: الوصية والأمر[2].

ورحيبٌ معناه واسع، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾[3].

وَالْكَلْمُ: الجرح، والجميع كلوم.

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٠.

(٢) لاحظ: لسان العرب ٩: ٤٤٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

كلمته أكلمه كلّما، وأنا كالم وهو مكلوم، أي: جرحته[١].

وعليه: تكون الألف واللام أو اللام وحدها في الجرح عهديّة ذكريّة.

لماذا استعملت الصديقة لفظ (لمّا) دون (لم)؟

والجواب: إنَّ الم تشترك مع (لمّا) في اختصاصها بالمضارع والنفي والقلب، إلّا أنّها تفارقها في أمورٍ منها:

أنَّ منفيها مستمر النفي إلى الحال، كقوله:

فإنْ كُنْتُ مَأكُولاً فكُنْ خيرَ آكِلٍ وإلاّ فَأَدْرِكْنِي ولمّا أُمَزّقِ

في حين أنَّ منفي (لم) يحتمل الاتصال والانقطاع، ومثال الأوّل: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[٢] ومثال الثاني: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[٣].

وهذا يعني التنصيص من قبلها على أنَّ الجرح لم يندمل، والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يقبر بعد. نعم، في قولها الأوّل استعملت (لمّا) بنحو الحقيقة، إلّا أنّها في قولها الثاني استعملت (لمّا) بنحو المجاز، لشدّة إيلامها وحزنها الذي لم يكد ينقطع.

أو ربما اعتمدت على أنَّ منفي (لمّا) الذي لا يكون إلّا قريباً من الحال –كما ذكره النحاة[٤]– فيكون الاستعمالان على نحو الحقيقة أيضاً، وهذا المعنى ليس بمستطاع مع (لم) إذا جرّدت عن القرائن.

---

(١) العين ٣: ١٥٩٢.

(٢) سورة مريم، الآية: ٣.

(٣) سورة الانسان، الآية: ١.

(٤) لاحظ: مغني اللبيب ١: ٣٦٨.

معنى قولها عليها السلام: «اِبْتِدَاراً زَعَمْتُمْ خَوْفَ اَلْفِتْنَةِ أَلا فِي اَلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ».

الاِبْتِدَار: التسارع.

و الزَعَم: يطلق على الظنّ أو الكذب أو مجرّد القول[١].

وأرادت هنا منه الكذب لذيل كلامها عليها السلام.

قال العلّامة: ابتداراً مفعول له للأفعال السابقة، ويحتمل المصدر بتقدير الفعل[٢].

وقال السيّد عبد الله شبّر: ابتدرتم لغصب الخلافة، وترويج البيعة. ويحتمل أن يكون مفعولاً له للأفعال السابقة[٣].

وقال التبريزي: فعلتم الأفعال السابقة من جهة الابتدار إلى هوى أنفسكم، أو إلى الفتنة، أو إلى الخلافة، أو إلى المخالفة عن الشريعة، أو إلى إظهار النفاق والعداوة ونحو ذلك، أو هو مفعول مطلق أي ابتدرتم إلى هذه الأعمال ابتدارا، وفي بعض الروايات: (بداراً) أي فعلتم ما ذكر بدارا، أو بدرتم إلى ما ذكر بدارا بمعنى ابتدراً[٤].

وقال الشريعتمداري: مراده —ويقصد العلّامة المجلسي— من الأفعال السابقة وسمتم وأوردتم. والاحتمال الأخير أحسن أو متعيّن، والمعنى ابتدرتم ابتداراً في غضبكم حقّنا. وانّما قلت: انّ هذا الاحتمال متعيّن، لعدم كون الوسم والايراد اللّذين

---

(١) لاحظ: لسان العرب ٦: ٤٧.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٧٦.

(٣) كشف المحجّة: ٩٤.

(٤) اللمعة البيضاء: ٦٣٨.

هما كنايتان عن الغضب للابتدار بل كان الغضب موصوفاً بالابتدار، فجملة ابتدرتم ابتداراً، قائم مقام الوسم والايراد المذكورين وبدل عنهما[١].

واعلم أن العلّامة المجلسي جنح إلى كون ابتداراً مفعولاً لأجله لمّا رأى بقيّة النسخ -على ما نظنّ- إذ وردت ابتداراً مقارنةً للأفعال المذكورة، ولهذا السبب احتمل احتمالين: المقارنة وعدمها، فمع عدم المقارنة تكون مفعولاً مطلقاً لفعل ابتدر.

وإنّما قلنا: (نظنّ)، إذ لا نستبعد كونها مفعولاً لأجله، حتّى وإنّ وردت كما في خطبتنا الموسومة، أعني: لم تقارن ابتداراً للأفعال، وإن كان بعيداً لوجود فواصل كثيرة.

وما قاله السيدّ شبر لا يستقيم، فإنّهما معنى واحد، غاية الأمر: تارةً نرجع إلى ما ذكرته السيّدة عليها السلام، وأخرى نرجع إلى ما كنّت عليها السلام بهما عنه.

أمّا قول الشريعتمداري فلا يمكن قبول التعيّن، إذا أدخلنا في الحساب ما احتملناه جدّاً في قول العلّامة، ويبقى في النفس شيءٌ: لماذا قالت الزهراء عليها السلام: زعمتم خوف الفتنة ولم تأت بالواو؟ وهذا يقوي اختلال بعض النسخ في نظرنا القاصر، خصوصاً أنّ هذا المورد اختلفت فيه النقول للغاية.

معنى قولها عليها السلام: «فَهَيْهَاتَ مِنْكُمْ، وَكَيْفَ بِكُمْ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، وَكِتَابُ اَللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، أُمُورُهُ ظَاهِرَةٌ، وَأَحْكَامُهُ زَاهِرَةٌ وَأَعْلاَمُهُ بَاهِرَةٌ، وَزَوَاجِرُهُ لاَئِحَةٌ، وَأَوَامِرُهُ وَاضِحَةٌ، وَقَدْ خَلَّفْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ أَرَغْبَةً عَنْهُ تُرِيدُونَ؟ أَمْ بِغَيْرِهِ

(١) الزهراء وخطبة فدك: ٩٦.

تَحْكُمُونَ؟ بِئْسَ لِلظّالِمِينَ بَدَلاً، وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ».

معنى هيهات

قال فيه العلّامة المجلسي وتبعه الشرّاح: هيهات للتبعيد، وفيه معنى التعجب، كما صرّح به الشيخ الرضي، وكذلك كيف وأنّى تستعملان في التعجب[١].

أقول: إذا آمنا بدلالة (هيهات) على التبعيد، لا يمكن أن نؤمن بدلالتها على معنى التعجب؛ لأنَّ إسم الفعل دالٌّ على المعنى الخبري، فلا يمكن أن يكون دالّاً على المعنى الإنشائي؛ وذلك لوضوح أنَّ الجملة الخبريّة موضوعة لنسبةٍ تامّةٍ منظوراً إليها بما هي حقيقةٌ واقعةٌ وشيءٌ مفروغٌ عنه.

والجملة الانشائيّة موضوعة لنسبةٍ تامّة منظوراً إليها بما هي نسبةٌ يراد تحقيقها[٢].

فما الذي يريده الرضي من عبارته؟

لننقل عبارته ثُمَّ نستعين بالله لتوضيحها، قال: ومعاني أسماء الأفعال أمراً كانت أو غيره أبلغ وآكد من معاني الأفعال التي يقال: إنَّ هذه الأسماء بمعناها.

ثُمَّ قال: وكل ما هو بمعنى الخبر ففيه معنى التعجب، فمعنى هيهات، أي: ما أبعده، وشتان، أي: ما أشد الافتراقّ، وسرعان ووشكان، أي: ما أسرعه... والتعجب هو التوكيد المذكور[٣].

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٧٦.

(٢) دروس في علم الأصول: ٨٩.

(٣) شرح الرضي ٣: ٧٣.

وأنت إذ تلاحظه يفسر (هيهات) بمعنى ما أبعده، ثُمَّ يقول: والتعجب هو التوكيد المذكور، ولابدَّ حينئذٍ أن يكون قاصداً البعد المؤكّد الذي عبّر عنه، بما أبعده.

بل قال قبل ذلك: ابلغ وآكد من معاني الأفعال التي يقال: إنَّ هذه الأسماء بمعناها.

وهذه العبارة فيها مطلبان:

الأوّل: أنَّ الرضي لم يقبل كون أسماء الأفعال بمعنى الأفعال، فلا يقال –كما أشتهر على الألسن– هيهات، بمعنى: بعد.

الثاني: أنَّ معاني الأسماء هنا أبلغ وآكد من معاني الأفعال، فيكون معنى هيهات: البعد المؤكّد، المعبّر عنه: بالتعجب.

ومنه يظهر أنَّ لهيهات معنى، ولكيف معنى آخر، ولأنّا كذلك. فلا اشتراك في التعجب كما أفادوه.

فهيهات حاملة للتبعيد، أو قل: لتوكيد البعد.

وكيف اسم استفهام الغرض منه التعجب.

وأنّى اسم استفهام حقيقي، والمراد منه: كيف تؤفكون وتُصرفون عن وجه الصواب، وقيل: تصدون عن الحقّ.

معنى قولها عليها السلام: «وَكِتَابُ اَللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ».

نقل الشريعتمداري قول مجمع البحرين: "وأظهر الناس: أوساطهم. ومنه حديث الأئمة عليهم السلام: «نَتَقَلَّبُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ» أي: في أوساطكم. ومثله: أقاموا بين ظهرانيهم وبين أظهرهم، أي: بينهم على سبيل الاستظهار والاستناد إليهم.

وزيدت فيه ألف ونون مفتوحة تأكيداً ومعناه ظهراً منهم قدّامهم وظهراً وراءهم فهم مكنوفون من جوانبهم إذاً. ثمّ كثر حتى استعمل في الإقامة بين القوم مطلقاً. ويقال: هو نازل بين اظهرهم وظهرانيهم -بفتح النون- ولا تقل بين ظهرانيهم -بكسر النون- قاله الجوهري. "وقد ظهر منه أنّ الألف والنون في ظهرانيهم زائدتان للتأكيد وان أوهم أنهما للتثنية حيث قال في تفسيره: "ظهراً منهم قدّامهم وظهراً وراءهم"[1].

ثُمَّ ذكر في حاشية كتابه: ومعنى كون الشيء بين أظهر القوم وبين ظهرانيهم، كونه في وسطهم. ولعلّ أصله أن يكون الرجل في الوسط ويحيط به القوم جاعلين ظهورهم نحوه ووجوههم نحو الخارج للمدافعة عنه، ثم استعمل في مطلق احاطة القوم بشيء وان لم يكن كذلك. ويحتمل أن يكون المراد من الأظهر، الأعمّ من الأظهر والوجوه، فإذا كان الرجل في وسط الناس كان بين صدور جمع وأظهر آخرين. وهذا أظهر[2]. وأيّاً كان الأمر فالمعنى واضح من قولها عليها السلام.

ثُمَّ وصفت بعد ذلك كتاب الله الذي هو كائنٌ بين أظهرهم غير بعيد عنهم، بأنَّ أموره ظاهرةٌ وأحكامه زاهرةٌ... إلى آخر حديثها في هذه الفقرة.

معنى قولها عليها السلام: «ثُمَّ لَمْ تَلْبَثُوا إِلاَّ رَيْثَ أَنْ تَسْكُنَ نَفْرَتُهَا وَيُسْلَسَ قِيَادُهَا ثُمَّ أَخَذْتُمْ تُورُونَ وَقْدَتَهَا وَتُهَيِّجُونَ جَمْرَتَهَا، وَتَسْتَجِيبُونَ لِهُتَافِ الشَّيْطَانِ الْغَوِيِّ، وَإِطْفَاءِ أَنْوَارِ الدِّينِ الْجَلِيِّ وَإِهْمَالِ سُنَنِ النَّبِيِّ الصَّفِيِّ».

الرَيْثَ: الإبطاء؛ راث يريث ريثاً: أبطأ؛ قال:

---

(١) الزهراء وخطبة فدك: ٩٧، ٩٨.

(٢) الزهراء وخطبة فدك: ٩٧.

والريث أدنى النجاح الذي … تروم فيح النجح من خلسه

وراث علينا خبره يريث ريثاً: أبطأ. وفي المثل: رب عجلةٍ وهبت ريثاً؛ ويروى: تهب ريثاً؛ والمعنى واحد، من الهبة. وما أراثك علينا؟ أي ما أبطأ بك عنا؟ وفي حديث الاستسقاء: عجلاً غير رائث أي غير بطيءٍ. وفي الحديث: وعد جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أن يأتيه فراث عليه.

ورجل ريث، بالتشديد، أي بطيء؛ عن ابن الاعرابي.

وتريث فلانٌ علينا أي أبطأ؛ وقيل: كل بطيء ريث؛ وأنشد:

لَيْهنِئْ تُراثي لامْرِئٍ غَيْرِ ذِلّةٍ … صنَابِرُ أُحْدانٌ لَهُنّ حَفِيفُ

سَريعاتُ مَوتٍ رَيّثاتُ إفاقةٍ … إذا ما حُمِلْنَ حَمْلُهُنّ خَفِيفُ

والاستراثة: الاستبطاء. واستراثه: استبطأه. واستريثته: استبطأته. وفي الحديث: كَانَ إذا اسْتَراثَ الخَبَرَ، أي اسْتَبْطَأَ: تَمَثَّلَ بقول طَرَفَةَ:

و يَأْتِيكَ بالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

هو استفعل، من الريث.

وريث عما كان عليه: قصر؛ وريث أمره كذلك. ونظر القناني إلى بعض أصحاب الكسائي فقال: إنه ليريث النظر؛ وفي بعض الروايات: إنه ليريث إلي النظر.

الفرّاء: رجل مريث العينين إذا كان بطيء النظر. وما فعل كذا إلا ريث ما فعل كذا؛ وقال اللحيان عن الكسائي والأصمعي: ما قعدت عنده إلا ريث أعقد شسعي، بغير أن، ويستعمل بغير ما ولا أن؛ وأنشد الأصمعي لأعشى باهلة:

لا يُصْعِبُ الأَمرَ إلاّ رَيْثَ يَرْكَبُه … وكلّ أمرٍ سِوى الفَحْشاء يأْتَمِرُ

وهي لغة فاشية في الحجاز؛ يقولون: يريد يفعل أي أن يفعل؛ قال ابن الأثير:

وما أكثر ما رأيتها واردة في كلام الشافعي. ويقال: ما قعد فلانٌ عندنا إلا ريث أن حدثنا بحديث ثم مر، أي ما قعد إلا قدر ذلك؛ قال الشاعر يعاتب فعل نفسه:

لا تَرْعَوي الدَّهْرَ إلاّ رَيْثَ أُنْكِرُها أَنْثُو بذاكَ عليها لا أُحاشِيها

وفي الحديث: فلم يلبث إلا ريثما قلت؛ أي إلّا قدر ذلك[١].

والمعنى: لم تلبثوا الّا قليلاً من الزمن بعد اقدامكم على غصب الخلافة، حتّى تعرضتم لمثل هذه الفتن، عندما سهلت لكم السلطة الانحراف عن الصراط المستقيم، ففي وقت قليل تبدّلتم وغصبتم الخلافة وتقمصتم بها فلبستم ثوباً ليس ثوبكم، وهو ثوب لمن له الأهليّة للرئاسة الإلهيّة على المجتمع. وقد شبهت الخلافة الباطلة في صعوبة أمرها بالدابة الشاردة التي يصعب قيادها، ثم قالت عليها السلام: أوقدتم ناراً ملتهبة بعقدكم الخلافة لأفراد لا صلاحية لهم، وأبعدتم الأمر عن أهل بيت نبيكم، فاتبعتم هتاف الشيطان بان تورون للجمرة حيناً بعد حين، وتغصبون الخلافة زمناً بعد زمن، فقد حاولتم إطفاء نور الدين الجلّي واخماد سنن النبيّ الصفي صلى الله عليه وآله وسلم فجعلتم سنته خامدة[٢].

معنى قولها عليها السلام: «تَشْرَبُونَ حَسْواً فِي اِرْتِغَاء وَتَمْشُونَ لِأَهْلِهِ وَوُلْدِهِ فِي اَلْخَمْرَةِ وَالضَّرَاءِ وَيَصِيرُ مِنْكُمْ عَلَى مِثْلِ حَزِّ اَلْمُدَى وَوَخْزِ اَلسِّنَانِ فِي اَلْحَشَا».

الظاهر أنّه تسرّون لا تشربون، والسرّ فيه: ما أورده الميداني فإنّه قال:

يُسِرُّ حَسْواً فِي ارتغاء وَيَرْمِي بأمثال القَطا فُؤَادَهُ

الارتغاء: شرب الرِّغوة.

---

(١) لسان العرب ٥: ٣٨٦.

(٢) شرح خطبة الصديّقة فاطمة الزهراء: ٢٢٠، ٢٢١.

قال أبو زيد والأصمعي: أصلُه الرجلُ يؤتَى باللّبن؛ فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة، ولا يريد غيرها، فيشربها، وهو في ذلك ينال من اللبن.

يضرب لمن يريك أنَّه يعينك، وإنما يجر النَّفع إلى نفسه، قَالَ الكُمَيْتُ:

فَإني قَد رَأيتُ لَكُم صُدُوداً وتَحْسَاءِ بِعِلّةٍ مُرْتَغِيناً[1]

بل عليه كافّة شرّاح الخطبة الشريفة، ومنهم من شرح الخطبة الواردة في كتاب الاحتجاج للطبرسي.

ما استظهره بعض الأعلام

واستظهر الخاقاني أنَّ المراد بالضمير هو الشيطان، فقال: الظاهر أنَّ ضمير أهله وولده يرجع إلى الشيطان، أي: انكم تسّرون أمراً، والحال أنَّكم بكلّ واقعكم تمشون للشيطان وأهل الشيطان وأولاده، وهو كناية عمّن يفعل أفعال الشيطان من الناس ويحاول سترها بظاهر ديني وان فعلكم هذا وان كنتم لا تشعرون أصبحتم توقعون أنفسكم في صعاب الأمور والخسران المبين[2].

وإن احتمل في المقام أنَّ المراد به أهل البيت عليهم السلام، فقال: وإن كان من المحتمل ان تريد من الأهل والولد أهل البيت ومن سعى سعيهم بمعنى انكم تخفون شيئاً وتظهرون السير لأهل البيت في سراءكم وضراءكم خديعة وكذباً[3].

ولا معنى للاحتمال الأوّل الذي استظهره؛ لأنَّ الماشي إليه يمشي إليه مطلقاً،

---

(١) مجمع الامثال ٢: ٤٤٢.

(٢) شرح خطبة الصديّقة فاطمة الزهراء: ٢٢٢.

(٣) شرح خطبة الصديّقة فاطمة الزهراء: ٢٢٢.

أي: في السرّاء والضرّاء.

أضف إليه وجود قرينةٍ على المراد، وهي قولها عليها السلام: «وَيَصِيرُ مِنْكُمْ عَلَى مِثْلِ حَزِّ اَلْمُدَى وَوَخْزِ اَلسِّنَانِ فِي اَلْحَشَا». أي: أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم -بعد أن تصيبكم الضرّاء وتلجأون إلى أهل بيته- يصير حاله حال المحزوز بالمدى، الموخوز في الحشا، لأنّه أرشدكم إليهم فلم تكترثوا، وقال فيهم ما قال ولم تحسبوا حساباً لهم. نعم، يبقى شيءٌ لاثبات ذلك، وهو اطلاق ولده وأهله ولم يكن الحسن والحسين عليهما السلام كبيرين.

الّا أنّه قابلٌ للدفع جدّاً بملاحظة عصمتهما، وعدم الفرق في ذلك بين صغيرهم وكبيرهم. أضف إليه أنّها أشارت لهم، ولم تخصّهم بزمانٍ دون زمانٍ.

ومنه يظهر ضعف ما عليه الخاقاني، إذ المعنى: أنَّهم يمشون لأهل البيت حقيقةً ولاحتياجاتهم لهم عليهم السلام، ولا يمشون إليهم خداعاً وكذباً.

ويمكن أن يكون بعض ما حكم به الإمام عليٌّ في مستعصيات الأمور شاهداً عليه، ويكون قول عمر: (لاَ أَبْقَانِيَ اللهُ لِمُعْضَلَةٍ لَيْسَ لَهَا أَبُو الحَسَنِ) شاهداً آخر عليه، ويمكنك أن تراجع في ذلك بحار الأنوار[1].

معنى قولها عليها السلام: «وَأَنْتُمُ اَلْآنَ تَزْعُمُونَ: أَنْ لاَ إِرْثَ لَنَا، أَ فَحُكْمَ اَلْجاٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اَللّٰهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟! أَفَلاَ تَعْلَمُونَ؟ بَلَى قَدْ تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ اَلضَّاحِيَةِ: أَنِّي اِبْنَتُهُ».

من هنا بدأت السيّدة فاطمة عليها السلام بالتدّرج في بيان أنَّ أرض فدك حقٌّ لها لا يمكن أن ينازعها أحدٌ فيه مهما كان زعمه، إذ بيّنت أوّلاً أنَّ الإسلام قد كفل حقّ

(١) راجع المجلد رقم: ٤٠.

المرأة في الميراث كسائر الذين كفل الله حقّهم، بخلاف أحكام تلك الحقبة الجاهليّة التي كانت المرأة لا ترث شيئاً، فهل تريدون فعلاً حكم الجاهليّة أن يسود؟ فتحكمكم أعرافكم وتنزلكم نفسوكم أسفل سافلين، ومن أفضل، حكم الله أم حكمكم أيّها الجاهليون؟ وهذا إستدراج منها كي يعترفوا بحقّها وبخبث من ظلمها وعاداها.

كلامها عليها السلام في بيان حقها وإرثها واعتراضها على أبي بكر

معنى قولها عليها السلام: «أَيُّهَا اَلْمُسْلِمُونَ، أَأُغْلَبُ عَلَى إِرْثِي؟ يَا اِبْنَ أَبِي قُحَافَةَ أَفِي كِتَابِ اَللَّهِ تَرِثُ أَبَاكَ وَلاَ أَرِثُ أَبِي؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيًّا! أَفَعَلَى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتَابَ اَللَّهِ وَنَبَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ؟ إِذْ يَقُولُ: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ[1] وَقَالَ: فِيمَا اِقْتَصَّ مِنْ خَبَرِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا إِذْ قَالَ: فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ[2] وَقَالَ: وَأُولُوا اَلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اَللَّهِ[3] وَقَالَ: يُوصِيكُمُ اَللّه فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ اَلْأُنْثَيَيْنِ[4] وَقَالَ: إِنْ تَرَكَ خَيْراً اَلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَاَلْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى اَلْمُتَّقِينَ[5] وَزَعَمْتُمْ: أَنْ لاَ حُظْوَةَ لِي وَلاَ أَرِثَ مِنْ أَبِي، وَلاَ رَحِمَ بَيْنَنَا، أَفَخَصَّكُمُ اَللَّهُ بِآيَةٍ

(١) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٢) سورة مريم، الآية: ٥، ٦.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ١١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

أَخْرَجَ أَبِي مِنْهَا؟ أَمْ هَلْ تَقُولُونَ: إِنَّ أَهْلَ مِلَّتَيْنِ لاَ يَتَوَارَثَانِ؟ أَوَ لَسْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ؟ أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَابْنِ عَمِّي».

ابتدأت بالاستفهام الانكاري التوبيخي، لمّا أنكرت على جماعة المسلمين أخذهم فدك بلا حقّ ولا مسوغٍ بدليل سوقها الآيات على كونها أهلاً لذلك الإرث.

وفي هذا المقام يجدر بنا أن نذكر بعضاً مما قاله السيّد الشهيد قدس سره: هل يمكننا أن نقبل أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجرّ على أحبّ الناس إليه وأقربهم منه البلايا والشدائد وهي التي يغضب لغضبها ويسرّ لسرورها وينقبض لانقباضها، ولم يكن ليكلّفه دفع هذه المحن عنها أكثر من إعلامها بحقيقة الأمر لئلّا تطلب ما ليس لها بحقّ، وكأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لذّ له أن ترزى ابنته، ثمّ تتّسع هذه الرزية فتكون أداة اختلاف وصخب بين المسلمين عامّة، وهو الذي ارسل رحمة للعالمين، فبقي مصرّاً على كتمان الخبر عنها مع الإسرار به إلى أبي بكر[1]؟

هذا، وقولها عليها السلام: «يَا اِبْنَ أَبِي قُحَافَةَ أَفِي كِتَابِ اَللَّهِ تَرِثُ أَبَاكَ وَلاَ أَرِثُ أَبِي لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيًّا» تعريض بالأوّل من ناحيتين:

الأولى: قولها يا ابن أبي قحافة فيه التهكم والتعريض فهي تشير إلى تاريخه وتربط ماضيه بحاضره، فأبو قحافة هو ذلك الداخل في الإسلام سنة ٨ من الهجرة أي: بعد أن فتح النبيّ مكّة وكان فيما نقله الصميري: أجيراً لليهود يعلم أولادهم كما نقل الشيخ مفلح الصيمري نفسه اجماع أهل السير والنسّابين ذلك[2].

---

(١) فدك في التاريخ: ١٥١.

(٢) الجليّة في شرح الخطبة الشقشقيّة: ٢٥.

الثانية: قولها المذيّل بجئت شيئاً فريّاً دالٌ عليه قطعاً.

وبعد ذلك تلت السيّدة فاطمة عليها السلام الآيات البيّنات الدّالة على الحكم الذي أجمع المسلمون عليه قبل أن تذكره، وبعد أن تذكره.

فمن منا لا يعرف قانون الوراثة الذي طالما صرّح ربنا في كتابه المجيد به، ونادى به كلّ رسله وأنبياءه المشرّعين عليهم السلام، فهذا سليمان عليه السلام، وذاك داوود عليه السلام، ويعقوب عليه السلام.

نعم، هذه الوراثة أعمّ من وراثة الدور والدنانير، وهذا أمر لا نشكّ فيه ولا نرتاب.

ثُمَّ ما أعظم الاستفهامات الأخيرة التي ألجمت بها أفواههم.

أفخصّكم الله بآية أخرج منها أبي؟

أم هل تقولون إنَّ أهل ملّتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملّةٍ واحدةٍ؟

أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟

وأنت ترى عدم وجود آيةٍ أخرج فيها النبيّ، فيبقى عموم القرآن محكّماً دالّاً على التوريث.

نعم، قد يصار إلى التخصيص بعد إبراز الخاصّ، ولكنّه غير موجود منه الّا دعواه التي تحتاج إلى بسطٍ في الكلام ليس هنا محلّه.

ومن أعلم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام بعموم الكتاب وخصوصه، ومحكمه ومتشابهه وفرضه ونفله، وإطلاقه وتقييده، وناسخه ومنسوخه.

والحظوة: بكسر الحاء وضمها وسكون الضاء المعجمة: المكانة والمنزلة،

ويقال: حظيت المرأة عند زوجها، إذا دنت من قلبه[١].

والهاء في إرثيه –في غير رواية الطبرسي– للسكت، والمقصود: إرثي، وهو نظير قوله تعالى: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ*إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[٢].

وهذه الهاء يقال لها هاء الوقف تثبت في الوقف وتسقط في الوصل، وقرئ باثباتها في الوصل أيضاً[٣].

نعم، جاء في الكشف: فزعمتم أن لا حظّ لي ولا ارث لي من أبيه.

والحظوة: تناسب دعوى النحلة دون الإرث.

والحظّ يناسب دعوى الإرث. أفاد ذلك الشريعتمداري[٤]، فتأمّله جيّداً.

لكنّ ابن منظور حكى عن ابن الأنباري: الحِظى والحظُوة، وجمع الحظى احظٍ ثُمَّ أحاظ، ورجلٌ له حُظوة وحِظوة، أي: حظٌّ من الرزق[٥].

وقفةٌ مع السيّد شبّر

قال السيّد: وقال فيما [اقتص][٦] من خبر يحيى بن زكريا عليه السلام إذ قال: ﴿رب

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٧٩.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٩ ـ ٢٠.

(٣) لاحظ: اللمعة البيضاء: ٦٥٠.

(٤) الزهراء وخطبة فدك: ١٠٢.

(٥) لسان العرب ٤: ٢٣٣.

(٦) قال الشيخ علي الأسدي محقّق كتاب كشف المحجّة: جاء في الأصل: اقتضى، وما اثبتاه هو الصحيح الموافق للنسخة "ب"، وكذلك رواية الكشف والطرائف وشرح الاخبار. وورد في البلاغات والدلائل: "قص".

هب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من ال يعقوب﴾ ولعلّها عليها السلام حكت خلاصة معنى الآية، أو أنّها كانت هكذا، فحرفت، وإلّا فالموجود في القرآن الذي في أيدينا هكذا: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾[1][2].

أقول: أوّلاً: في رواية الطبرسي التي يشرح نصّها لم ترد لفظة (ربِّ)، بل ذكرت عليها السلام بعضاً من الآيتين: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[3].

ثانياً: لا موجب لقوله: لعلّها حكت خلاصة معنى الآية، لما عرفت بما لا مزيد عليه.

ثالثاً: أخطأ عندما قال: أو أنّها كانت هكذا فحرفت، والّا فالموجود في القرآن الذي بأيدينا... .

وهذا القول مخالف لما عليه محققّو الإمامية جيلاً بعد جيل، ولقد أشار السيّد الخوئي إليهم بقوله: وقد نسب جماعة القول بعدم التحريف إلى كثير من الأعاظم، منهم شيخ المشايخ المفيد، والمتبحّر الجامع الشيخ البهائي، والمحقّق القاضي نور الله، وأضرابهم.

وممّن يظهر منه القول بعدم التحريف كلّ من كتب في الإمامة من علماء الشيعة، وذكر فيه المثالب، ولم يتعرّض للتحريف، فلو كان هؤلاء قائلين بالتحريف لكان ذلك أولى بالذكر من إحراق المصاحف وغيره.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥.

(٢) كشف المحجّة: ١٠١.

(٣) سورة مريم، الآية: ٥، ٦.

وجملة القول: إنَّ المشهور بين علماء الشيعة ومحقّقيهم، بل المتسالم عليه بينهم، هو القول بعدم التحريف[(١)].

ومنه يتبيّن أنَّ قولها: "اقتصّ" يقرأ بالمضارع دون غيره، وكأنّها عليها السلام أراد أن تقول: وقال فيما أريد أن أقتصّ منه بمقدار حاجتي.

معنى قولها عليها السلام: «فَدُونَكَهَا مَخْطُومَةً مَرْحُولَةً تَلْقَاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ، فَنِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ، وَالزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيَامَةُ، وَعِنْدَ السَّاعَةِ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ، وَلاَ يَنْفَعُكُمْ إِذْ تَنْدَمُونَ، وَلِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ».

دونك: الدال والواو والنون أصل واحد، يدل على المداناة والمقاربة، يقال: هذا دون ذاك، أي: هو أقرب منه... ويقال في الإغراء: دونَكَهُ، أي: خذْه، اقرُبْ منه، وقرّبة منك.

قال النحويون: (دونك) من الظروف المنقولة لتستعمل أسماء أفعال بمعنى خُذ.

وهي كمعنى فعلها تتعدّى، تقول: دونك الكتاب، أي: خذ الكتاب، وترد لازمةً بمعنى: تأخر. أنشد أبو زيد:

أَعَيّاشُ قَد ذاقَ القُيونُ مَرارَتي وَأَوقَدتُ ناري فَادنُ دونَكَ فَاصطَلِ

(دونك): اسم فعل أمر بمعنى الزم أو ادنُ، كأنه قال: ادنُ ادنُ.

وجاء في حديث طلحة: رَمَى إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بِسَفَرْجَلَةٍ وَقَالَ: دُونَكَهَا، فَإِنَّهَا تُجِمُّ الْفُؤَادَ، أي تُريحه.

---

(١) البيان في تفسير القرآن: ٢٠١.

دونك: بمعنى خذ.

قال ابن منظور: دون اسم فعل أمر بمعنى خُذ، يُقال: دونك الشيء، ودونك به، أي: خذه، ويقال في الإغراء بالشيء: دونكه.

قالت تميم للحجّاج: أقبرنا صالحاً؛ وقد كان صلبه، فقال: دونكموه.

قال ابن الاعرابي: يقال ادن دونك، أي: اقترب، ومعناها الأمر، ويقال: دونك الدرهم، أي: خذه، وفي الإغراء: دونك زيداً، أي: الزم زيداً في حفظه[١].

الّا أنَّ بعض أهل التحقيق قال: يتفق النحاة على أنها بمعنى فعل الأمر (خذ).

وفي ظني أنها تؤدي هذا المعنى إذا تبعها ما يدل على شيء مادي، كما مثلوا بالعبارة: دونك زيداً، وكما استعملها ابن هشام في خطبة كتابه (مغني اللبيب) حيث قال: (فدونك كتاباً تشد الرحال فيما دونه).

فاذا كان ما بعدها يدل على أمر معنوي اقترب من معنى (عليك) أي: الزم، وهذا ما قد يفهم من التفسير الذي يقدمه سيبويه للعبارتين: (دونك زيداً، وعندك زيداً) تأمره به، ومثل ذلك يفهم من قول المبرد: (عليك زيداً، ودونك زيداً إذا أغريته)، ومن قول ابن عصفور: (تقول عليك زيداً، ودونك زيداً، وعندك زيداً أذا أمرته به).

حتى إن بعض المستشرقين فسرها بمعنى (الزم أو تقدم) اعتماداً على ما يفهم من عبارات نقلت في نصوص نثرية كما في (دونك صراعي، ودونكم لا تقيلوهم، ودونك فتمرس بي)[٢].

---

(١) معجم أسماء الأفعال: ٨٠، ٨١.

(٢) أسماء الأفعال واسماء الأصوات في اللغة العربية: ١٥٦، ١٥٧.

«ومَخْطُومَةً مَرْحُولَةً»: كلّ ما يدخل في أنف البعير ليقاد به وهو الزمام[١].

والرحل في المصباح: كلّ شيء يعدّ للرحيل من وعاء للمتاع ومركب للبعير[٢].

وهي عليها السلام قد شبّهت فدكاً بالناقة المهيأة للركوب المنقادة لصاحبها، وتوعّدت أبا بكر بسوء العاقبة والخسران المبين الذي سيلقاه من الله تعالى إذا احتكمت إليه وإلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أحسن من الله ظهيراً.

كلامها عليها السلام لخصوص الأنصار واستنهاضهم

معنى قولها عليها السلام[٣]: «يَا مَعْشَرَ اَلنَّقِيبَةِ وَأَعْضَادَ اَلْمِلَّةِ وَحَضَنَةَ اَلْإِسْلاَمِ، مَا هَذِهِ اَلْغَمِيزَةُ فِي حَقِّي وَالسِّنَةُ عَنْ ظُلاَمَتِي؟ أَمَا كَانَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَبِي يَقُولُ اَلْمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ؟ سَرْعَانَ مَا أَحْدَثْتُمْ، وَعَجْلاَنَ ذَا إِهَالَةٍ وَلَكُمْ طَاقَةٌ بِمَا أُحَاوِلُ، وَقُوَّةٌ عَلَى مَا أَطْلُبُ وَأُزَاوِلُ».

قال العلّامة المجلسي: المَعْشَرَ: الجماعة..، والفتية بالكسر: جمع فتى وهو الشاب الكريم السخي.. وفي المناقب: يا معشر البقية واعضاد الملّة، وحصنة الإسلام، وفي الكشف: يا معشر البقية، ويا عماد الملّة، وحصنة الإسلام... والأعضاد جمع عَضد بالفتح: الأعوان. يقال: عضَدتُه كنصرته لفظاً ومعنى[٤].

---

(١) لاحظ: لسان العرب ٤: ١٤٦.

(٢) المصباح المنير: ٢٢٢.

(٣) قالت ذلك بعد أن التفتت إلى الأنصار.

(٤) بحار الأنوار ٢٩: ١٨٠.

وقال الشريعتمداري: وفي اللمعة البيضاء: يا معشر النقيبة، قال: "والمراد بالنقيبة الطائفة النجيبية الفاضلة". ولم أجده في اللغة ولا في النسخ[١].

ويرد عليه: أنَّ الوارد في نسخة الاحتجاج هو ما ذكره العلّامة التبريزي، فراجعه.

أمّا عن عدم وجوده في اللغة فهو موجودٌ بالمعنى لا باللفظ، وكأنّ العلّامة اقتنص هذا المعنى من أرباب اللغة[٢].

ثُمَّ اختلف الأعلام في تحديد معنى اَلْغَمِيزَةُ.

فقال العلّامة: قال الجوهري: ليس في فلان غَمِيزَة، أي: مطعن. ونحوه ذكر الفيروز آبادي وهو لا يناسب المقام إلّا بتكلّف. وقال الجوهري: رجل غَمَز، أي: ضعيف. وقال الخليل في كتاب العين: الغَمِيزةَ بفتح الغين المعجمة والزاي: ضعْفة في العمل وجهْلة في العقل، ويقال: سمعت كلمّة فاغتمزتها في عقله، أي: علمت أنّه أحمق... وهذا المعنى أنسب[٣].

وقال التبريزي: ويمكن أن تكون الغميزة مصدرا من قولهم: غمزه غمزا أشار إليه بعين أو حاجب، فتكون الغميزة النظر الضعيف الخفي، ويكون كناية عن النوم والغفلة فيناسب الفقرة الأخيرة، أو هو من قولهم: غمز الدابة في مشيها غمزا وهو شبه العرج، فيكون المراد من الغميزة التعلل والثقل وعدم الانتهاز والحركة، وحاصله

---

(١) الزهراء وخطبة فدك: ١٠٤.

(٢) لاحظ: لسان العرب: ١٤: ٢٥٠ - ٢٦٠.

(٣) بحار الأنوار ٢٩: ١٨٠.

المسامحة[١].

وردّ عليه الشريعتمداري منتصراً للعلّامة: ولا يمكن قبول ما ذكره.

أمّا أوّلاً: فلأنّ المصدر من الفعلين المذكورين هو الغمز، ولم تستعمل الغميزة الّا بمعنى المغمز والمطعن والنقيصة والضعف في العقل أو العمل.

وأمّا ثانياً: فلأن الغمز بمعنى الإشارة بالعين أو الجفن أو الحاجب لا يكنّى به عن الضعف والنوم والغفلة. والغمز بمعنى ظلع الدابة وميلها من رجلها انّما يناسب من يتحرك حركة ضعيفة دون من لا يتحرك أصلاً. فالوجه ما ذكره المجلسي قدس سره ولا مزيد عليه[٢].

والحقّ مع الأخير، إذ لا يكون المصدر على فعيل، إلّا إذا كان الفعل الثلاثي المجرّد دالّاً على السير، نحو: رحل رحيلاً، أو دالّاً على الصوت، نحو: صهل الفرس صهيلاً[٣]. أضف إليه عدم إرادتها عليها السلام الكناية عن النوم بالغفلة لأنّه ملحوقٌ بما هو أضعف منه، وأعني: السنة.

معنى قولها عليها السلام: «سَرْعَانَ مَا أَحْدَثْتُمْ، وَعَجْلاَنَ ذَا إِهَالَةٍ».

قال فيه العلّامتان: ولعلّ أصل المثل كان بلفظ عجلان كما في الخطبة فاشتبه على الفيروز آبادي أو غيره، أو كان كلٌّ منهما مستعملاً في هذا المثل[٤].

---

(١) اللمعة البيضاء: ٦٥٨.

(٢) الزهراء وخطبة فدك: ١٠٥.

(٣) لاحظ: قاموس تصريف الأفعال والاسماء: ٤٢.

(٤) بحار الأنوار ٢٩: ١٨٠، اللمعة البيضاء: ٦٦٢.

والحقّ فيه خلاف ما صرّح به العلّامتان، وذلك: أنّ الكتب تعجّ بالمثل المعروف: "سرعان ذا إهالة"، وإليك بعضاً ممّا ورد:

قال الميداني: سرعان: بمعنى سرع، نقلت فتحة العين إلى النون فبنى عليها، وكذلك وشْكان وعجّلان وشتّان، قال الخليل: هي ثلاث كلمات سرْعان، وعجْلان، ووشْكان، وفي وشْكان وسرْعان ثلاث لغات: فتح الفاء، وضمها، وكسرها، تقول العرب: لسرْعان ما خرجْت، ولسرْعان ما صنعْت كذا.

وأصل المثل أن رجلاً كانت له نعْجة عجْفاء، وكان رغامها يسيل من منخريها لهزالها، فقيل: ودكها، فقال السائل: سرْعان ذا إهالةً: نصب إهالة على الحال، وذا: إشارة إلى الرّغام، أي سرع هذا الرغام حال كونه إهالة، ويجوز أن يحمل على التمييز على تقدير نقل الفعل، مثل قولهم: تصبب زيدٌ عرقاً.

يضرب لمن يخبر بكينونة الشيء قبل وقته[1].

وقال أيمن الشّوا: ومن أمثال العرب: (سَرعانَ ذا إهالةً).

سرعان: اسم فعل مضارع لـ (يسرع)، مبني على الفتح، الإهانة: الشحم، وأصل هذا المثل أنّ رجلاً كان يُحمَّقُ، اشترى شاةً عَجْفَاء، يسيل رُغامها هُزَالاً وسوء حالٍ، فظنّ أنه وَدَكٌ فقال: سَرْعَان ذا إهالة[2]. نعم، يبقى علينا كيفيّة تخريج كلامها لمعرفة مرامها، فنقول: لمّا رأت السيّدة البليغة فاطمة الزهراء عليها السلام أنّ عجلان فيه العجلة والسرعة عبّرت به، لأنّه حاوٍ على المعنيين. بخلاف ما لو قالت: سرعان، فإنّه دالٌّ على السرعة دون العجلة.

---

(١) مجمع الامثال ٢: ٩٨.

(٢) معجم أسماء الأفعال في اللغة الغربية: ٨٦.

ثُمَّ من قال بالوقف على ما قالته العرب، وما مثّلت به؟ خصوصاً إذا كان هناك معنى لا يتحقّق إلّا بالتغيير، كما فعلته عليها السلام.

وعلى تقدير وجود القائلين بالوقف، فهل يلزم على مثل الزهراء أن لا تتجاوزه؟

وقد ظهر لك اندفاع ما قاله السيّد عبد الله شبّر: مع أنّهما مترادفان[1].

معنى قولها عليها السلام: «أَتَقُولُونَ مَاتَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟ فَخَطْبٌ جَلِيلٌ: اِسْتَوْسَعَ وَهْنُهُ وَاسْتَنْهَرَ فَتْقُهُ وَانْفَتَقَ رَتْقُهُ، وَأَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِغَيْبَتِهِ، وَكَسَفَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَانْتَثَرَتِ النُّجُومُ لِمُصِيبَتِهِ، وَأَكْدَتِ الْآمَالُ، وَخَشَعَتِ الْجِبَالُ، وَأُضِيعَ الْحَرِيمُ، وَأُزِيلَتِ الْحُرْمَةُ عِنْدَ مَمَاتِهِ، فَتِلْكَ وَاللَّهِ النَّازِلَةُ الْكُبْرَى، وَالْمُصِيبَةُ الْعُظْمَى، لاَ مِثْلُهَا نَازِلَةٌ، وَلاَ بَائِقَةٌ عَاجِلَةٌ، أَعْلَنَ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فِي أَفْنِيَتِكُمْ، وَفِي مُمْسَاكُمْ، وَمُصْبَحِكُمْ، يَهْتِفُ فِي أَفْنِيَتِكُمْ هُتَافاً، وَصُرَاخاً، وَتِلاَوَةً، وَإِلْحَاناً، وَلَقَبْلَهُ مَا حَلَّ بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، حُكْمٌ فَصْلٌ، وَقَضَاءٌ حَتْمٌ: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ اِنْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشّاكِرِينَ[2]».

أتقولون مات محمّدٌ صلى الله عليه وآله؟

أي: أتجترئون علينا أهل البيت من هذه الجهة، أو تظنون أن محمداً صلى الله عليه وآله مات

(١) كشف المحجّة: ١١٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

ولا تلاقونه بعد ذلك أبدا، وأن المؤمنين لا يموتون، بل ينقلون من دار الدنيا إلى دار الآخرة، فسوف يخاصمكم فيما تعملون، أو تظنون أنه لا يرى أعمالكم وأفعالكم ولا يسمع أقوالكم، وانما هو ناظر إليكم مشرف عليكم يرى ويسمع، وأنتم بمرأى منه ومسمع[١].

والخطاب لا زال للأنصار خلافاً لمن توهم أنَّه للمهاجرين والأنصار[٢].

والدليل عليه قولهم: ثُمَّ رمت بطرفها نحو الأنصار، وقولها بعد ذلك: إيهاً بني قيلة، وبنو قيلة هم الأوس والخزرج، قبيلتا الأنصار.

والخطب بفتح الخاء وسكون الطاء: الشأن عظم أو صغر، وقيل: الأمر العظيم، ومرادها: عليها السلام الأمر العظيم الجلل.

واستنهر من النَّهر بالتحريك بمعنى السعة، والفتق الشقّ، والرتق ضدّه، والوهي -كالرمي- الشقّ والخرق، يقال: وَهّي الثوب إذا بلى وتخرّق واستوسع.

معنى قولها عليها السلام: «وَأَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِغَيْبَتِهِ، وَكَسَفَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَانْتَثَرَتِ النُّجُومُ لِمُصِيبَتِهِ».

وكلامها عليها السلام: يؤدّي لمعنى: أنَّ النبيّ كان نوراً وضياءً فلمّا مات أحييت بعده الفتن وعاش الفاسقون في دعةٍ وراحةٍ.

وكسفت الشمس والقمر، فالكسوف ظاهرةٌ كونيّة تحدث للشمس لا للقمر، وتسمّى الظاهرة الأخرى بخسوف القمر، وهي: أنَّ الأرض تحول بين ضوء الشمس

---

(١) اللمعة البيضاء: ٦٦٣.

(٢) شرح خطبة الصدّيقة فاطمة الزّهراء: ٢٢٧.

وبينه، حيث يختفي ضوؤه أو ينقص، وربما استعملت كسف بمعنى الحجب، فيعمّ الأمرين. وربما قدرت لذلك فعلاً دلّ عليه المقام، فيكون: وكسفت الشمس والقمر خسف أو انخسف. والأوّل أولى بلا شكٍّ.

نقل كلام البحار والاعتراض عليه

وأكدت الآمال: يقال: أكدى فلانٌ، أي: بخل وقل خيره[١].

إلّا أنَّ العلّامة التبريزي قال: من الكدية -بضم الكاف- بمعنى الأرض الصلبة، وأكدي الشيء إذا بلغ إلى الصلب، ومنه أكدى الرجل إذا قل خيره، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾[٢] أي قطع القليل، وأكدت الآمال، أي: قطع خيرها، أي: انقطعت، ولم يبق رجاء فيها، فاكداء الآمال كناية عن انقطاع الرجاء، كما أن خشوع الجبال كناية عن جزعها لموت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو عن الضعف الحاصل للقلوب الراسية كالجبل استعارة عن اختلال حال العترة[٣].

ورجّح الشريعتمداري رأي التبريزي قائلاً: ما ذكره المجلسي قدس سره في معنى أكدى لا يناسب المقام، وإنّما المناسب ما ذكره في اللمعة البيضاء من أنّ الاكداء من الكُدية -بضمّ الكاف- بمعنى الأرض الصلبة، وأكدى إذا بلغ إلى الصلب. قال في المنجد في معاني أكدى: "أكدى الرجل: لم يظفر بحاجته. أكدي الحافز: بلغ الكُدية فلا يمكنه أن يحفر، يقال: حَفَر فأكدى، أي بلغ الصلب وصادف كُدية".

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٨٢.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٤.

(٣) اللمعة البيضاء: ٦٦٤، ٦٦٥.

وعلى هذا فقد شبهّت الآمال بمن يطلب مقصداً ويصادف مانعاً في طريقه فينقطع دون غايته ومقصده[١].

ولعلّ الترجيح أنسب إذا نظرنا إلى فاعل أكدت.

وأضاف الشريعتمداري في حاشيته على نفس الكتاب: قد يوصف المعطي بالاكداء، ومعناه حينئذ: البخل والامساك وقلّة الخير، فكأنه في سبيل إعطائه بلغ كدية فوقف. وقد يوصف السائل وطالب الحاجة بالاكداء وعناه حينئذ عدم الظفر بالمطلوب، والانقطاع دون الغاية، ومصادقة المانع. فلمّا كانت الآمال بمنزلة السائلين والطالبين كان المناسب هو المعنى الثاني دون الأوّل[٢].

وحريم الرجل ما يحميه ويقاتل عنه.

والحرمة: ما لا يحلّ انتهاكه[٣].

وقال العلّامة المجلسي وتبعه الشرّاح: قال بعض الأماثل: واعلم أن الشبهة العارضة للمخاطبين بموت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم امّا عدم تحتّم العمل بأوامره وحفظ حرمته في أهله لغيبته، فإنّ العقول الضعيفة مجبولة على رعاية الحاضر أكثر من الغائب، وإنّه إذا غاب عن أبصارهم ذهب كلامه عن أسماعهم، ووصاياه عن قلوبهم، فدفعها ما أشارت إليه عليه السلام من إعلان الله سبحانه وتعالى وإخباره بوقوع تلك الواقعة الهايلة قبل وقوعها، وإن الموت ممّا قد نزل بالماضين من أنبياء الله ورسله عليهم السلام، تثبيتا للأمة على الايمان، وإزالة لتلك الخصلة الذميمة عن نفوسهم.

---

(١) الزهراء وخطبة فدك: ١٠٨، ١٠٩.

(٢) الزهراء وخطبه فدك: ١٠٨.

(٣) بحار الأنوار: ٢٩: ١٨٢.

ويمكن أن يكون معنى الكلام: أتقولون مات محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وبعد موته ليس لنا زاجر ولا مانع عمّا نريد، ولا نخاف أحداً في ترك الانقياد للأوامر، وعدم الانزجار عن النواهي؟ ويكون الجواب ما يستفاد من حكاية قوله سبحانه: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾[1] الآية، لكن لا يكون حينئذ لحديث إعلان الله سبحانه وإخباره بموت الرسول مدخل في الجواب إلّا بتكلّف.

ويحتمل أن يكون شبهتهم عدم تجويزهم الموت على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كما أفصح عنه عمر بن الخطاب وسيأتي في مطاعنه، فبعد تحقّق موته عرض لهم شكّ في الإيمان ووهن في الأعمال، فلذلك خذلوها وقعدوا عن نصرتها، وحينئذ مدخليّة حديث الإعلان وما بعده في الجواب واضح.

وعلى التقادير لا يكون قولها عليها السلام: فخطب جليل.. داخلاً في الجواب، ولا مقولاً لقول المخاطبين على الاستفهام التوبيخي، بل هو كلام مستأنف لبثّ الحزن والشكوى، بل يكون الجواب بما بعد قولها: فتلك والله النازلة الكبرى... ويحتمل أن يكون مقولا لقولهم، فيكون حاصل شبهتهم أنّ موته صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو أعظم الدواهي قد وقع فلا يبالي بما وقع بعده من المحظورات، فلذلك لم ينهضوا بنصرها والانصاف [والانتصاف] ممّن ظلمها، ولما تضمّن ما زعموه كون مماته صلى الله عليه وآله وسلم أعظم المصائب سلمت عليها السلام أوّلاً في مقام جواب تلك المقدّمة، لكونها محض الحقّ، ثم نبّهت على خطئهم في أنّها مستلزمة لقلّة المبالاة بما وقع، والقعود عن نصرة الحقّ، وعدم اتّباع أوامره صلى الله عليه وآله وسلم بقولها: أعلن بها كتاب الله... إلى آخر الكلام، فيكون حاصل الجواب: أن الله قد أعلمكم بها قبل الوقوع، وأخبركم بأنّها سنة ماضية في السلف

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

من أنبيائه، وحذركم الانقلاب على أعقابكم كي لا تتركوا العمل بلوازم الايمان بعد وقوعها، ولا تهنوا عن نصرة الحق وقمع الباطل، وفي تسليمها ما سلمته أوّلاً دلالة على أنّ كونها أعظم المصائب مما يؤيّد وجوب نصرتي فإنّي أنا المصاب بها حقيقة، وإن شاركني فيها غيري، فمن نزلت به تلك النازلة الكبرى فهو بالرعاية أحقّ وأحرى.

ويُحتمل أن يكون قولها عليها السلام: فخطب جليل، من أجزاء الجواب، فتكون شبهتهم بعض الوجوه المذكورة، أو المركّب من بعضها مع بعض، وحاصل الجواب حينئذ أنّه إذا نزل بي مثل تلك النازلة الكبرى، وقد كان الله سبحانه وتعالى أخبركم بها وأمركم أنّ لا ترتدّوا بعدها على أعقابكم، فكان الواجب عليكم دفع الضيم عنّي والقيام بنصرتي، ولعلّ الأنسب بهذا الوجه ما في رواية ابن أبي طاهر من قولها: وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله.. بالواو دون الفاء. ويُحتمل أن لا تكون الشبهة العارضة للمخاطبين مقصورة على أحد الوجوه المذكورة، بل تكون الشبهة لبعضهم بعضها وللآخر أخرى، ويكون كلّ مقدّمة من مقدّمات الجواب إشارة إلى دفع واحدة منها.

أقول: ويُحتمل أن لا تكون هناك شبهة حقيقة، بل يكون الغرض أنّه ليس لهم في ارتكاب تلك الأمور الشنيعة حجّة ومتمسّك، إلا أن يتمسّك أحد بأمثال تلك الأمور الباطلة الواهية التي لا يخفى على أحد بطلانها، وهذا شائع في الاحتجاج[1].

وردّ عليه الشريعتمداري: لا أدري من هذا الذي سمّاه المجلسي قدس سره بعض الأماثل، واعتنى بنقل كلامه على طوله مع ما فيه من التعسّف! وانّي لأعجب من المجلسي قدس سره في نقله هذا الكلام وهو بمعزل عن التحقيق، إذ لا ريب أنّه لم يكن

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٨٣- ١٨٥.

هناك شبهة حقيقيةً -كما نبّه عليه المجلسي قدس سره- بل ولا شبه شبهة ومتمسّك يتمسّك به في مقام الاحتجاج، وإنّما خرج الكلام مخرج التقريع والتوبيخ على ما ظهر من القوم ممّا كان لا يتوقّع صدوره من مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، فقد سارع قوم من الأمة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اعتلاء زمام الرئاسة والخلافة واغتصاب حقّ العترة، وتخاذل آخرون عن نصرة الرسول وأهل بيته، وهذا هو الذي كان لا يتوقّع صدوره عن مؤمن بالله واليوم الآخر وانّما يليق صدوره بالذين لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا باليوم الآخر، بل يزعمون أنّ محمداً صلى الله عليه وآله قام بتأسيس ملك ورئاسة وهم قد احتوشوه واحاطوا به لينالوا به الدنيا، فمثل هؤلاء لا يراعون أوامر النبي صلى الله عليه وآله ونواهيه الّا ما كان فيهم حيّاً، وأمّا إذ مات فقد أنقضى أمره واضمحلّ دينه، فليتركوه وأهله وليبادروا إلى حيازة منافعهم واجتلاب ميراثه. وهذا هو الذي عبّر الله تعالى عنه بالاقلاب على الأعقاب، وقد صدر من القوم مثل ذلك في غزوة أُحد حيث شاع خبر قتل الرسول صلى الله عليه وآله فانهزموا وفرّوا وزعموا أنّ دين الله قد اضمحلّ وأنّ التوحيد قد بطل، وهمّ قوم أن يرجعوا إلى عبادة الأصنام وأراد بعضهم الاستباق إلى أخذ العهد والأمان من أبي سفيان، فقرعهم الله تعالى بذلك وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾[1]... الآية. ومثل هذا لا يسمّى شبهة ولا متمسَّكاً بل هو الكفر المكنون في الصدور الذي يظهر في الأحيان، وعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان.

وأمّا قولها عليها السلام فخطب جليل استوسع وهنه، إلى آخر ما يجري هذا المجرى، فهو كالجملة المعترضة، فإنها حيث ذكرت عليها السلام موت أبيها استعظمته حقَّ الاستعظام

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

واحتفلت به حقّ الاحتفال، ثم مرّت في بيان ما أرادت من تقريعهم وتوبيخهم بقراءة الآية الكريمة وأشارت إلى أنّ مثل هذه الزلّة قد صدرت قبل ذلك، وأعلن القرآن بها وكرّرت قراءة الآية عليهم صباحاً ومساءً، فلم يكن يتوقعّ منهم صدور تلك الزلّة مرة أخرى بعد تلك التذكرات والانذارات. فتعساً لهم وبُعداً. هكذا ينبغي أن يفسّر هذا الكلام البليغ. وأمّا شبهة عدم موت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلم تكن شبهة، ولم يلتبس الأمر على عاقل، بل كانت شيطنة وخديعة من عمر لإيقاف الناس عن الاشتغال بشيء حتى يجيء أبو بكر، فقد شغل الناس وأذهلهم حتّى بلغ غرضه[1].

وأقول ملخصّاً: إنَّ الحقّ مع الشريعتمداري فيما ذهب إليه، على أنّ ما ذهب إليه من كون الجملة معترضة يكذبه الفاء في "فخطب".

أمّا المنقول من كلام بعض الأماثل كما عبّر العلّامة فليس بصحيحٍ البتة، وذلك أنَّ الاستفهام التوبيخي لا يحتاج إلى جوابٍ؛ لأنّه إخبارٌ في ثوب الاستفهام. ولا أدري كيف لم يتفطّن العلّامة المجلسي، بل والشريعتمداري لمثل هذا الجواب.

أمّا الكلام المستأنف الذي بنى عليه الجواب فلا نحسبه كذلك، لوجود الفاء أيضاً التي هي بمعنى التعقيب لا للاستئناف، كما ادّعاه المدّعي، إذ مجيء الفاء الاستينافيّة محلّ خلاف، ولم ير أكثر المحقّقين صحّته.

معنى قولها عليها السلام: «إِيهاً بَنِي قَيْلَةَ أَأُهْضَمَ تُرَاثُ أَبِي؟ وَأَنْتُمْ بِمَرْأًى مِنِّي وَمَسْمَعٍ، وَمُنْتَدًى وَمَجْمَعٍ تَلْبَسُكُمُ اَلدَّعْوَةُ، وَتَشْمَلُكُمُ اَلْخِبْرَةُ، وَأَنْتُمْ ذَوُو اَلْعَدَدِ وَاَلْعُدَّةِ، وَاَلْأَدَاةِ وَاَلْقُوَّةِ وَعِنْدَكُمُ اَلسِّلاَحُ وَاَلْجُنَّةُ تُوَافِيكُمُ اَلدَّعْوَةُ فَلاَ تُجِيبُونَ،

(١) الزهراء وخطبة فدك: ١١٢-١١٤.

وَتَأْتِيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلاَ تُغِيثُونَ، وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكِفَاحِ، مَعْرُوفُونَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلاَحِ، وَالنُّخْبَةُ الَّتِي انْتُخِبَتْ، وَالْخِيَرَةُ الَّتِي اُخْتِيرَتْ لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ».

أيهاً بفتح الهمزة والتنوين، بمعنى: هيهات، كما أفاد العلّامة المجلسي[1] والشرّاح. نعم، لم يستبعد الشريعتمداري أن تكون ممّا يراد الاستنهاض، لأنّه يقرب من الاستزادة على أنّها (ايهٍ) كما قال[2].

وفي نظري القاصر، أنّ كليهما بعيدٌ:

أمّا الأوّل فإنّ المقام ليس مقام التبعيد، بل هو مقام الزجر.

أمّا الثاني فلأنّ الاستنهاض لا يناسب قولها المتأخّر، أعني: "ألا وقد أرى قد أخلدتم إلى الخفض...".

إن قلت: ألم تر كيف أنّ السيّدة فاطمة عليها السلام تمدحهم بقولها: "وأنتم موصوفون بالكفاح...".

قلنا: هذا مدحٌ لهم بلحاظ حالهم السابق الذي كانوا عليه.

والحاصل: اختلفت النسخ في "إيهاً، أيهاً" بين فتح الهمزة وكسرها، ومع وجود الكسرة إلّا أنّ أخرها الهاء، ومع عدم وجود الكلمّة من رأسٍ.

والذي بين يديّ نسختان برواية عبد الله بن الحسن، ورد في أحدهما مفتوح الهمزة، والآخر مكسورها.

وعلى الكسر يمكن أن تكون بمعنى الزجر، كما قال الليث بذلك[3]، وحكى

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٨٥.

(٢) الزهراء وخطبة فدك: ١١٤.

(٣) لاحظ: معجم أسماء والافعال في اللغة العربيّة: ١ ٥٦.

عنه ابن منظور أيضاً: وإيه وإيهاً في الزجر[١].

وبنو قيلة: هم الأوس والخزرج قبيلتنا الأنصار، وقيلة بالفتح: اسم أمٍّ لهم قديمة، وهي: قيلة بنت كاهل.

قولها عليها السلام: «أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى منّي ومسمع».

أي: أتظلمونني في ميراث أبي، صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أراكم وأسمعكم.

هذا، واحتمل العلّامة التبريزي أن يكون المراد بحيث ترونني، وتسمعون صوتي وصراخي، وهذا أنسب، وكلا المعنيين صحيح من حيث اللغة، والمعنى موقوف على اعتبار المصدر المأخوذ فيه من المعلوم أو المجهول[٢].

لكنّه اشتباه، لأنّها قالت: وأنتم بمرأى مني ومسمع،ولو كانت تعني ما احتمله العلّامة، لقالت: وأنا بمرأى منكم ومسمعٍ.

«وَمُنْتَدًى وَمَجْمَعٍ...».

قال العلّامة المجلسي: والمبتدأ في أكثر النسخ بالباء الموحّدة مهموزاً، فلعلّ المعنى: أنّكم في مكان يبتدأ منه الأمور والأحكام. والأظهر أنّه تصحيف المنتدى بالنون غير مهموزة بمعنى المجلس، وكذا في المناقب القديم، فيكون المجمع كالتفسير له.. والغرض الاحتجاج عليهم بالاجتماع الذي هو من أسباب القدرة على دفع الظلم، واللفظان غير موجودين في رواية ابن أبي طاهر[٣].

ويلاحظ: أنَّ النسخ أغلبها غير مشتملة على هاتين اللفظتين.

---

(١) لسان العرب ١: ٢٩٥.

(٢) اللمعة البيضاء: ٦٧٢.

(٣) بحار الأنوار ٢٩: ١٨٦.

وكذا شرحه على تقدير الوارد أن يكون (مبتدء) فقد قال فيه: فيكون المجمع كالتفسير له.

ويمكن أن يقال: لمّا أخذت الزهراء السمع والرؤية أوّلاً اخذت الانفراد والتجمع ثانياً، فيكون المعنى: أنّكم لم تتأثّروا بكلامي ولم تأخذوا نصحي منفردين ولا مجتمعين، أي: لم تتلقّوا مني النصح ولم تتأثّروا ببعضكم بالقول الحقّ.

هذا، ولابديّة قولنا بالانفراد والتجمع ناشئةٌ من قول الزهراء عليها السلام: و"مجمع".

ثُمَّ الذي صار إليه العلّامة غريبٌ إذ الفرض أنّه يشرح خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام الواردة عن طريق عبد الله بن الحسن، وفيها ورد (منتدى) لا (مبتدء).

و«تَلْبَسُكُمُ اَلدَّعْوَةُ، وَتَشْمَلُكُمُ اَلْخِبْرَةُ...».

أرادت عليها السلام بذلك: وأنتم تحيط بكم الدعوة تلك الإحاطة التامّة، ويعمكم العلم، فلا مجال لأحدكم أن يقول: لم أكن أعلم بما جرى على الزهراء عليها السلام، ولست أدري بمظلوميّتها.

فما لكم قعدتم عن نصرتي، وأنتم ذوو عدّةٍ وعدد، وذوو قوّةٍ وإعانةٍ، فبكم أسباب الظفر والغلبة على من عاداني وظلمني.

فعجباً أن تسمعوا صرختي ولا تستغيثون ولا تتحرّكون، وأنتم المعروفون بالخير والصلاح، ومعروفون بالكفاح ضدّ أهل الفسوق والعصيان، وأنتم المنتخبون لنا، المختارون من قبلنا أهل البيت.

معنى قولها عليها السلام: «قَاتَلْتُمُ اَلْعَرَبَ، وَتَحَمَّلْتُمُ اَلْكَدَّ وَاَلتَّعَبَ، وَنَاطَحْتُمُ اَلْأُمَمَ، وَكَافَحْتُمُ اَلْبُهَمَ، لاَ نَبْرَحُ أَوْ تَبْرَحُونَ نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ، حَتَّى إِذَا دَارَتْ بِنَا رَحَى اَلْإِسْلاَمِ، وَدَرَّ حَلَبُ اَلْأَيَّامِ، وَخَضَعَتْ ثَغْرَةُ اَلشِّرْكِ، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ اَلْإِفْكِ،

وَخَمَدَتْ نِيرَانُ الْكُفْرِ، وَهَدَأَتْ دَعْوَةُ الْهَرْجِ، وَاسْتَوْسَقَ نِظَامُ الدِّينِ فَأَنَّى حُزْتُمْ بَعْدَ الْبَيَانِ؟ وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الْإِعْلَانِ؟ وَنَكَصْتُمْ بَعْدَ الْإِقْدَامِ؟ وَأَشْرَكْتُمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ؟ بُؤْساً لِقَوْمٍ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ، وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

ما زالت الزهراء عليها السلام تعدد مناقب الأنصار القديمة وتشير إلى المكاسب الى حقّقوها مع جملة المسلمين، والتي منها: مقاتلة العرب في نصرة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ومنها: اعلاء كلمّة الإسلام، ومنها: تحملهم الكد والتعب في مجاهدة الكفار، ومنها: مناطحتهم للملّل المختلفة من يهود ونصارى وغيرهم، ومنها أيضاً: كفاحهم الذي كان بلا توانٍ للأبطال والشجعان من العرب وغيرهم.

وكنّا لكم آمرين، وكنتم لأوامرنا مطيعين، حتّى انتظم الأمر، وصلح الناس في معايشهم، فدّر اللبن المحلوب، وعمّ الجميع، وخضع رقاب أهل الشرك والطغيان وبطل الكذب وساد الصدق وهدأت دعوات الهرج والمرج والاضطراب، وخمدت أحقاد الكفر ونيرانه، وبذلك حكّم العدل وشرعت منظومة الإسلام.

معنى قولها عليها السلام: «فَأَنَّى حُزْتُمْ بَعْدَ الْبَيَانِ».

قال العلّامة: أنّى: ظرف مكان بمعنى: أين، وقد يكون بمعنى: كيف، أي: من أين حرتم، وما كان منشؤه؟ وجرتم: إمّا بالجيم من الجور، وهو الميل عن القصد والعدول عن الطَّريق، أي: لماذا تركتم سبيل الحقّ بعدما تبيّن لكم؟ أو بالحاء المهملة المضمومة من الحَوْر بمعنى الرُّجوع أو النُّقصان، يقال: نعوذ بالله من الحَوْر

بعد الكَوْر، أي: من النُّقصان بعد الزيادة.. وإمّا بكسرها من الحيرة[١]. وتابعه عليه الشرّاح الخطبة[٢].

ويرد عليه الإشكال المارّ الذكر، وهو: ورود غير هذه الكلمّة المشروحة، فإنَّ الوارد في خطبة الاحتجاج: (حزتم)، وهو لم يذكر البتة.

فيكون المعنى: كيف حزتم وسقتم هذا الأمر إلى ما تريدون بعيداً عمّا يراد لكم ومنكم.

معنى قولها عليها السلام: «أَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الْإِعْلَانِ».

قال السيّد شبّر: أسررتم النصر والإعانة بعد الإعلان بهما[٣].

وقال العلّامة التبريزي: أسررتم كلمّة الإيمان، أي: تركتم العمل بها والقيام بمقتضيّاتها، بعد أن أعلنتم بها في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٤].

والسياق يأبى الأوّل فإنّها تتكلّم عن حدوث حالٍ بعد حالٍ.

أمّا الثاني فالسياق يحتّم علينا أخذ نفس المتعلّق للإسرار والإعلان، وهو: إعلان النصرة لأهل البيت الذي يناسبه الخذلان الواقع منهم.

والنكوص: الرجوع إلى الخلف.

معنى قولها عليها السلام: «وَأَشْرَكْتُمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ».

هنا تبيّن مدى الارتباط بين رعاية حقوقهم عليهم السلام وبين الإيمان بالله، فقرنت –

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٨٨، ١٨٩.

(٢) اللمعة البيضاء للمولى: ٦٧٨، وكشف المحجّة: ١٣٠.

(٣) كشف المحجّة: ١٣٠.

(٤) اللمعة البيضاء: ٦٧٨.

بحقٍّ – هذا بذاك، كما قرن الله توحيده بالشهادة لمحمّد بن عبد الله ﷺ، وكما قرن محمّدٌ ﷺ الايمان برسالته بالإقرار لعليٍّ عليه السلام بالولاية.

فالمحور وإن تصوّرناه متعدّداً، لكنّه واحد بهذا القرن والاعتبار، ولهذا بعد أنْ انتهت من الجمل أرفدتها بالنتيجة، وهي: بعد الظلم لنا وعدم رعاية حقّنا عدتم إلى الشرك بعد الإيمان، وإلى الدناءة بعد العزّ والعلو الذي كان بنا.

ومنه يظهر أنَّ الجمل لا يمكن أن تكون راجعةً إلى معنى واحدٍ، كما أفاده العلّامة[1].

واقتبست عليه السلام شيئاً من كتاب الله تعالى للدلالة على ما قالته سابقاً.

معنى قولها عليها السلام: «أَلاَ وَقَدْ أَرَى أَنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ إِلَى اَلْخَفْضِ وَأَبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْبَسْطِ وَاَلْقَبْضِ، وَخَلَوْتُمْ بِالدَّعَةِ وَنَجَوْتُمْ بِالضِّيقِ مِنَ اَلسَّعَةِ، فَمَجَجْتُمْ مَا وَعَيْتُمْ، وَدَسَعْتُمُ اَلَّذِي تَسَوَّغْتُمْ فَ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اَللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ».

لم يشخّص العلّامتان الرؤية، وهل هي العلم أم النظر بالعين؟

فقالا: الرؤية هنا بمعنى العلم أو النظر بالعين[2].

والأنسب الأوّل، لأنّه يتناسب مع الزهراء عليها السلام في كلّ ما تقوله وتفعله، بل حتّى نظر العين لابدَّ من إرجاعه إلى العلم بالمنظور دون سواه.

معنى قولها عليها السلام: «وقَدْ أَخْلَدْتُمْ إِلَى اَلْخَفْض»

---

(١) اللمعة البيضاء: ٦٧٨.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٩٠، اللمعة البيضاء: ٦٧٩.

أي: ملتم وكنتم إلى سعة العيش بتركككم منازعة القوم على حساب الحقّ والفضيلة.

معنى قولها عليها السلام: «وَأَبْعَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ».

والمراد به أمير المؤمنين عليه السلام، وصيغة التفضيل مثلها في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾[1] ولا نحتاج إلى طرّح العلّامة التبريزي: مع أنّه لا خيريّة في المفضّل عليه، فأفعل حينئذٍ إمّا وصف بلا تفضيل، أو فيه تفضيل على سبيل الفرض، أو على نظر القوم أو نحو ذلك[2].

وإنّما قلنا بعدم الحاجة لتكفّل تمثيل العلّامة بما قدّمه التبريزي بل أكثر، فإنّ العلّامة المجلسي جعل الخير في جانبٍ والشرّ في جانبٍ آخر كما جعلته الآية المباركة، ففاق التبريزي بوجوهه الثلاثة.

معنى قولها عليها السلام: «وَخَلَوْتُمْ بِالدَّعَةِ وَنَجَوْتُمْ بِالضِّيقِ مِنَ السَّعَةِ».

اجتمعتم بالراحة والسكون فانفردتم بهما متخلصين من ضيق الأمر، وضيق العداوة بالسعة في العيش وراحة البال.

معنى قولها عليها السلام: «فَمَجَجْتُمْ مَا وَعَيْتُمْ، وَدَسَعْتُمُ الَّذِي تَسَوَّغْتُمْ».

أي: أفرغتم ورميتم ما حفظتموه وما تعلمتموه، وقئتم ما شربتموه سائغاً سهلاً هنيئاً، ثُمَّ تلت الآية المباركة من سورة إبراهيم عليه السلام، وزادت فيها فاءً لتوصل كلامها السابق بكلام الله اللاحق.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ١٥.

(٢) اللمعة البيضاء: ٦٨٠.

معنى قولها عليها السلام: «أَلاَ وَقَدْ قُلْتُ مَا قُلْتُ هَذَا عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنِّي بِالْجِذْلَةِ الَّتِي خَامَرَتْكُمْ وَالْغَدْرَةِ الَّتِي اِسْتَشْعَرَتْهَا قُلُوبُكُمْ، وَلَكِنَّهَا فَيْضَةُ النَّفْسِ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ، وَخَوَرُ الْقَنَاةِ وَبَثَّةُ الصَّدْرِ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّةِ، فَدُونَكُمُوهَا فَاحْتَقِبُوهَا دَبِرَةَ الظَّهْرِ نَقِبَةَ الْخُفِّ بَاقِيَةَ الْعَارِ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ الْجَبَّارِ، وَشَنَارِ الْأَبَدِ، مَوْصُولَةً بِنَارِ اللّهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ، فَبِعَيْنِ اللَّهِ مَا تَفْعَلُونَ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ. وَأَنَا اِبْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَاعْمَلُوا إِنَّا عَامِلُونَ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ».

كأنَّ الشرّاح اتفقوا على حذف (هذا) من نصّ الخطبة التي تصدّوا لشرحها لذا لم يذكروها في متنهم!!

معنى قولها عليها السلام: «عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنِّي بِالْجِذْلَةِ الَّتِي خَامَرَتْكُمْ».

هذا هو النصّ الموجود في كتاب الاحتجاج، بل إنَّ بعضهم فسّر الجذلة –بما ذكر القوم– من أنَّها الخذلة، وهو أمرٌ غريبٌ[1].

نعم، ورد في بعض نسخ الخطبة ورواياتها (الخذلة).

والمعنى: أنّي خاطبتكم وبينت لكم ظلامتي، وأنا داريّة بثباتكم وانتصابكم على موقفكم الخاذل الذي خامرتموه فلزمتموه ولن تبرحوا.

وهذا أخذناه من لسان العرب، فإنَّهقال: والجاذل والجاذي: المنتصب، وقد جذا يجذو وجذل يجذل. الجوهري: الجاذل المنتصب مكانه لا يبرح، شبه بالجذل الذي ينصب في المعاطن لتحتك به الإبل الجربى، وجذل الشيء يجذل جذولاً:

(١) لاحظ: حاشية الاحتجاج: ١٠٤.

انتصب وثبت لا يبرح؛ قال أبو محمد الفقعسي:

لاقَتْ على الماءِ جُذَيلاً واتِدا ولم يَكُنْ يُحلِفُها المَواعِدَا

ويروى جذيلاً واطدا، والواتد: الثابت. وجذيلاً: يريد راعياً شبهه بالجذل. وإنه لجذل رهان أي صاحب رهان؛ عن ابن الاعرابي؛ وأنشد:

هل لك في أجَودِ ما قاد العَرَبْ هَلْ لك في الخالِص غير المُؤْتَشَب

جِذْل رِهانٍ في ذِراعَيْه حَدَب أزَلُّ إنْ قِيدَ وإنْ قامَ نَصَبْ

يقول: إذا قام رأيته مشرف العنق والرأس. ويقال: فلان جذل مال إذا كان رفيقاً بسياسته حسن الرعية. والأجذال: ما برز وظهر من رؤوس الجبال، واحدها جذل[١].

وقال في خامر: وخامر الرجل بيته وخمره: لزمه فلم يبرحه، وكذلك خامر المكان؛ أنشد الثعلب: وشاعِرٍ يُقالُ خَمِّرْ في دَعَهْ[٢]

معنى قولها عليها السلام: «وَالْغَدْرَةِ الَّتِي اِسْتَشْعَرَتْهَا قُلُوبُكُمْ».

قالوا: الغدر ضدّ الوفاء، واستشعره، أي: لبسه، والشعار: الثوب الملاصق للبدن[٣].

ومثله في المحجّة[٤]، وكذا في اللمعة مطوّلاً[٥].

ويبدو أنَّ مرادها غير ذلك، إذ قالت: استشعرها قلوبكم، وهو أنسب للإضمار.

---

(١) لسان العرب ٢: ٢٢٢.

(٢) لسان العرب ٤: ٢١٢.

(٣) بحار الأنوار ٢٩: ١٩٢.

(٤) كشف المحجّة: ١٣٥.

(٥) اللمعة البيضاء: ٦٨٣.

قال في اللسان: واستشعر فلانٌ الخوف إذا أضمره[١].

معنى قولها عليها السلام: «فَيْضَةُ اَلنَّفْسِ».

اظهار المضمر في النفس لاستيلاء الهمّ والحزن[٢].

معنى قولها عليها السلام: «ونفثة الغيظِ».

بالفم شبيه النفخ وهو أقلّ من التفل، ونفث الراقي ينفث أي: نفخ ومنه النفاثات في العقد السواحر، ومنه نفثة المصدور أي: تأوّه من له وجع الصدر أي: من في صدره داء موجع ظاهري أو باطني، وفي العلوي:

هيَ نَفثةُ المصدُور يطفئ بَردَها حَرُّ الصبابَةِ فاعذِلوني أو دَعوا

وقد يكون للمغتاظ تنفس عال تسكينا لحر القلب وإطفاء لنائرة الغضب. لنائرة الغضب[٣].

معنى قولها عليها السلام: «خَوَرُ اَلْقَنَاةِ».

قال فيه العلّامة: الخور بالفتح والتحريك: الضعف.. والقنا: جمع قناةٍ وهي الرَّمح، وقيل: كلُّ عصاً مستوية أو معوجَّة قناةٌ. ولعلّ المراد بخور القنا: ضعف النفس عن الصبر على الشدة وكتمان الضر، أو ضعف ما يعتمد عليه في النصر على العدو، والأوّل أنسب[٤].

---

(١) لسان العرب ٧: ١٣٢.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٩٢.

(٣) اللمعة البيضاء: ٦٨٣، ٦٨٤.

(٤) بحار الأنوار ٢٩: ١٩٢.

معنى قولها عليها السلام: «وَبَثَّةُ اَلصَّدْرِ وَتَقْدِمَةُ اَلْحُجَّةِ».

والبث: الحزن والغم الذي تفضي به إلى صاحبك. وفي حديث أم زرع: لا يولج الكف ليعلم البث؛ قال: البث في الأصل شدة الحزن، والمرض الشديد، كأنه من شدته يبثه صاحبه. المعنى: أنه كان بجسدها عيب أو داء، فكان لا يدخل يده في ثوبها فيمسه، لعلمه أن ذلك يؤذيها؛ تصفه باللطف؛ وقيل: إن ذلك ذم له أي لا يتفقد أمورها ومصالحها، كقولهم: ما أدخل يدي في هذا الأمر أي لا أتفقده، وفي حديث كعب بن مالك: فلما توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي أي اشتد حزني.

ويقال: أبتثت فلاناً سري، بالألف، إبثاثاً أي أطلعته عليه وأظهرته له.

وبثت الخبر، شدّد للمبالغة، فانبث أي انتشر. وبثت الأمر إذا فتشت عنه وتخبرته. وبثبث الخبر بثبثةً: نشرته، والغبار: هيجته[1].

وقال العلّامة: البثّ: النَّشر والاظهار، والهمّ الذي لا يقدر صاحبه على كتمانه فيبثّه: أي يفرِّقه.. وتقدمه الحجة: اعلام الرجل قبل وقت الحاجة قطعاً لاعتذاره بالغفلة[2].

معنى قولها عليها السلام: «فَدُونَكُمُوهَا فَاحْتَقِبُوهَا دَبِرَةَ اَلظَّهْرِ نَقِبَةَ اَلْخُفِّ بَاقِيَةَ اَلْعَارِ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ اَلْجَبَّارِ، وَشَنَارِ اَلْأَبَدِ، مَوْصُولَةً بِنَارِ اَللّهِ اَلْمُوقَدَةُ، اَلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى اَلْأَفْئِدَةِ».

معنى احتقب

---

(١) لسان العرب ٣: ٣١٣.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٩٢.

قال ابن منظور: احتقب خيراً أو شرّاً، واستحقبه: ادخره، على المثل، لأن الإنسان حامل لعمله ومدخره. واحتقب فلان الإثن: كأنّه جمعه واحتقبه من خلفه؛ قال امرؤ القيس:

فَاليَومَ أُسقى غَيرَ مُستَحقِبٍ إثماً مِنَ اللَهِ وَلا واغِل

واحتقبه واستحقبه، بمعنى، أي احتمله.

الأزهري: الاحتقاب شد الحقيبة من خلفٍ، وكذلك ما حمل من شيءٍ من خلفٍ، يقال: احتقب واستحقب؛ قال النابغة:

مُستَحقِبي حَلَقِ الماذِيِّ يَقدُمُهُم شُمٌّ العَرانين ضَرّابونَ لِلهامِ [1]

ومنه يظهر عدم الموجب لقول العلّامة: الحقب بالتحريك: حبلٌ يشدّ به الرحل إلى بطن البعير، يقال: أحقبت البعير، أي: شددته به، وكلَّ ما شدّ في مؤخر رحلٍ أو قتب فقد احتقب، ومنه قيل: احتقب فلانٌ الإثم كأنَّه جمعه واحتقبه من خلفه، فظهر أنَّ الأنسب في هذا المقام، احقبوها بصيغة الإفعال، أي: شدّوا عليها ذلك وهيّئوها للركوب، لكن فيما وصل إلينا من الروايات على بناء الافتعال[2].

معنى قولها عليها السلام: «دَبِرَةَ اَلظَّهْرِ نَقِبَةَ اَلْخُفِّ».

لعلَّ هذا هو السبب الذي دعا العلّامة المجلسي أن يقول مقالته المتقدّمة، لكنّه في ذات الوقت قال: وكلّ ما شدّ في مؤخّر رحلٍ أو قتب فقد احتقب، فلا داعي لحمله الاحتقاب على الاحقاب.

ودبرة الظهر: إذا أصيبت الدابة بقرحة، والجمع: دبر وأدبار.

---

(١) لسان العرب ٣: ٢٥٣.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ١٩٢، ١٩٣.

ونقبة الخفّ: بالكسر إذا رقّت اخفافه، واسم تلك النقبة نقب أيضاً.

ومعلومٌ: أنَّ الرحيل على ذلك لا يستمر ولا يكتب له الوصول.

ويمكن أن يكون مرادها من النقب مرض الجرب الذي يحمله الراكبون والغاصبون للخلافة بأخفافهم فيكون انتشار الإسلام المزعوم مريضاً كلّه، حامله ومحموله ومن يلقاهما.

وهو معنىً معقولٌ، وقد أشار في لسان العرب إلى امكان أن يطلق النقب، ويراد منه: الجرب.

وقبل ذلك أشار إلى أنَّ اسم تلك النقب نقبةٌ أيضاً[١].

والعار: عيبٌ لا يكون في معرض الزوال، كما أفاده التبريزي[٢].

معنى قولها عليها السلام: «مَوْسُومَةً بِغَضَبِ اَلْجَبَّارِ، وَشَنَارِ اَلْأَبَدِ، مَوْصُولَةً بِنَارِ اَللّٰهِ اَلْمُوقَدَةُ، اَلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى اَلْأَفْئِدَةِ».

الوسم: الكي، وجعل العلامة في الموسوم، وهذا هو المتعيّن، ودليله السياق.

والشنار: هو الأمر القبيح الشنيع، ولا يمكن تفسيره بالعيب والعار لئلا يلزم التكرار، كما فعله القوم.

و«نَارِ اَللّٰهِ اَلْمُوقَدَةُ»: المؤججّة على الدوام[٣].

و«الاطِّلَاعُ عَلَى اَلْأَفْئِدَةِ: اشرافها على القلوب بحيث يبلغها ألمها كما يبلغ ظواهر البدن، وقيل معناه: أنّ هذه النار تخرج من الباطن إلى الظاهر بخلاف نيران

---

(١) لاحظ: لسان العرب ١٤: ٢٤٩.

(٢) اللمعة البيضاء: ٦٨٥.

(٣) بحار الأنوار ٢٩: ١٩٣.

الدنيا[١].

وقال الشريعتمداري معلّقاً: أمّا المعنى الأخير فلا شاهد عليه، ولو اريد ذلك لقيل: تطلّع من الافئدة. أمّا المعنى الأوّل فيرد عليه: أنّ المدرك للآلام في كلّ مورد هو النفس المعبّر عنها بالقلب والفؤاد[٢].

أقول: لا حاجة إلى التعليق الأوّل، لأنَّ العلّامة ضعّفه بقوله: وقيل. أمّا تعليقه الآخر فيمكن أنْ يلاحظ عليه: أنَّ العلّامة لم يتكلّم عمّن يدرك هذا الألم، بل تكلّم عن اشراف النار على القلوب، بحيث يبلغ ألمها كما يبلغ ظواهر البدن.

علماً أنَّ العلّامة أخذ هذا المعنى من الفرّاء القائل: يبلغ ألمها الأفئدة، والاطّلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى واحد.

والعرب تقول متى طلعت أرضنا، وطلعت أرضي، أي: بلغت[٣].

والحاصل: أنَّ تلك النار التي أوقدها الله لا تحرق أجسامهم فحسب، بل تبلغ إلى القلوب التي هي مركز الشرّ فيهم.

معنى قولها عليها السلام: «فَبِعَيْنِ اَللَّهِ مَا تَفْعَلُونَ، وَسَيَعْلَمُ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».

فما دمم لا تزالون بعين الله لا يهمّنا شيءٌ من فعلكم.

والمنقلب: المرجع والمنصرف.

---

(١) بحار الأنوار ٢٩: ١٩٣.

(٢) الزهراء وخطبة فدك: ١٢٥.

(٣) معاني القرآن ٣: ٢٩٠.

معنى قولها عليها السلام: «وَأَنَا اِبْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ فَاعْمَلُوا إِنّا عامِلُونَ، وَانْتَظِرُوا إِنّا مُنْتَظِرُونَ».

إلى هنا أتمّت السيّدة فاطمة عليها السلام الحجّة، وبيّنت المحجّة، وختمت بقول الله مقتبسة ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[1].

هذا، وقد أجابها أبو بكر عندما انتهت، ولابدَّ أنْ نطوي كشحاً عن جوابه، وذلك: لأنَّه تجاوز مقداره في الرّد على البضعة الزكيّة عليها السلام، فقد وصفها بأوصاف غير لائقة بها، بل بالأدون منها، ولعلّ قارئ ردّه يحصل له العلم باختلال توازنه وحيرته وضلالته، فأهملت قيله وقائله.

وعدم الردّ كاشف عن دناءة المتحدّث وسوء حاله وسريرته، فتركته مع عظم الأثر إلى آخر حياتها، فصار يطلب الرضا، لكنّ الزهراء لم ترض عنه، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

---

(١) سورة الانعام، الآية: ١٥٨.

الخاتمة

تحقيق حال الرواية الملحقة بالخطبة الشريفة

وقد وصل بنا المقام إلى المسألة الثانية في الأهميّة التي كانت بعض أهدافنا من شرح الخطبة الفدكيّة، والتي تعدّ ظلماً آخر في عداد ظلامات الزهراء عليها السلام، وهي مسألة الانكفاء والرجوع إلى الدار.

فقد نقلوا رواية تعجب منها العقول، وتشمئز منها النفوس، لما فيها من هدرٍ لكرامة الإمام عليٍّ عليه السلام، الذي يعود هدراً لكرامة الصدّيقة الزهراء عليها السلام.

واعلم أنَّ هذه الرواية ليست جزءاً من الخطبة، وإنّما من ملحقاتها وأذنابها.

واعلم أيضاً أنَّ الخلط بين رواياتٍ ضعيفة سنداً، أو دلالةً، أو سنداً ودلالة – كما في روايتنا – وبين المعتقد صار سبباً لتشويه مقيت للعقيدة التي بنيت على أحكام العقل أصولها، وزينت بالروايات فروعها، فكان الحريُّ بالشارحين، بل الواجب في أعناقهم رميها وعدم الاعتناء بها مطلقاً، لا على أساس ضعفها فقط، بل على أساس معارضتها مع الأصول العقديّة المبتنيّة على القطع، كما أسلفنا.

والعتب على السيّد المرتضى –فيما نقل عنه الأربلي– والعلّامة المجلسي والعلّامة التبريزي والسيّد شبّر، فيما نقلوه وشرحوه بلا منهاج قويم وسراطٍ مستقيم، وإن أصلح بعضهم الأمر، وحاول لمّ العقد بعد ما تفرّط. بل وصل الحال بمحمّد

حسين كاشف الغطاء عندما وصفها بخروجها عن حدود الأدب على غير عادتها[١].

وفوق كلّ هذا الضعف الدلالي ضعفها سنداً بابن شاذان المجهول حاله، وشيخه محمّد بن علي بن معمر الذي لم يرد في حقّه جرحٌ أو تعديل[٢].

بل لو كانت تامّة الإسناد لا يجوز التعويل عليها والاعتماد، لهذا تجد بعضاً – كابن الشيخ الخاقاني – أدار جهة البحث، وتأوّل الصادر منها بما يقتضيه حكم العقل والنقل الصحيحين، لكنّك علمت بصعوبة الأخذ بها إن لم يكن مستحيلاً.

ولم نرد فعلاً نقل الرواية، ولا نقل التفاهات التي حامت حولها، لأنّنا نريد من قارئ هذه السطور أن يدور بذلك الفلك الرحيب الذي كتب الله له البداية، ولم تكتب له النهاية.

بقي في المقام الأخير شيء أخير...

أنَّ الرواية الملحقة بالخطبة رواية آحاد على جميع تقاديرها، في حين أنَّ رواية الخطبة ادّعى فيها العلامة: أنّها مشهورة روتها الخاصّة والعامّة[٣]. بينما ادّعى الشيخ محمد جواد المحمودي أنّها ممّا توجب العلم بصحّة الصدور[٤]. واثبات ذلك يستلزم تحقيقاً لا يسعه المقام.

والحمد لله وحده.

---

(١) جنة المأوى: ١٦٣.

(٢) لاحظ اسنادها في آمالي الطوسي: ٦٨٥.

(٣) بحار الأنوار ٢٩: ١٣٥.

(٤) خطب سيّدة النساء فاطمة الزّهراء: ١٢١.

المصادر

* القرآن العظيم.

* نهج البلاغة.

١. الاحتجاج، أحمد بن علي الطبرسي، المرتضى، مشهد المقدسة، ١٤٠٣.

٢. أسماء الأفعال وأسماء الأصوات في اللغة العربية، دكتور محمد بن عبد الإله جبر، دار المعارف، ١٩٨٠.

٣. إشراقات فكرية من أنوار الخطبة الفدكية، حبيب الهويدي، دار البلاغة للطباعة والنشر.

٤. أعظم شكوى وأبلغ بيان، محمد تقي اليزدي، دار المعارف الحكمية، لبنان – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٤٢.

٥. إقبال الأعمال، علي بن موسى بن طاووس، قرآن صاعد، قم، الطبعة الأولى، ١٤٣٥.

٦. آمالي الطوسي، محمد بن حسن الطوسي، دار الثقافة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٤.

٧. الأمالي، محمد بن علي بن بابويه، كتابجي، طهران، ١٣٧٦.

٨. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي، منشورات ذوي القربى، الطبعة الأولى.

٩. البحر المحيط، محمد بن يوسف الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت –

لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٨.

١٠. البلد الأمين والدرع الحسين، إبراهيم بن علي الكفعمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨.

١١. البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم بن علي أكبر الخوئي، الآداب، النجف الأشرف، ١٩٦٦.

١٢. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: علي الهلالي وسيري علي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤.

١٣. الجلّيّة في شرح الخطبة الشقشقية، حسام المرسومي، مكتبة الابرار، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٤٤٢.

١٤. جنة المأوى، محمد حسين كاشف الغطاء، تحقيق: محمد علي الطباطبائي، دار أنوار الهدى، الطبعة الأولى، ١٤٢٥.

١٥. الخصال، محمد علي بن بابويه، تحقيق: علي أكبر غفاري، جماعة المدرسين، قم، الطبعة الأولى، ١٣٦٢.

١٦. خطب سيدة النساء فاطمة الزهراء (عليها السلام) مصادرها وأسانديها، محمد جواد المحمودي، عترة، الطبعة الأولى، ١٤٢١.

١٧. الدرة البيضاء، هادي حسين الحسيني.

١٨. الدرر النجفية من الملتقطات اليوسفية، يوسف بن أحمد البحراني، دار المصطفى لإحياء التراث، الطبعة الثانية، ١٤٢٨.

١٩. دروس في علم الأصول، الحلقة الثالثة، محمد باقر الصدر، مجمع الفكر الإسلامي، قم، الطبعة الأولى، ١٤٣٢.

٢٠. الزهـراء وخطبـة فـدك، محمـد تقـي الشـريعتمداري، دار كلسـتان، الطبعـة الأولى، ٢٠٠٣.

٢١. السـقيفة وفـدك، أحمـد بـن عبـد العزيـز الجـوهري، مكتبـة نينـوى الحديثـة، طهران.

٢٢. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيـل الهمـداني، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، دار الغدير، الطبعة الأولى، ١٤٣٤.

٢٣. شرح الرضي، رضي الدين الاسترآبادي، تحقيق: يوسف عمر، دار المجتبـى، قم، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

٢٤. شرح المختصر، سعد الدين التفتازاني.

٢٥. شرح خطبة الصديقة فاطمة الزهراء، محمد طاهر آل شبير الخاقاني، تحقيـق: محمد كاظم الخاقاني، انتشارات أنوار الهدى.

٢٦. علل الشرائع، محمد علي بن بابويه، الداوري، الطبعة الأولى، ١٩٦٦.

٢٧. عمدة عيون صحاح الأخبار، يحيى بن حسن بن البطريق، جماعة المدرسين، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧،

٢٨. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تصحيح: الإستاذ أسعد الطيب، انتشارات اسوة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٤.

٢٩. فدك في التأريخ، محمد باقر الصـدر، تحقيـق: الـدكتور عبـد الجبـار شـرارة، مركز الغدير، بيروت – لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩.

٣٠. قاموس تصريف الأفعال والأسـماء، الـدكتور إميـل يعقـوب، جـروس بلـس، طرابلس – لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٨.

٣١. الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٣٩٨.

٣٢. كشف الغمة، علي بن عيسى الأربلي، بني هاشم، الطبعة الأوّلى، ١٣٨٠.

٣٣. كشف المحجّة، عبد الله شبّر، تحقيق: الشيخ علي الأسدي، فدك لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٢٨.

٣٤. كفاية الأُصول، محمد كاظم الخراساني، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧.

٣٥. لسان العرب، ابن منظور الشافعي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨.

٣٦. اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء (عليها السلام)، محمد علي بن أحمد التبريزي، تحقيق: السيد هاشم الميلاني، دار التبليغ الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٣٢.

٣٧. مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨.

٣٨. مجمع البيان، الفضل بن حسن الطبرسي، الأميرة للباعة والنشر، بيروت – لبنان، الاطبعة الأوّلى، ١٤٣٠.

٣٩. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، الفيحاء، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣١.

٤٠. المختصر النافع في فقه الإمامية، جعفر بن الحسن الحلي، مؤسسة البلاغ، الطبعة الأولى، ١٤٢٩.

٤١. المسترشد في إمامة علي بن أبي طالب (عليه السلام)، محمد بن جرير

الطبري، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٠.

٤٢. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي، مؤسسة دار الهدرة، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٤.

٤٣. المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، سنة الطبع ٢٠٠١.

٤٤. معاني القرآن، يحيى بن زياد الفرّاء، تحقيق: أحمد يوسف ومحمد علي النجار، دار السرور.

٤٥. معجم أسماء الأفعال في اللغة العربية، الدكتور أيمن بن عبد الرزاق الشّوا، مطبوعات مجمع اللغة العربي بدمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧.

٤٦. مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، مؤسسة الصادق، طهران، الطبعة الأولى، ١٣٧٨.

٤٧. من لا يحضره الفقيه، محمد بن علي بن بابويه، تحقيق: علي أكبر غفاري، دفتر انتشارات إسلامي، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٣.

٤٨. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، الأميرة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٤٣١.

٤٩. وسائل الشيعة، محمد بن حسن العامدي، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام)، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٩.

المحتويات

المقدّمة ٥
نصّ الخطبة الشريفة ١٣
وقفة مع كلام الراوي ١٩
سرّ البكاء ٢٨
شرح الخطبة الشريفة ٢٩
كلامها عليها السلام في مدح الله سبحانه والثناء عليه وبيان قدرته ٢٩
كلامها عليها السلام في النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله والحكمة من بعثته ٥٢
مخاطبتها عليها السلام لعامّة الناس ٦٦
كلامها عليها السلام في الحكمة من تشريع الأحكام الإلهيّة والرسالات السماويّة. ٧٠
كلامها عليها السلام حول النبيّ صلى الله عليه وآله وفضله ٩٨
كلامها عليها السلام في بيان جهاد أمير المؤمنين عليه السلام ١٣٤
كلامها عليها السلام في بيان نفاق الناس ١٣٧
كلامها عليها السلام في بيان حقّها وإرثها واعتراضها على أبي بكر ١٥٣
كلامها عليها السلام لخصوص الأنصار واستنهاضهم ١٦٠
الخاتمة ١٨٧
المصادر ١٨٩